أحاديث معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم

التى ظهرت فى زماننا

الجزء الثانى



دكتور

عبد المهدى عبد القادر عبد الهادى

أستاذ الحديث بجامعة الأزهر



أحاديث

معجزات الرسول ﷺ

التي ظهرت في زماننا

الجزء الثاني

(٢) الأمة الإسلامية

تأليف
الأستاذ الدكتور
عبد المهدى عبد القادر عبد الهادى
أستاذ الحديث بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر .

مكتبة الإيمان
٤ ش أحمد سوكارنو ـ العجوزة
ت: ٣٤٥٢٣٠٢

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

رقم الإيداع : ١٧٠٦٣ / ٢٠٠١م
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977 - 5260 - 24 - 8

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٤٨٢٧٨٥١

مكتبة الإيمان
٤ ش أحمد سوكارنو - العجوزة
ت : ٣٤٥٢٣٠٢

قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾

[سورة آل عمران، آية: ٣١، ٣٢]

وقال تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾

[سورة آل عمران، آية: ١٦٤]


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذا هو الجزء الثانى من كتاب «أحاديث معجزات الرسول ﷺ التى ظهرت فى زماننا» جمعت فيه عددًا من الأحاديث التى أخبر فيها ﷺ عن أمور ستحدث، فظهرت فى زماننا كما أخبر ﷺ، وهذا من أعلام نبوته، وأدلة عظمة سنته، وأن الوحى الربانى إليه ﷺ إنما يُصْلِحُ الأُمَّةَ على طول تاريخها.

إن هذه الأحاديث تكلم فيها رسول الله ﷺ عن زماننا، ينصحنا ويوصينا، ومن هنا ففيها الخير العظيم لأهل زماننا، ولذا اهتممت بجمعها وشرحها.

ولقد بذلت فى خدمة هذه الأحاديث غاية وسعى، فموضوعاتها دقيقة ومفيدة، مما يقتضى أن يُتَنَاوَل الموضوع بكل أبعاده. وأن أجمع معه النصوص التى معه فى موضوعه من آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وأن أستخرج معانى النصوص ومكنونها حتى تتضح المسألة بكل أبعادها. وألحت على المغزى الذى تفيده النصوص مؤكدًا موضحًا، كى ينجلى المعنى، ويتضح المراد العام. واجتهدت فى جمع النصوص التى فى موضوع الحديث، وعزوت الآيات لسورها، وخَرَّجْت الأحاديث من كتب السُّنَّة وبْينت حالها من حيث الصحة أو عدمها.

وأبرزت وجه إعجاز الحديث، فبينت أن الأمر الذى أخبر ﷺ أنه سيحدث إنما كان العقل العادى لا يتصور أنه سيحدث يومًا من الأيام، إلا أنه ﷺ بوحى الله أخبر أن هذا سيحدث، فوقع فى زماننا كما أخبر ﷺ بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام. وهذا يزيدنا إيمانًا بجلال الله سبحانه، وأنه جل علاه العليم الخبير الذى أحاط بكل شىء علمًا، وأنه سبحانه أوحى إلى رسوله ﷺ كل ما من شأنه أن يصلح دين الأمة ودنياها وآخرتها، فبلّغ رسول الله ﷺ ذلك الأمة، وتناقلته الأمة برواية الأئمة الثقات، وها نحن نسعد بهذه الأحاديث وظهورها فى حياتنا، نسعد لأخذها بأيدينا إلى الطريق المستقيم، ونسعد لأنها تزيدنا إيمانًا بعظمة الله سبحانه، وعظمة الإسلام، وعظمة رسول الله، وعظمة سنته ﷺ[1].

ثم إنى ذكرت الدروس التى تستفاد من كل حديث، أوجزت تحت هذا العنوان ما فصلته أثناء الشرح.

ثم إنى ختمت بخاتمة أوجزت فيها ما فى الأحاديث التى شرحتها فى هذا الجزء.

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل أعمالنا، وأن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل، وأن يوفقنا لما يرضيه، فهو سبحانه نعم المسئول ونعم المجيب.

المعادى ربيع الأول ١٤٢٣هـ
مـايــــو ٢٠٠٢ م

قاله وكتبه
عبد المهدى

(١) راجع مقدمة الجزء الأول «الإسلام».

الإخبار باجتماع الأمم على المسلمين

عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُم الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَما تَداعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ الله أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: أَنْتُم كَثِيرٌ، ولكن تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يُنْتَزَعُ المَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، ويُجْعَلُ فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهْنُ. قَالَ: قُلْنَا: ومَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[1].

وفى رواية «ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن»[2].

● **المعانى:**

«يوشك» يَقْرُب، والقرب فى كل شىء بحسبه، فهو فى عمر الأمم بخلافه فى عمر الشخص.

«أن تداعى عليكم الأمم» أى تدعو الأمم بعضها بعضًا ليجتمعوا عليكم، يريدون كسر شوكتكم، والغلبة عليكم، وسلب ما فى أيديكم من الأموال والديار. و«الأمم» جمع أمة، والمراد فرق الكفر، وأمم الضلالة، من اليهود، والنصارى، وغيرهم.

«من كل أفق» أى من كل ناحية، يأتون إليكم، ويتخطفونكم من كل

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ٥/٢٧٨. وأبو داود فى الملاحم باب فى تداعى الأمم على الإسلام ١١/٤٠٤. وإسناد أحمد قوى.

(٢) هى رواية أبى داود التى سبق تخريجها.

ناحية وجهة من جهات بلادكم. أو يتخطفونكم من كل ناحية من نواحى الحياة، فيتحكمون فى طعامكم، ويسيِّرون كل شأن من شئونكم كما يحبون لمصالحهم، لا لمصالحكم.

«كما تداعى الأكلة على قصعتها» «الأكلة» جمع آكل، مثل طلبة جمع طالب. والمراد أن أمم الكفر والضلال يدعون بعضهم بعضًا عليكم، كما يدعو الأكلة بعضهم بعضًا على قصعة طعامهم.

والأكلة يحصلون على طعامهم من القصعة بكل سهولة، فكذلك الأمم تأخذ ما فى أيديكم بسهولة ويسر، لا قوة لكم تردهم، ولا بأس لكم يصدهم.

«أمن قلة بنا يومئذ» أى تداعى الأمم علينا، واجتماعهم لأخذ ما فى أيدينا، سببه قلة عددنا فى هذا الوقت؟

«أنتم كثير» أى أن تداعى الأمم ليس بسبب قلة عددكم، فأنتم فى العدد كثيرون.

«ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل» ثم أبان ﷺ لهم السر فى تداعى الأمم عليهم، وهو أنهم يكونون «غثاء كغثاء السيل» والغثاء ما يكون فى القناة وهى جافة من نباتات يابسة، وأشياء بالية، يأتى السيل فيحمل هذه الأشياء، ويلقيها فى جوانب مجراه. والمراد أن الأمة تكون كغثاء السيل، لقلة شجاعتهم، وضعف شأنهم، فكما أن غثاء السيل لا قيمة له فكذلك الأمة، وكما أن غثاء السيل لا يملك لنفسه شيئًا، وإنما يحمله الماء حسب اتجاهه، فكذلك الأمة، يسير أمورها أعداؤها، ولا تستطيع أن تتحكم فى شئونها.

«ينتزع المهابة من قلوب عدوكم» فى رواية أخرى «ولينزعن الله من

صدور عدوكم المهابة منكم» والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يخرج من صدور عدوكم الخوف والرعب منكم. أى أن المهابة منكم ثابتة فى صدور أعدائكم، ولحبكم الدنيا وكراهيتكم الجهاد فى سبيل الله، فإن الله تبارك وتعالى يخرج هذه المهابة، وينزعها من قلوب أعدائكم، فلا يخافونكم ولا يهابونكم.

«ويجعل فى قلوبكم الوهن» وفى رواية أخرى «وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن» أى وليرمين الله فى قلوبكم الوهن، وهو الخوف من الأعداء، والجبن عن اللقاء.

«قلنا: وما الوهن؟» لم يكن السائل جاهلاً معنى كلمة «الوهن» وأن معناها الضعف، كما فى قول الله سبحانه: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ**﴾ أى ضعفًا على ضعف. وهذا ما فهمه الرسول ﷺ، ولذا فإنه لم يفسر له الكلمة. وإنما أدرك ﷺ أن السائل يسأل عن سبب هذا الوهن، وكأنه يقول وما سبب هذا الوهن؟ أو ما مصدر هذا الضعف الذى سينتابنا؟

«حب الدنيا وكراهية الموت» حبكم الأغراض الدنيوية من المال واكتنازه، والشهوات وإشباعها، والنزوات ومتطلباتها من السلطة والصدارة. ثم قال ﷺ «وكراهية الموت» وهذا لازم لسابقه، فمن أحب الدنيا كره الموت. والمراد بالموت الاستشهاد فى سبيل الله، كما جاء فى حديث أبى هريرة «.. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال»[1] أى الجهاد فى سبيل الله تعالى.

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥٩ والطبرانى فى الأوسط، قال فى المجمع ٧/ ٢٨٧: وإسناد أحمد جيد.

• **راوى الحديث:**

ثوبان مولى رسول الله ﷺ: كان ثوبان رجلاً مسلمًا، لكنه كان عبدًا يباع ويشترى، فاشتراه النبى ﷺ وأعتقه، وقال له: إن شئت أن تلحق بمن أنت منهم، وإن شئت أن تكون منا أهل البيت، فاختار أن يظل على ولاء رسول الله ﷺ، يعيش قريبًا منه، يسعد بما يأتيه من الهدى والنور، ومن هنا لم يكتف بالبقاء فى المدينة، وإنما لازم رسول الله ﷺ سفرًا وحضرًا، كيف لا، وهو الذى ترك أهله، وآثر العيش مع رسول الله ﷺ، لما رأى من أنوار النبوة، وأخلاق المرسلين.

ولسوف تتضح لنا درجة حب هذا الصحابى لرسول الله ﷺ مما يذكره القرطبى ـ رحمه الله تعالى ـ فى تفسير قول الله تعالى: **﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾** [1] إذ يقول: حكى الثعلبى أنها نزلت فى ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم، وقد تغير لونه، ونحل جسمه، يعرف فى وجهه الحزن، فقال له: يا ثوبان، ما غير لونك؟ فقال: يا رسول الله، ما بى ضر ولا وجع، غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة، حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، وأخاف ألا أراك هناك، لأنى عرفت أنك ترفع مع النبيين، وإنى إذا دخلت الجنة كنت فى منزلة هى أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

---

(١) سورة النساء: ٦٩.

(٢) تفسير القرطبى ٥/ ٢٧١.

وفى هذا تطمين لثوبان، وتعريف بقدره، وفيه أيضًا فتح الباب للمحبين والصالحين، فليؤملوا فى رفقة سيدنا رسول الله ﷺ فى الجنة، وذلك بالعمل الصالح، والسير على الهدى الذى كان عليه ﷺ. فالحمد لله الذى روى ظمأ المشتاقين وفتح باب الرجاء أمام المحبين، كما قال ﷺ حينما سأله سائل: متى الساعة[١]؟ فقال ﷺ «وما أعددت للساعة؟» فقال السائل: حب الله ورسوله. أى أعددت لها حب الله ورسوله، وفى رواية أنه قال: يا رسول الله، ما أعددت لها كبير صلاة، ولا صيام ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: «فأنت مع من أحببت» يقول أنس ـ رواى الحديث ـ فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبى ﷺ «فإنك مع من أحببت» ثم يقول أنس: فأنا أحب الله ورسوله، وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم[٢].

ولقد كان حب ثوبان مقرونًا بالعمل، فلم يك حبًا عاطفيًا يعلو ثم ينخفض، وإنما أحب الله ورسوله ﷺ،وهو يعلم أن الحب يستلزم الاتباع كما قال الله تعالى: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾** [٣]، ومن هنا فلقد كان حريصًا على ملازمة رسول الله ﷺ ليتعلم دين الله، وكلما تعلم عمل، ومن صور ذلك أن رسول الله ﷺ قال «من يكفل لى أن لا يسأل الناس شيئًا، وأتكفل له بالجنة؟ فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل الناس شيئًا[٤]. وهكذا فلقد كان هذا الصحابى الجليل حريصًا على أن يتعلم، وأن يعمل، مهما بدا فى التكليف شدة،

---

(١) الساعة اسم من أسماء القيامة.

(٢) أخرجه مسلم فى البر باب المرء مع من أحب ٤/ ٢٠٣٢، ٢٠٣٣.

(٣) سورة آل عمران: ٣١.

(٤) أخرجه أبو داود فى الزكاة باب كراهية المسألة ٢/ ١٢١.

فمن يستطيع أن لا يسأل الناس، فإذا سقط سوطه وهو على البعير نزل فأخذه، ولا يسأل أحدًا أن يناوله، وإذا كان فى أمر اجتهد بنفسه ولا يسأل الآخرين، اللهم إلا أن يستأجر، لكن للمرء ما اعتاد، فلقد عود ثوبان نفسه على ذلك، على الاتباع رجاء حب الله ومغفرته، فيسر الله له الاتباع.

ومن هنا نال ما نال من المنازل، فبشر بالجنة، واعتبر من أهل البيت، فلقد دعا رسول الله ﷺ لأهله، فقال ثوبان: أنا من أهل البيت فقال ﷺ فى الثالثة: نعم، ما لم تقم على باب سدة، أو تأتى أميرًا تسأله[١].

مات ثوبان مولى رسول الله ﷺ سنة أربع وخمسين، رضى الله عنه وعن الصحابة والتابعين[٢].

• شرح الحديث:

* أمة الإسلام أمة منصورة:

فى وقت كانت دولة الإسلام أقوى دولة فى العالم، الجميع يهابها، والكل يخطب ودها، دولة عزيزة الجانب، عالية الشأن، دولة كل أفرادها مؤهل لخوض المعارك، وكل جندى واثق بنصر الله سبحانه، فهو يقرأ الآيات المشتملة على الوعد من الله تعالى بالنصر، فهو يقرأ:

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٣].

---

(١) أخرجه ابن السكن.

(٢) من مصادر ترجمته: الإصابة ١/ ٢٠٤، سير أعلام النبلاء٣/ ١٠٥، أسد الغابة ١/ ٢٩٦، الطبقات الكبرى ٧/ ٤٠٠، تهذيب الكمال ٤/ ٤١٣.

(٣) سورة الروم: ٤٧.

ويقرأ: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١).

وهو أيضًا واثق أن أمة الإسلام أمة يحوطها الله بعنايته ورعايته، يشاهد ذلك واقعًا ملموسًا، فها هم المشركون فى غزوة الأحزاب يطردهم الله عن جيش المسلمين، دون حرب أو قتال، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٢). وهذه سرية تذهب للجهاد، وينتهى طعامهم، فيرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، إذ يلقى البحر بحوت ضخم، فيأكلون منه حتى تنتهى مهمتهم، ويعودون إلى المدينة ومعهم من لحمه بقية.

إن الجندى المسلم يعرف سنن الله الكونية، ومنها أنه سبحانه ينصر المسلمين ما داموا قد بذلوا كل طاقتهم، فإذا جمعوا جموعهم ما أمكن، وأعدوا من العدة ما استطاعوا فإن الله تبارك وتعالى ينصرهم. والآيات أمام المسلم تترى تبين كيف تكون المعارك بين الكفر والإيمان، فيقول سبحانه: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ الآيات(٣).

---

(١) سورة الحج: ٤٠.

(٢) سورة الأحزاب: ٩.

(٣) سورة الأنفال: ٩ فما بعدها.

فالله سبحانه وتعالى يثبت المؤمنين، فيجعلهم ينامون هادئين، ويجعل السماء تمطر، ليغتسل من أراد، ولتكون الأرض ثابتة، فإن الرمال تثبت إذا نزل عليها الماء، وينزل الملائكة تطمينًا للمسلمين، وتقوية لعزيمتهم، ومن ناحية أخرى، فهو سبحانه يلقى الرعب فى قلوب الكافرين. فماذا بقى من القتال، إن النتائج محتومة، النصر لعباد الله المؤمنين.

*** أسباب النصر والعزة:**

إلا أن هذا التأييد والنصر ليس على إطلاقه، فليس لكل جيش مسلم، وإنما هو مشروط بالاستقامة على دين الله تعالى، فإذا حدث انحراف تأخر النصر، بل وربما وقعت الهزيمة، لا لقلة عدد المسلمين، ولا لضعف عدتهم، ولكن للانحراف عن دين الله الذى كلف الأمة بالاستقامة عليه.

* يقول سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم** (١) **بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ** ﴾ (٢).

أى أن ما وعدكم الله به من النصر والتأييد بالملائكة قد تحقق، حتى إذا فشلتم وخالفتم أمر الله سبحانه وقعت الهزيمة.

* ويقول سبحانه: ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ (٣) أى أنه لما وقعت بكم الهزيمة يوم أحد، قلتم: من أين هذا؟ كيف نهزم ونحن أمة التوحيد؟ لا، إن الهزيمة جاءت لأنكم

(١) تقتلونهم.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٢.

(٣) سورة آل عمران: ١٦٥.

خالفتم المنهج الإلهى، فرغبتم فى الدنيا!! وخالفتم أمر رسول الله ﷺ، حينما نزل الرماة من على الجبل حرصًا على الغنيمة!!!

* ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (1) فالله سبحانه قد نصركم فى مواطن كثيرة، لكنكم حينما غَرَّتْكُم كَثْرَتُكُم، حتى قال أحدكم: لن نُغْلَب اليوم عن قلة. رفع تثبيته الذى يثبتكم به، فلم تثبتوا، ولم تنفعكم كثرتكم، ووليتم مدبرين.

إن نصر الله موجود فى كل حين، لكنه للمستقيمين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (2)، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (3).

فالله سبحانه وتعالى ينصر عباده الموحدين، ويوفر لهم أسباب النصر النفسية والقلبية ما داموا مستقيمين على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن هنا قال ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»(4) فالله سبحانه وتعالى يلقى الرعب فى قلوب أعداء المسلمين، وبينهم ـ أى وبين جيش المسلمين وجيش أعدائهم ـ مسيرة شهر، وهذا إكرام منه سبحانه وتعالى لهم على توحيدهم.

---

(1) سورة التوبة: ٢٥، ٢٦.

(2) سورة الحج: ٣٨.

(3) سورة الحج: ٤٠، ٤١.

(4) أخرجه البخارى فى التيمم الباب الأول منه ١/ ٤٣٦.

وفى هذا الحديث الذى نشرحه يبين ﷺ أن التثبيت الذى يمن الله به على المؤمنين، إنما هو لاستقامتهم، فإن لم يستقيموا لم يكن التثبيت، بل العكس من ذلك، يقذف الله سبحانه فى قلب المسلمين الوهن أى الضعف والجبن، فيخافون أعداءهم، يخافون قوتهم، أو يخافون عدتهم، أو يخافون حيلهم، أو يخافون مؤامراتهم، أو يخافونهم من كل هذه النواحى، عمومًا يخافونهم بعد أن كانوا يخيفونهم.

وفيه يبين ﷺ أيضًا أن الله قد وضع فى قلوب الكافرين هيبة من المسلمين، وذلك فى قوله ﷺ «ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم» فالمهابة فى قلوب أعداء المسلمين ثابتة، شديدة الأثر، قوية الاستقرار،حتى إنها تحتاج فى إخراجها لنزع. إلا أن هذه المهابة إنما تظل إذا استقمتم على دين الله، أما إذا اعوججتم فإن الله تبارك وتعالى ينزعها من قلوب أعدائكم.

إن هذه المهابة نعمة من الله على أوليائه، وأهل طاعته، ولا ينزعها إلا هو سبحانه، وهو سبحانه لا ينزعها إلا إذا لم يؤد أولياؤه حقها.

فإذا ألقى سبحانه الوهن فى قلوب المسلمين، ونزع المهابة من قلوب أعدائهم،فإن الأمم ينادى بعضها بعضًا ليجتمعوا على أكل دولة الإسلام.

إن الحديث الذى معنا يدور مع الآيات لتأكيد معنى واحد، فنصر الله لا يتخلف عن عباده الموحدين المستقيمين، فإن انحرفوا حرمهم نعمه، فنعمه سبحانه لمن أطاعه، وأدى حق العبودية لله تعالى.

*** أسباب الضعف:**

وعندما أخبر الرسول ﷺ الصحابة بهذا الحديث «يوشك أن تداعى عليكم الأمم . .» تعجب الصحابة؛ كيف تتداعى الأمم عليهم، وهم

الذين يفتحون البلاد؟ كيف تتداعى عليهم الأمم وهم الذين وعدهم الله بالنصر والتمكين فى الأرض؟ كيف تجتمع الأمم عليهم كاجتماع الأكلة على القصعة، يتناولون الطعام بلا عناء، بل بكل شهوة واشتهاء؟

وأقصى ما وصل إليه تفكيرهم أن يقل عدد الأمة جدًا، فيغتالهم الأعداء، إذ قال الصحابى: أمن قلة بنا يومئذ؟

وجاء الجواب من رسول الله ﷺ مبينًا أن المشكلة ليست من قلة عددهم، وإنما من انحرافهم عن الهدى الذى عليه ﷺ وأصحابه، إنهم سيكونون فى هذا الوقت كثيرين، لكنها كثرة لا قيمة لها، ولا فائدة فيها، إنها كثرة على انحراف، وهذه الأمة لا تنصر بكثرة عددها، ولا بقوة عدتها، وإنما بتأييد الله لها عند استقامتها.

لقد جاء هذا الحديث، يبين فيه ﷺ سبب تغير حال الأمة، من أمة قوية إلى أمة مستضعفة، من أمة لها مهابتها فى قلوب أعدائها إلى أمة فى قلبها الخوف من أعدائها، إن سبب ذلك هو: حب الدنيا، وكراهية القتال فى سبيل الله تعالى.

ولقد جاء التحذير من ذلك فى القرآن الكريم، فحذرنا ربنا من الميل إلى الدنيا والركون إليها، وتفضيلها عن نصرة دين الله تعالى، فيقول سبحانه: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُم وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ** [١] **وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا** [٢] **وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا** [٣] **وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ**

---

(١) عشيرة الرجل: قرابته القريبون الذين يعاشرونه.

(٢) اكتسبتموها.

(٣) عدم رواجها.

الْفَاسِقِينَ﴾ (١) أى إن كانت هذه الأشياء من المشتهيات الدنيوية أحب إليكم من طاعة الله ورسوله، وأحب إليكم من الجهاد فى سبيل الله، فانتظروا نزول العقاب العاجل أو الآجل بكم، وأنتم بهذه المخالفة فاسقون، خارجون عن الطاعة، مجانبون الاستقامة.

ويقول سبحانه حاثاً على الإنفاق فى سبيل الله، والجود بالنفس والمال فى سبيل نصر دين الله، يقول سبحانه حاثًا على ذلك، ومحذرًا من البخل وحب الدنيا، ومبينا أن ترك الجهاد، والبخل بالمال، أو بالنفس، أو بالوقت عن نصرة دين الله، إنما ذلك مهلكة للأمة، ومضيعة لعزتها وكرامتها، فيقول سبحانه: **﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** (٢) أى جودوا بالنفس والمال، وجودوا بالوقت والجهد فى سبيل الله ونصرة دينه سبحانه، وحذار من البخل بذلك، فإنكم إن بخلتم تكونوا قد ألقيتم أنفسكم بأيديكم فى التهلكة، وأى هلاك أقوى من أن تجبنوا عن الجهاد، وتركنوا إلى الدنيا؟ إنكم بذلك تكونون قد عصيتم ربكم، وحدتم عن هدى نبيكم، وتركتم نصرة دينكم، تكونون قد تركتم الضلال ينتشر ويسير، والظلم يظهر بأثره الخطير، مما يجعل البشرية مقهورة، ويودى بالعدل فى أنحاء المعمورة. وهذا يتنافى مع رسالتكم كأمة النبى الخاتم.

وعن أسلم بن يزيد قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفًا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل عليهم، فصاح الناس، وقالوا: سبحان الله!!

(١) سورة التوبة: ٢٤.

(٢) سورة البقرة: ١٩٥.

يلقى بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصارى فقال: أيها الناس، إنكم لتأولون هذه الآية هذا التأويل[١]، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما أعز الله الإسلام، وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًا دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا فى أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها[٢]، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ فكانت التهلكةُ: الإقامةَ على الأموال وإصلاحَها، وتَرْكَنَا الغَزْوَ. فما زال أبو أيوب شاخصًا[٣] فى سبيل الله حتى دفن بأرض الروم[٤].

لقد ظن بعض المجاهدين أن من واجه جموع الأعداء فقد ألقى بنفسه فى التهلكة، فبين لهم أبو أيوب، وهو الصحابى الجليل الذى أدرك نزول الوحى، وحظى بإقامة رسول الله ﷺ فى بيته شهرًا، بين لهم أن مواجهة العدو ليس تهلكة، وإنما التهلكة القعود عن الجهاد، وإيثار الأموال والراحة، هذه هى التهلكة، فليحذرها المسلمون. أما الجرأة والشجاعة، أما الإغارة على الأعداء، فهذا من أسس الجهاد.

وواضح من هذه الآيات ما هو واضح من حديث الباب من التحذير من الركون إلى الدنيا وترك الجهاد، والحث على الجهاد والإنفاق فى سبيل الله لنصرة الحق، وإقامة العدل، فإن كانت الأمة هكذا معرضة عن الدنيا، مقبلة على دين الله ونصرته أعزها الله وأعلاها، وإن كانت

---

(١) وهو أن المجاهد إذا أغار على عدد كبير يكون قد ألقى بنفسه إلى التهلكة، إن الأمر ليس كذلك، وهذا المجاهد قد باع دنياه بآخرته.

(٢) أى لكان أحسن.

(٣) خارجا.

(٤) أخرجه الترمذى فى التفسير من سننه، فى تفسير سورة البقرة ٨/ ٣١١.

الأخرى من حب الدنيا وترك الجهاد فقد أحلت بنفسها الذا، فى الدنيا والخزى فى الآخرة، نسأل الله أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه.

*** مكانة الجهاد:**

وكثير وكثير من الآيات والأحاديث يركز على هذا المعنى ويؤكده، وهو أن الأمة إذا مالت إلى الدنيا وتركت الجهاد عوقبت وذلت، فقال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (١) والمصابرة: نوع خاص من الصبر، فهى صبر على شدائد المعارك، ومغالبة الأعداء. و ﴿**وَرَابِطُوا**﴾ أى أقيموا فى الثغور، وهى المناطق التى يمكن أن يباغت العدو منها الأمة، أو جيش المسلمين، فأقيموا فى هذه المناطق تحرسون وتترصدون ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ فمن صبر وصابر ورابط مخلصًا لله، متلمسًا رضاه، فقد أفلح وأنجح، ونال المرغوب، ونجا من المرهوب. أما غيره فقد خسر وذل.

ويقول سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (٢) وفى هذا توبيخ وتقريع على التباطؤ عن الجهاد، مهما كانت المشقة فيه. وفيه تهديد شديد، فقد هدد سبحانه وتعالى تاركى الجهاد بالعذاب، بل وباستبدال غيرهم، وهو سبحانه القادر المقتدر.

---

(١) آخر سورة آل عمران.

(٢) سورة التوبة: ٣٨، ٣٩.

ويقول ﷺ: «لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر[١]، وتبايعتم بالعينة[٢]، لَيُلْزِمَنَّكُم الله مذلة فى رقابكم، لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا على ما كنتم عليه»[٣].

ويقول ﷺ: «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب»[٤].

ووقع هذه النصوص على سمع المسلم شديد، وإعلاؤها لقدر الجهاد أكيد، وإثباتها أن الأمة إذا لم تهتم بالجهاد، نزل عليها عذاب الله، ومن هذا العذاب ذل يلزمها حتى ترجع إلى المنهج السوى الذى كان عليه محمد ﷺ وأصحابه، من الجهاد فى سبيل الله على كل حال، فى العسر واليسر، فى المنشط والمكره، فى الشدة والرخاء، مع حرارة الصيف ومع برد الشتاء. فلا بد للحق من قوة، ولا مصدر لهذه القوة إلا الأمة الإسلامية، ولا قوة للأمة الإسلامية إلا بالجهاد. فأعلى الإسلام قدره، فهو طريق نصرة دين الله تعالى، وسبيل عزة هذه الأمة.

ولقد حاول بعض الصحابة الاجتهاد فى العبادة، اجتهاداً فوق العادة، أرادوا عملاً يقربهم إلى الله تبارك وتعالى، يكون عملاً قويًا، وعبادة جليلة، فقال بعضهم لرسول الله ﷺ «ائذن لى فى السياحة»[٥] وأراد البعض الآخر أن يأخذ بالرهبانية، ورسول الله ﷺ يرد الجميع إلى الجهاد، إنه العبادة الجزيلة الأجر، العظيمة النفع، وكثير من العبادات

---

(١) ترعونها، وتحرثون، وتسقون عليها، والمراد: شغلتم بالماديات عن الجهاد.

(٢) العينة: أن يبيع سلعة بثمن مؤجل، ثم يشتريها بأقل منه نقدا. وستأتى بالتفصيل.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٤٢، ٨٤، وهو عند أبى داود فى البيوع باب النهى عن العينة ٣/ ٢٧٤.

(٤) أخرجه الطبرانى فى الأوسط. مجمع ٥/ ٢٨٧.

(٥) السياحة: اجتهاد فى الصوم والصلاة، مع بعد عن الخَلْق، للتفكر فى آيات الله المنشورة فى الكون، وقد ورد وصف الصالحين بالسائحين فى القرآن الكريم، راجع الآية ١١٢ من سورة التوبة، والآية الخامسة من سورة التحريم.

نفعه لفاعله، أما الجهاد فنفعه لفاعله ولغيره، إنه نفع للأمة ونفع للفرد، بل ونفع للكافر إذ يصبح مسلمًا يدخل الجنة، من هنا رد ﷺ طلاب العبادات العظيمة إلى الجهاد، وبين لهم أنه العبادة العالية القدر، البليغة النفع:

فعن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً قال: يا رسول الله، ائذن لى فى السياحة. قال النبى ﷺ «إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله تعالى»[١].

وعن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال: «لكل نبى رهبانية[٢]، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله عز وجل»[٣].

ولما علم الصحابة منزلة الجهاد، طلب النساء من رسول الله ﷺ أن يأذن لهن بالجهاد، فمنهن من خرجت معه ﷺ تسقى المجاهدين، وتداوى الجرحى، ومنهن من امتثلت قوله بالبقاء فى البيوت.

أما الرجال فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن عمل يساوى الجهاد فى ثوابه وأجره، فأجابه ﷺ بأنه لا شىء يعدل الجهاد: فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: «يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: لَكُنَّ أفضل الجهاد حج مبرور»[٤].

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دُلَّنِى على عمل يعدل الجهاد. فقال ﷺ: لا أجده، ثم قال:

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد باب فى النهى عن السياحة ٣/ ٥ والحاكم فى المستدرك ٢/ ٧٣.

(٢) الرهبانية: قتل الكثير من حاجات الجسم، فلا زواج، ولا أكل للحم، ولا ملابس جيدة، ولا طعام شهى.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٢٦٦.

(٤) أخرجه البخارى فى أول الجهاد ٦/ ٤.

هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر[١]، وتصوم ولا تفطر؟ فقال الرجل: ومن يستطيع ذلك؟»[٢].

هذه بعض مزايا الجهاد، وبعض النصوص الواردة فى فضله، تبين منزلته ومكانته، وأنه أفضل العبادات، وبه يعز الله الأمة ويقدسها، أما تركه فالتحذير منه كل التحذير.

فإن تركه يغضب الله عز وجل، ويورث الأمة ذلاً، يجعل هيبتها معدومة، وتتكالب عليها الأمم.

إنها أمة عليها أن تدعو لدين الله، وتنصر الإسلام، عليها أن تقيم العدل فى الأرض وفق ما جاءها به الوحى، وكذلك لا بد له من قوة تحفظه، وتردع كل مارق..

• وجه الإعجاز فى الحديث:

فى سنة ست من الهجرة النبوية كانت دولة الإسلام قد أصبحت يحسب الجميع لها ألف حساب، ورسول الله ﷺ يرسل كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكان من ضمن من أرسل له هرقل ملك الروم، فما كان من هرقل إلا أن طلب إحضار عدد من العرب، ليسألهم عن رسول الله ﷺ، وفعلاً أحضر جنوده له عددًا من العرب ـ غير المسلمين ـ منهم أبو سفيان، فسألهم عن رسول الله ﷺ عدة أسئلة، أجابوا عليها إجابة جعلت الهرقل يصدق برسالة سيدنا رسول الله ﷺ، إلا أنه خاف حاشيته أن يقتلوه. أما أبو سفيان ـ والذى كان لم يسلم بعد ـ فلقد أيقن أن الإسلام سيظهر، وسينتشر ويشيع، لا فى الجزيرة وحدها، بل فى كل

---

(١) فتصلى دائما ولا تضعف.

(٢) أخرجه البخارى فى أول الجهاد ٦/ ٤.

الدنيا، فماذا بعد أن أصبح يخيف ملك الروم[١]؟.

لقد كان المسلمون يعيشون حياة العزة والكرامة، ألقى الله الرعب فى قلوب أعدائهم، أما هم فثبت الله قلوبهم، فكانوا مقدامين جرءاء، يحرصون على الموت فى سبيل الله، طلبًا لما وعد الله به المؤمنين المجاهدين، إنهم لا يحرصون على دنيا ولا شهوة، ولا سلطة ولا نزوة، إنما يحرصون على الآخرة، يحبون الجهاد حبًا عجيبًا، فالموت فى سبيل الله أعز ما يطلبون، حتى إن من مات منهم على فراشه ندم كثيرًا لعدم استشهاده فى سبيل الله، فها هو خالد بن الوليد، القائد المجاهد، الموفق المنتصر، ذو المواهب القتالية، والمواقف البطولية، ها هو يموت على فراشه، فيقول: لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها[٢]، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة، أو طعنة، أو رمية، وها أنا أموت على فراشى كما يموت العَيْر[٣]، فلا نامت أعين الجبناء[٤].

لقد تعلموا الدروس التى يجب تعلمها للجهاد، فلا اغترار بكثرة العدد، ولا مخالفة لشىء من تعاليم الإسلام، ومع ذلك علموا فضل الجهاد، فجادوا بالنفس والنفيس، فأصبحوا يعيشون حياة الأعزة الكرام، الذين لا يخافون أعداءهم، وإنما يخافهم أعداؤهم، وأصبحوا وأصبح أعداؤهم يدركون أن جيش الإسلام لا ينهزم.

والدارس لتاريخ الفتوحات الإسلامية يتضح له أن جيش الإسلام كان موفقًا، وكان منصورًا، وكنت أود أن أذكر الكثير من الصور للقارئ

(١) القصة بكاملها فى الحديث السابع من صحيح البخارى، وهى فى فتح البارى ١/ ٣١.

(٢) يريد أنه حضر نحو مائة معركة، أكثر قليلا أو أقل قليلا.

(٣) الحمار.

(٤) أسد الغابة ٢/ ١١١.

لتوضح صفات جيش الإسلام، وكيف أنه كان ملتزمًا بدينه، مضحيًا بنفسه، منصورًا بعون ربه، لكنى سأكتفى بصورة واحدة:

أخرج أحمد بن مروان الدينورى المالكى فى المجالسة بإسناده عن أبى إسحاق قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق ناقة[١] عند اللقاء، فقال هرقل ـ وهو على إنطاكية ـ لَمَّا قدمتْ منهزمة الروم: ويلكم!! أخبرونى عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم، أليسوا بشرًا مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟! قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا فى كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟! فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون[٢] بينهم. ومن أجل أنَّا نشرب الخمر، ونزنى، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب، ونظلم، ونأمر بالسخط[٣]، وننهى عما يرضى الله، ونفسد فى الأرض. فقال: أنت صدقتنى[٤].

هذه شهادة عدوهم، يعترف بأن النصر يسوقه الله تبارك وتعالى إليهم سريعًا، فلا يثبت عدوهم أمامهم، مهما كان أكثر عددًا، وأقوى عدة.

ويعترف أيضًا بما هم عليه من مكارم الأخلاق: يقومون الليل، ذاكرين الله كثيرًا. ويصومون النهار، على الرغم من كونهم فى ساحات المعارك، لكنهم يتقربون إلى الله بطاعته، ويرجون نصره بعبادته. ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويأخذون من الظالم حق المظلوم، فلا يوجد بينهم مظلوم، لا منهم، ولا من غيرهم.

---

(١) فواق الناقة: المدة التى تتركها الناقة لتستريح أثناء الحلب، وتقدر بثلث ساعة تقريبا.

(٢) من الإنصاف، وهو العدل، والمعنى: لا يظلم بعضهم بعضا.

(٣) أى يدعو بعضنا بعضا إلى ما يغضب الله تعالى.

(٤) البداية والنهاية ٧/١٧ وهو فى المجالسة ٤/٩١ رقم ١٢٥٩.

هذه صفاتهم، وتلك أحوالهم، يطيعون الله، ويبذلون أنفسهم فى سبيل نصرة دينه، فينصرهم الله ويعزهم.

وبينا الأمة على هذه الحال، من العزة والكرامة، والنصر والتمكين، يخبرهم رسول الله ﷺ بهذا الحديث «يوشك أن تداعى عليكم الأمم..» وما كان العقل العادى يتصور أن يحدث هذا، فأمة تعرف أسباب النصر وتأخذ بها، والله يؤيدها وينصرها، وهى تسير فى الأرض، فاتحة البلاد، تنشر فيها الإسلام، وتملؤها عدلاً ورحمة، وبرًا وحكمة، كيف ترتكس هذه الأمة حتى تتداعى عليها الأمم؟!! إن العقل العادى لا يتصور هذا، لكنه المعصوم ﷺ يخبر بذلك، ويتحقق ما أخبر به تمامًا. فها هى الأمم تتداعى علينا من كل جانب، ينادى بعضها بعضًا، لأخذ أكبر نصيب من الأمة، يسلبون كل ما يمكن من المسلمين، فسلبوا الكثير من أرضنا، والكثير من ثرواتنا، والكثير من شبابنا، أو قل سلبوا الكثير من نوابغ شبابنا، وسلبونا الكثير من أخلاقنا، وسلبوا أعز شىء، وهو اعتزاز المسلم بدينه وتمسكه به!! هوّنوا ذلك عليه شيئًا شيئًا، ثم أغْرَوْه بغيره، وعظموا له غيره.

لقد بلغ تداعيهم علينا أن تحكَّموا فى أمورنا، فأصبحوا يسيِّرونها كما يحبون، وزاد الأمر سوءًا أن أصبحنا نحن نسيرها كما يحبون، لقد سلمنا لهم فى كل شىء، وماذا بعد أن أصبح تسليح جيوشنا حسب رغبتهم، وما يوافقون عليه، وما لا يوافقون، وفى النفس كثير من هذا الأمر لكنى أتركه لفطانة القارئ، غاية الأمر أنى أسال سؤالاً، هل نحن نسير أمورنا بأنفسنا، ووفق شريعة الإسلام وآدابه؟ بمقدار ما فقدنا من هذا، بمقدار ما أخذت الأمم منا.

يتحقق هذا ـ تداعى الأمم علينا ـ كما أخبر رسول الله ﷺ، وهذه

معجزة له، وعلم من أعلام نبوته ورسالته.

وفى الحديث معجزة أخرى له ﷺ، فإنه لم يقتصر على إخبارنا بتداعى الأمم، وإنما زاد عن ذلك فبين لنا السبب، ويتلخص فى «حب الدنيا، وكراهية الموت فى سبيل الله» ولقد تحقق هذا كما أخبر ﷺ، فالناس يحبون الدنيا حبًا جمًا، على العكس مما كان عليه السلف، وآيات القرآن تتلى، وأحاديث رسول الله ﷺ تُقْرأ تُرَهِّب الناس وتحذرهم الدنيا، وهم ـ على الرغم من ذلك ـ متمادون فى غيهم، مبالغون فى خطئهم، يعملون للدنيا، وكأنهم خلقوا لها.

لقد غرق الناس فى الشهوات والملذات، وهم يندبون حظهم ـ مع ذلك ـ لأنهم يريدون المزيد. فلما أقبلوا على الدنيا، وأحبوها، وعملوا لها وعظموها، كرهوا الموت، وكرهوا الجهاد فى سبيل الله تعالى. إنهم يريدون راحة، يريدون شهوات، يريدون ملذات، ومن كان كذلك يبغض الجهاد.

لقد تحقق الأمران كما أخبر ﷺ، بل وبكل دقة، فلقد أخبر ﷺ بتداعى الأمم، وها هى كما أخبر، يدعو بعضها بعضًا لالتهامنا، إنه ﷺ لم يقل إنهم سيجتمعون لحربنا، وفعلاً فهم لم يعلنوا الحرب علينا، ويعلمون أنهم لو أعلنوا الحرب علينا، لكان ذلك لصالح الإسلام، وإنما هم يتآمرون، وبطرق الدس والعمالة، والاحتيال والخيانة يأخذون ما فى أيدى المسلمين.

لقد تحقق ما أخبر به ﷺ تمامًا، وهذا مما أعلمه الله به، فصلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وهو ﷺ إذ يخبرنا بهذا، إنما يحذرنا من هذه الحال، يحذرنا من حب الدنيا وكراهية الجهاد، ويبين أن ذلك يورث الأمة ذلاً وهوانًا، وأن الله

تبارك وتعالى لا ينصر هذه الأمة إذا أحبت الدنيا وحرصت عليها، وتركت الآخرة، وأعرضت عنها. إنها أمة منصورة، لها هيبتها وعزتها ما استقامت على دين الله تبارك وتعالى، أما إذا أعرضت، أو بدلت، أو خالفت، فلا هيبة لها، ولا عزة. فمن أراد شيئًا فبشرطه، وشرط العزة والمهابة الاستقامة على دين الله، والسير على النهج الذى كان عليه محمد ﷺ وأصحابه.

• الدروس المستفادة من الحديث:

ـ عداء الأمم الكافرة للمسلمين أمر واقع، ولا مفر منه، وهم يحرصون على التهام ما فى يد المسلمين ما إن تسنح الفرصة. ولا تجدهم يتفقون على شيء مثل اتفاقهم على سلب ما فى يد المسلمين، والتكالب عليهم.

ـ على الرغم من أن أمة الإسلام أمة منصورة، مؤيدة بنصر الله تعالى، وأودع سبحانه وتعالى هيبتها فى قلوب الأمم، إلا أن ذلك مشروط باستقامتها، فإن هى مالت حرمت النصر، وفقدت ميزانها.

ـ من الأمور التى ستضعف الأمة، وتذهب بعزتها حب الدنيا وكراهية الجهاد.

ـ على الأمة عامة، وعلى العلماء خاصة أن يتذكروا النهج الذى كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وأن يلتزم الجميع به.

ـ على الأمة أن تعرف منزلة الجهاد، وحكمه، وأن تعد وسائله وطرقه، وأن تنظم له كوادره، وأن توفر له من المال حاجته، وأن يكون كل مسلم حريصًا عليه، مؤهلاً له. كما قال ﷺ «من مات ولم يغز ولم

يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق»[١].

ـ على العلماء أن يبصروا الأمة بمكانتها ورسالتها، وأن يعرفوها عظم معالى الأمور، وأن عليها أن تنهض بذلك.

ـ وعلى العلماء أن يبينوا للأمة حقارة الماديات، وأنها لا تصح أن تكون همة الأمة التى ستكون شهيدة على كل الأمم، كما قال ربنا سبحانه: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**[٢].

* * *

(١) أخرجه الحاكم فى الجهاد باب من مات ولم يغز ٢/٧٩.

(٢) جزء من: ١٤٣ من سورة البقرة.

الإخبار بتقليد الكفار

عن أبى هريرة ـ رضى اللَّه عنه ـ «عن النبى ﷺ قال: لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتى بِأَخْذ الْقُرُون قَبْلَهَا شبْرًا بشبْر، وَذرَاعًا بذرَاعٍ. فقيل: يا رسول اللَّه كَفَارِسَ وَالرُّوم؟ فقَال: وَمَنِ النَّاسُ إلاَّ أُولَئكَ؟»[1].

عن أبى سعيد الخدرى «عن النبى ﷺ قال: لَتَتَّبعُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم شبْرًا شبرًا وذرَاعًا ذرَاعًا، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْر ضَبٍّ تَبعْتُمُوهُمْ. قلنا: يا رَسولَ الله، اليَهودُ وَالنَّصَارى؟ قال: فَمَنْ؟»[2].

● المعانى:

«لا تقوم الساعة» أى لا تقوم القيامة. أى أنه سيحدث فى عمر الأمة الإسلامية أن يأخذ الكثيرون منها بمناهج الأمم الأخرى وذلك قبل قيام القيامة.

«حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها» يقال: أخذ فلان بِأَخْذِ فلان أى سار سيرته؟ وفعل فعله. والمراد بـ «أمتى» أمة الإسلام. والمراد الكثيرون منها. و«القرون» جمع قَرْن، وهو مدة من الزمان. الأرجح أنها مائة عام. ويطلق القرن أيضًا على أهل هذه المدة. كما فى حديث «خير الناس قَرْنى»[3] أى خير الناس: الناس الذين وُجِدوا فى زمانه ﷺ.

(١) أخرجه البخارى فى الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبى ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» ١٣/ ٣٠٠ رقم ٧٣١٩.

(٢) أخرجه البخارى فى التخريج السابق رقم ٧٣٢٠.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما كثير.

والمراد بالقرون هنا: الأمم غير أمة الإسلام. والمعنى: حتى تسلك أمتى مسالك الأمم الأخرى.

جاء فى حديث أبى سعيد عن رسول الله ﷺ «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم» واللام فيه دالة على القسم، والتقدير: والله لتتبعن. أكد الكلام بلام القسم، ونون التوكيد فى آخر الفعل فـ «تتبعُنّ» أصلها «تتبعون» ثم أضيفت نون التوكيد فصارت «تتبعوننّ» ثم أدغمت الكلمة فحذفت الواو والنون الأولى فصارت «تتبعنّ».

والاتباع هو الاقتداء والاقتفاء، يقال: اتبع فلان فلانًا إذا سار سيره، واقتفى أثره، يضع قدمه مكان قدمه.

و«سَنَن» بفتح السين، ويجوز ضمها معناه الطريق[1].

وجاء فى رواية أخرى «لتتبعن سنة من كان قبلكم»[2] و«سَنَن» و«سُنَّة» معناهما واحد.

و«من كان قبلكم» أى الأمم التى قبلكم، ووجودها مستمر مع وجودكم.

والمعنى: والله إن الكثيرين منكم سيتبعون طريق من وُجد قبلكم من الأمم.

«شبرًا بشبر» «الشِّبْر» وحدة قياس تساوى ربع المتر، وهو المسافة من طرف الأصبع الخنصر«الصغيرة» إلى طرف الإبهام «الأصبع التخينة» عند فتح الأصابع تمامًا. تقول: شبرت الشىء شَبْرًا أى قسته بالشبر.

«وذراعًا بذراع» «الذراع» اليد من كل حيوان. وهو فى الإنسان من

(١) لسان العرب مادة «سنن» ٣/ ٢١٢٥.

(٢) عند ابن ماجه وستأتى.

المرفق إلى أطراف الأصابع. وهذه فى العادة نصف متر. ويستخدم فى القياس، تقول: ذرعتُ الثوب ذرعًا، أى قسته بالذراع.

وقد جاء فى رواية أخرى «لتتبعن سنة من كان قبلكم باعًا بباع، وذراعًا بذراع، وشبرًا بشبر»(١) و«الباع» وحدة قياس تساوى مترين، وهى من أطراف أصابع اليد اليمنى إلى نهاية أطراف أصابع اليد اليسرى إذا مددتهما.

والمراد بقوله «باعًا بباع، وذراعًا بذراع، وشبرًا بشبر» تمام التماثل، كما تتماثل الأشياء التى تقاس بمقياس واحد، باعًا أو ذراعًا أو شبرًا.

والمعنى: لا تقوم القيامة حتى يسلك الكثيرون من أمة الإسلام مسالك الأمم الأخرى تمامًا، فيقع الكثيرون من المسلمين فى المخالفات الشرعية التى وقعت فيها الأمم الأخرى.

«حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم» الضب مخلوق يسميه بعضهم دويبة ـ تصغير دابة ـ ويسميه آخرون: حيوان. ويسميه بعضهم: حشرة. وهو مخلوق صغير يعيش فى الصحراء، لونه ترابى، يشبه الوزغ ـ البرص ـ إلا أنه كبير عنه جدًا، وخشن جدًا، يبلغ وزنه ثلاثة كيلو جرام فى الغالب يعمر طويلاً حتى إنه يعيش أكثر من سبعمائة سنة. والبلاد التى بها الضبات كبلاد نجد ـ وسط الجزيرة العربية ـ يعرفون فوائده، وأوقات صيده، ويحرصون على أكله، وأكله حلال.

وإنما خص ﷺ جحر الضب بالذكر لصعوبة دخوله، فهو ضيق، ويكون فى أعلى الجبال وفى الأماكن الصلبة، وأيضًا هو قذر إذ بين الضب والهوام إلف، فهو يؤويهم فى جحره لتلسع من أدخل يده لأخذه(٢).

(١) أخرجه ابن ماجه ٢/ ١٣٢٢ رقم ٣٩٩٤ وصححه فى الزوائد.

(٢) حياة الحيوان الكبرى للدميرى ١/ ٦٣٦ ولسان العرب مادة «ضبب» ٤/ ٢٥٤٣.

يقول ﷺ ما معناه: إن الكثيرين من أمته الذين يقلدون الأمم الأخرى، يقلدونهم حتى إن هؤلاء الضالين من الأمم الأخرى لو فعلوا الصعب العسر لقلدهم الضلال من المسلمين.

وفى حديث ابن عباس «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، وباعًا بباع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه بالطريق لفعلتم»(١).

ولقد ذكر ﷺ دخول جحر الضب لبيان الاتباع حتى لو كان الأمر صعبًا، وذكر جماع الأم لبيان الاتباع حتى لو كان الأمر فى غاية القبح.

«كفارس والروم» أشار به إلى أقوى الدول والحكومات. وفى حديث أبى سعيد «اليهود والنصارى» أشار إلى أقوى ديانتين آنذاك. ويجمع بينهما بأنه ﷺ أخبر أن شرار هذه الأمة سيتبعون العجم وأهل الديانات الأخرى.

«ومَنِ الناس إلا أولئك؟»: أى ومن الناس إلا فارس والروم إنهم أكبر ممالك الأرض، وأعرافهم السائدة، وآراؤهم الشائعة، وما دمتُ قد أخبرت باتباع غير المسلمين، فالمراد هؤلاء فارس والروم.

«فمَنْ» أى فمن قبلكم يمكن أن يتبع غير اليهود والنصارى؟ إنهم هم.

• ترجمة راويى الحديثين:

راوى الحديث الأول أبو هريرة: وقد تقدمت ترجمته فى حديث «بدأ الإسلام غريبًا»(٢).

---

(١) أخرجه المروزى فى السنة ص١٨ رقم ٤٣ وعزاه محققه للبزار ونقل عن المجمع ٧/ ٢٦٥ توثيق رجاله.

(٢) الجزء الأول ص٧٤.

راوى الحديث الثانى أبو سعيد الخدرى: وقد تقدمت ترجمته فى حديث «يأتى على الناس زمان خير مال المسلم الغنم..»[1].

• شرح الحديث:

*** شخصية أمة الإسلام:**

أمة الإسلام لها شخصيتها المستقلة، جاء الوحى من الله تعالى مبينًا أصول الدين وفروعه، وبيّن رسول الله ﷺ الدين واقعًا عمليًا، وعاش بين الصحابة زمانًا يوضح ويُعَلِّم، حتى وضح الدين كل الوضوح، ووثقت الأمة بالدين كل الثقة، وأنه الدين الحق، الكفيل بسعادتها فى الدنيا والآخرة، فاعتزت به كل الاعتزاز، ورفضت غيره كل الرُّفض، فتميزت شخصيتها.

وآيات القرآن الكريم، وأحاديث رسول الله ﷺ توضح ذلك وتؤكده، وذلك من خلال ما يلى:

(١) بيان كمال الإسلام:

* يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[2].

يُعْلِمُنا ربنا سبحانه أنه أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضى الإسلام لنا دينًا، فحق علينا معرفة قدر هذا الدين العظيم، وتمام التمسك به، وأن لا نطلب الهدى إلا منه.

* ويقول سبحانه: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ**

---

(١) الجزء الأول ص ٢٥٠.

(٢) سورة المائدة: ٣.

عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١).

* ويقول سبحانه: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٢).

* ويقول سبحانه: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٣).

هكذا توضح الآيات كمال الإسلام، وتمام النعمة به، وأن المسلمين خير أمة، والإسلام الدين الكفيل بإخراج البشرية فى كل زمان ومكان من ظلمات الجهل والعماية إلى نور الإيمان ومكارم الأخلاق، وهو شرف وسعادة لكل من اتبعه، والاهتداء به يورث العز كل العز، والسعادة كل السعادة.

ومادام الأمر كذلك وثقنا بديننا، واطمأننا به، ولا نريد شيئًا غيره. منه عقيدتنا، ومنه عبادتنا، ومنه خُلُقنا.

ومن كمال الإسلام أنه الدين الخالد، تكفل الله بحفظه، وهيأ سبحانه له من يعتنى به على خير وجه، يتضح ذلك من خلال ما يلى:

* تكفل الله بحفظ نصوص الإسلام، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٤) وهذا وعد منه سبحانه بحفظ ما أوحاه إلى رسوله، وأن الدين محفوظ بحفظ الله إلى قيام الساعة. وقال سبحانه فى شأن أصول الإسلام أيضًا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ

(١) سورة آل عمران: ١١٠.

(٢) سورة إبراهيم: ١.

(٣) سورة الزخرف: ٤٣، ٤٤.

(٤) سورة الحجر: ٩.

عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١).

* هيأ الله للإسلام من يعتنى به من كل ناحية، فللقرآن أهله الذين يعتنون بقراءته كما أنزله الله، وله مفسروه الذين يستخرجون ما فيه من كنوز. وللسنة النبوية رجالها الذين يحافظون على نصوصها ويستخرجون مكنونها. وللغة العربية رجالها الذين يحافظون عليها وهى السبيل لاستقامة فهم الإسلام ونصوصه. وغير ذلك من علوم كلها هيأ الله عددًا من خلقه لكل علم، يعتنون بالإسلام من زاوية علمهم.

وبيّن سبحانه أن هذه الأمة أمة موفقة فى فهم دينها واتباعه:

* فقال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢).

* وقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣).

هذا شأن المؤمنين حبب الله إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم، فهو عندهم أغلى من كل شىء، فهون عليهم حياتهم ولا يهون عليهم دينهم. وكره سبحانه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، فهذه عندنا أبغض شىء، حتى استهان البعض بالحياة يجود بها فى مقابل أن يظل على دينه إنها أمة تفهم دينها جيدًا مما يجعلها تأمر بما أمر به الله، وتنهى عما نهى عنه الله، وفى هذا علم كثير، وعمل جاد أصيل.

---

(١) سورة فصلت: ٤١، ٤٢.

(٢) سورة الحجرات: ٧، ٨.

(٣) سورة التوبة: ٧١.

إنها أمة هداها الله صراطه المستقيم. وهى الأمة الخاتمة، فستظل على الحق إلى قيام الساعة، يقيم بها الحجة على خلقه، وذلك بما تحفظ من أصول دينها.

(٢) الأمر باتباع الإسلام وحده:

* يقول ربنا جل جلاله: **﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾** (١).

يأمرنا سبحانه باتباع ما أنزل على رسوله إلى الأمة، وهو الكتاب والسنة، وينهانا سبحانه عن اتباع أى شىء آخر، حتى لا نترك دين الله إلى غيره.

* ويقول سبحانه وتعالى: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** (٢).

يأمرنا جل جلاله أن نتبع الإسلام الذى هو صراط الله المستقيم، ويحذرنا سبحانه من اتباع غيره من الطرق، فإنها تبعدنا عن دين الله.

* ويقول سبحانه: **﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾** (٣).

علمنا سبحانه بذلك خير الدعاء، وأعلم رسوله أنه سبحانه استجاب لنا، وفرض الدعاء به فى كل ركعة من ركعات الصلاة. نسأله سبحانه بهذا الدعاء توفيقنا طريق الإسلام، ونستعيذ به سبحانه من كل ما سوى الإسلام.

---

(١) سورة الأعراف: ٣.

(٢) سورة الأنعام: ١٥٣.

(٣) من سورة الفاتحة.

(٣) التحذير من غير الإسلام:

إن الآيات التى تقدمت فى الأمر باتباع الإسلام وحده فيها الأمر باتباع الإسلام، والتحذير من غيره، وجاءت آيات أخرى قطعت الصلة بين المسلمين وغيرهم، آيات أبانت أن الأمم الأخرى قد حرفت دينها، وضلت كل الضلال، ومن هنا حذر الإسلام من اتباعهم أو تقليدهم:

* يقول الله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (١).

هذا بيان لحال اليهود يُحَرِّفُون دينهم ويخالفون رسولهم، ويخطئون فى رسولنا، فهل بعد هذا ننتظر خيرًا منهم؟. بدهى: لا.

* ويقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

* ويقول سبحانه: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

* ويقول سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٤).

---

(١) سورة النساء: ٤٦.

(٢) سورة آل عمران: ٧٨.

(٣) سورة البقرة: ٧٥.

(٤) سورة البقرة: ٧٩.

يكذبون على دينهم، يدّعون أن أكاذيبهم دين، وعلى الرغم من فهمهم دينهم وعلمهم به إلا أنهم يقلبون حقائقه، ولا يقيمون حرمة لنصوصه.

* ويقول سبحانه فى شأن عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (١).

ها هم الصالحون من أمة النصارى ابتدعوا فى دينهم، وما قاموا بما ابتدعوه، فشاركوا اليهود فى تدمير أصول دينهم ومخالفتها.

* ويقول سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢).

* ويقول سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ (٣).

• هكذا يخبرنا ربنا أن اليهود والنصارى قد حرّفوا نصوص دينهم، وخالفوا عقيدته وشريعته مما معه لا يقبل أى منصف أن يتبعهم أو يقتدى بدينهم، وفى هذا كل التحذير للمسلمين من اتباعهم. وفيه قطع الصلة

(١) سورة الحديد: ٢٧.

(٢) سورة التوبة: ٣٠، ٣١.

(٣) سورة النساء: ١٧١.

الدينية بين المسلمين وبين غيرهم، من اليهود والنصارى أهل الكتاب، وغيرهم من باب أولى.

• **والأحاديث النبوية تثبت هذا وتوضحه، وأنه لا مصدر للفكر إلا الإسلام:**

* فعن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب[1]، فقرأه على النبى ﷺ فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب[2]؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعنى»[3].

* وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ...﴾ [illegible]

[illegible] عباس رضى الله عنهما ـ قال: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذى أنزل الله على نبيكم [illegible] أحدث الأخبار بالله، محضًا لم يُشَب؟ وقد حدثكم الله أن أهل

[illegible] أحد يهود بنى قريظة.

[illegible] المتحيِّر، والمعنى: أمتحيرون نحن فى ديانتنا حتى نحتاج لغيرنا يا ابن الخطاب؟ ينكر [illegible] أخذ معلومات من اليهود، ففى الإسلام الكفاية كل الكفاية.

(٣) أخرجه أحمد ٢٣/٣٤٩ رقم ١٥١٥٦ قال فى فتح البارى ١٣/ ٣٣٤ شرح حديث رقم ٧٣٦١. ورجاله موثقون إلا أن فى مجالد ضعفا. قلت: له من الشواهد ما يقويه وستأتى. ويراجع فيها جامع الأصول ١٠/ ١٩٦، ومجمع الزوائد ١/ ١٧٣، ١٧٤.

(٤) أخرجه البخارى فى التفسير باب ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ ٨/ ١٧٠ رقم ٤٤٨٥ والآية التى فيه من سورة البقرة رقم ١٣٦.

الكتاب قد بدلوا من كُتُب الله وغيروا فكتبوا بأيديهم قالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً[١]. أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذى أنزل إليكم»[٢].

إنه ﷺ يوضح أن الإسلام فيه الكفاية والهدى التام، فلا يجوز لمسلم أن يطلب الهدى من غيره، ولا يصح أن نستورد فكرًا دينيًا، ولا أن نقرأ أو نسمع لغير ديننا.

ويوضح ابن عباس أن نصوص الإسلام هى آخر ما نزل من الله إلى البشرية، فهى الدين التام، ونصوص أديان الأمم الأخرى أخبرنا الله أن أهلها حرقوها، أما نصوص ديننا فإن الله قد تكفل بحفظها، والواقع يشهد بهذا، فلا يصح أن نسأل الأمم الأخرى ولا يليق أن نتبعهم فى شىء. وإنما اللائق أن يسألونا هم عن الحق والخير.

(٤) ولايتنا فى بعضنا:

جاءت آيات وأحاديث تبين العلاقة الوطيدة بين المسلمين، وأن أخوة الإيمان قوية، وأن المحبة والود من المسلم إنما يكون لإخوانه المسلمين ليس إلا:

* يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [٣].

* ويقول سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [٤].

* ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ

---

(١) يشير إلى الآية رقم ٧٩ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخارى رقم ٧٥٢٣ وهو عنده أيضا رقم ٢٦٨٥.

(٣) سورة الحجرات: ١٠.

(٤) سورة التوبة: ٧١.

حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[١].

وهكذا توضح هذه الآيات وغيرها كثير أن ولاية المسلمين فى بعضهم، فالمؤمن يوالى المؤمن، ينصره ويعينه، يوده ويكرمه، ولا يؤذيه، ولا يهينه، إنهم إخوة، إنهم أحبة رباط الإيمان أقوى من أى رباط آخر، والحب فى الله عام وشامل، لا ينقص بالجفاء، ولا يزيد بالبر.

* ويقول رسول الله ﷺ: «المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عَيْنُهُ اشتكى كُلُّه. وإن اشتكى رأسه اشتكى كُلُّه»[٢].

* ويقول ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره. التقوى هَهُنَا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»[٣].

هكذا توضح الآيات والأحاديث أن علاقة المسلم بالمسلم علاقة أخوة، وهم أولياء بعض، لا يؤذى أحدهم أخاه ولو بأقل أنواع الأذى، وإنما يكرمه بكل أنواع الكرم.

والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة، توضح هذا المعنى وتجلِّيه بأكثر من وجه، لكنى أكتفى بهذا القدر مراعاة لظروف الشرح.

(٥) نَحْذَر غير المسلم:

وجاءت الآيات والأحاديث تحذرنا غير المسلمين، فلا ولاية بين المسلم والكفار، ولا ولاية بين المسلم والمنافقين. ذلك أن الكفرة لا يُكنُّون

(١) سورة المائدة: ٥٥، ٥٦.

(٢) أخرجه مسلم فى البر ٤/ ٢٠٠٠ رقم ٦٧/ ٢٥٨٦.

(٣) أخرجه مسلم فى البر ٤/ ١٩٨٦ رقم ٣٢/ ٢٥٦٤.

للمسلمين إلا الشر، ولا يصدر منهم إلا الضلال والإضلال، إن عداوتهم للمسلمين شديدة، وحرصهم على قتل المسلمين تام. صدورهم كلها غيظ، وفكرهم كله كيد، ولا يتعاملون مع المسلمين إلا للإيذاء.

* يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ (١).

* ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢).

* ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٣).

ينهانا ربنا سبحانه عن موالاة اليهود والنصارى والكفار، هؤلاء الذين يعادوننا لإيماننا، ويعيبوب ديننا كذبًا منهم وعدوانًا، هؤلاء الذين يتعصبون لبعضهم، ولا يضمرون لنا إلا العداء. فشأن المؤمنين أن لا يركنوا إليهم، ولا يقيموا بينهم وبين هؤلاء أى مودة.

* يقول سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (٤).

---

(١) سورة الممتحنة: ١.

(٢) سورة المائدة: ٥١.

(٣) سورة المائدة: ٥٧.

(٤) سورة البقرة: ١٢٠.

سمّى سبحانه ما هم عليه «ملة» ثم سماه «أهواء» وما ذلك إلا لأنه كان دينًا جاء من الله، لكنهم حرفوا وبدلوا فيه، فأصبح من أهوائهم لا من ربنا سبحانه وتعالى. ومع ذلك فهم يتعصبون له حتى إنهم لن يرضوا عنا إلا إذا اتبعناهم فيما هم عليه من أهواء وضلال.

ويبين سبحانه وتعالى شأن الكفار فيقول: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

والمعنى: إنهم إن يغلبوكم لا يراعوا قرابة ولا عهدًا وإنما يذيقونكم سوء العذاب. إنهم يخدعونكم بالألفاظ المنمقة، أما قلوبهم فغير هذا تمامًا، تضمر لكم الكيد، وتتمنى لكم الهلاك.

ويبين سبحانه وتعالى شأن المسلمين فيقول: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

إن صفة المؤمنين أنهم لا يحبون من يعادى الله ورسوله حتى ولو كان أباهم أو أخاهم، إن المؤمنين لا يحبون الكافرين وإنما حبهم للمؤمنين، ومن هنا فإن الله يرضى عنهم ويسكنهم جنته.

● **وبينت الأحاديث النبوية هذه القاعدة، وأن المسلم يوالى المسلم ويحبه، أما غير المسلم فلا موالاة، ولا ود:**

* يقول ﷺ: «ثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله

(١) سورة التوبة: ٨.

(٢) آخرة سورة المجادلة: ٢٢.

ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[١].

* وقال ﷺ: «أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أَظْهُر المشركين، قالوا يا رسول الله: ولِمَ؟ قال: «لا تراءى ناراهما»[٢].

* وقال ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»[٣] ومعنى «جامع المشرك» اجتمع معه ووافقه ورافقه.

* وقال ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله»[٤].

هذا حال المسلمين حبهم على أساس دينهم، ولا يقبلون الكفر ولا الكافرين، لا يحبونهم ولا يودونهم، ورضى الله عن أبى عبيدة بن الجراح الصحابى الجليل، فلقد كان فى غزوة بدر مسلمًا، وكان أبوه فيها كافرًا، فجعل أبوه يتصدى له فيبتعد عنه أبو عبيدة فلما تكرر ذلك قصده أبو عبيدة فقتله، وأنزل الله ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾[٥].

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان باب حلاوة الإيمان ١/ ٦٠ رقم ١٦.

(٢) أخرجه الترمذى فى السير باب ما جاء فى كراهية المقام بين أظهر المشركين ٥/ ٢٢٩. وأبو داود فى الجهاد باب النهى عن قتل من اعتصم بالسجود ٧/ ٣٠٣. والنسائى فى القسامة باب القود بغير جريرة ٨/ ٣٢ لكنه أخرجه مرسلا بعكس ما عند الترمذى وأبى داود.

(٣) أخرجه أبو داود فى آخر الجهاد ٧/ ٤٧٧.

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة ١١/ ٤١ عن البراء، و١١/ ٤٨ عن ابن مسعود. وأخرجه الطيالسى رقم ٧٨٣.

(٥) أخرجه الحاكم ٣/ ٢٦٤، ٢٦٥ وأخرجه ابن أبى حاتم والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى وابن عساكر كذا فى الدر ٦/ ١٨٦ فى تفسير الآية الأخيرة من سورة المجادلة.

• الحديث الذى معنا والأمة:

والحديث الذى نحن بصدد شرحه يعالج قضية فى شخصية الأمة الإسلامية، إنه يحذرها اتباع الأمم الأخرى وتقليدهم، إن رسول الله ﷺ يحذر من مسالك الأمم الأخرى، وأن ضعاف الإيمان منا سيتبعونهم فى أمور عقدية، أو فى العبادات، أو الأخلاق، أو وسائل الحياة، ويبين ﷺ أن العاقل عليه أن لا يفعل ذلك، وإنما أمامه القرآن والسنة، يعمل بهما ويتبعهما، وأجمل الدراسة الموضوعية للحديث فى النقاط الآتية:

*** النهى عن التشبه بالآخرين:**

جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تأمر بمخالفة الكفار، وتنهى عن التشبه بهم:

* يقول الله تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ (١).

هذا وعيد شديد لمن لم يتبع هَدْى رسول الله والذى هو طريق المؤمنين، منه يتبين أن مخالفة طريق المؤمنين وتقليد الكفرة إنما هو كبيرة من الكبائر، جاء الوعيد عليها بجهنم وبئس المصير.

* ويقول سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ (٢).

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ إن الذين اختلفوا فى دينهم فراحت كل جماعة تضع فيه ما يناسب متعها وأهواءها. هؤلاء ﴿**لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾ يعنى أنت برىء منهم تمامًا، لا تتبعهم فى أى أمر من أمور الدين.

---

(١) سورة النساء: ١١٥.

(٢) سورة الأنعام: ١٥٩.

وإذا كان الله تبارك وتعالى يبرئ رسوله من الكفار الذين فرقوا دينهم فهذا تعليم لأتباع رسوله أن يتبرءوا من هؤلاء، فمن تبرأ من الكفرة واتبع رسول الله استقام على دين الله. أما من وافق الكفرة فهو مخالف لرسول الله بمقدار موافقته لهم. والوعيد على ذلك شديد.

والآيات فى النهى عن التشبه بالكفرة كثيرة، أكتفى بهذين[1].

والأحاديث أيضًا كثيرة، منها:

* قوله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم»[2].

* وقوله ﷺ: «ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تشبّهوا باليهود ولا بالنصارى، فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالأكف»[3].

والحديثان يعطيان معنى واحدًا، فمن تشبه بغيرنا فليس منا، وإنما هو من غيرنا، وفى هذا كل الزجر والتنفير من التشبه بالغير.

* والحديث الذى نحن بصدد شرحه، فيه التحذير من التشبه بالآخرين «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم..» إنه ﷺ إذ يخبر أن ذلك سيحدث، فإنما يحذر أصحاب العقول السليمة، والفطر القويمة أن لا تزل أقدامهم باتباع الأمم الأخرى. إنه ﷺ يشخص الداء، وهو الحيد عن الإسلام وتقليد الأمم الأخرى. ويصف الدواء وهو اتباع الإسلام بالعمل بالقرآن والسنة، وفى

(١) وسبق ذكر آيات وأحاديث فى هذا عند الكلام على شخصية الأمة المسلمة.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ٨/١٧٩ رقم ٨٣٢٧ والبزار عن حذيفة كما فى كشف الأستار ١/٨٦ رقم ١٤٤ وأخرجه أبو داود، وأخرجه أحمد ٩/١٢٣ رقم ٥١١٤ وص١٢٦ رقم ٥١١٥ وهو حديث حسن، يرتقى بالشواهد إلى الصحيح.

(٣) أخرجه الترمذى فى الاستئذان باب كراهية إشارة اليد فى السلام ٧/٤٧٢ وقال: إسناده ضعيف، وأشار الشارح إلى شاهده عند النسائى. ويشهد له الحديث الذى قبله هنا.

ذلك الفلاح كل الفلاح.

وهذه الأحاديث معها أحاديث كثيرة فى النهى عن التشبه بالآخرين[١]، بل ومعها آيات قرآنية[٢]، أخص منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٣].

إن قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ يقوى الأحاديث التى معنا كثيرًا إذ يتفق معها، فمن تولى الكفرة فهو منهم، هذا معنى الآية، والحديث: «من تشبه بقوم فهو منهم». و«ليس منا من تشبه بغيرنا». ويحذر من اتباعهم «لتتبعن سنن من كان قبلكم» إن الآية تتوافق مع هذه الأحاديث تمامًا.

وقد قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ: لا تَعَلَّموا رطانة الأعاجم، ولا تدخلوا على المشركين فى كنائسهم يوم عيدهم، فإن السخطة تنزل عليهم[٤].

ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص: من بنى ببلاد الأعاجم، وصنع نيروزهم[٥] ومهرجانهم[٦]، وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك، حشر

(١) ذكرتُ الكثير منها فيما تقدم وما يأتى فى أثناء الشرح.

(٢) سبق أن ذكرت بعضها، وورد كثير منها فى أثناء الشرح.

(٣) سورة المائدة: ٥١.

(٤) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ٩/ ٢٣٤ كتاب الجزية باب كراهية الدخول على أهل الذمة فى كنائسهم والتشبه بهم.

(٥) «النيروز» و«النوروز»: كلمة فارسية معناها اليوم الجديد وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية. وعيد النيروز: أكبر الأعياد القومية للفرس. المعجم الوسيط ٢/ ١٠٠٠.

(٦) «المهرجان» كلمة فارسية معناها: عيد الاعتدال الربيعى و«المهرجان» عندهم: الاحتفال بالاعتدال الخريفى. المعجم الأوسط ٢/ ٩٢٥.

معهم يوم القيامة[١].

إن الإسلام ينهانا عن التشبه بالغير فى أى أمر، فلا نتشبه بهم فى عقيدة، ولا فى عبادة، ولا فى مظهر من ملبس، أو هيئة شعر، أو أى شيء. إننا نتبع هَدْى رسول الله ﷺ فى كل أمر.

* **موضوع التشبه:**

نهى الإسلام عن التشبه بغير المسلمين، من اليهود، والنصارى، والعجم، والكفار، وأهل الجاهلية، وفى الحديث الذى معنا النهى عن مشابهة اليهود، والنصارى، والعجم، وجاء النهى عن التشبه بالكفار وأهل الجاهلية:

* فعن عبد الله بن عمرو قال: «رأى رسول الله ﷺ علىَّ ثوبين معصفرين، فقال: إن هذه من ثياب الكفار، فلا تلبسها»[٢].

* وقال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾[٣].

* ويقول ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[٤].

* وجاءت أحاديث كثيرة فى النهى عن أشياء لأنها من فعل هذه الأمم اليهود، أو النصارى... إلخ.

(١) أخرجه البيهقى فى موضع الأثر الذى قبله.

(٢) أخرجه مسلم فى اللباس باب النهى عن لبس الرجل الثوب المعصفر ٣/١٦٤٧ رقم ٢٧/٢٠٧٧.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٤) أخرجه البخارى فى الجنائز باب ليس منا من شق الجيوب ٣/١٦٣ رقم ١٢٩٤ وهو عند مسلم رقم ١٠٣.

• **والمسلم منهى عن التشبه بالغير فى أى أمر، سواء كان هذا الأمر عقديًا، أو من أمور العبادة، أو من أمور الحياة:**

(١) النهى عن التشبه بالآخرين فى العقائد:

* يقول الله تعالى: ﴿ **وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** ﴾[١].

يحذرنا ربنا سبحانه من الاختلاف فى الدين كالأمم السابقة، والاختلاف فى الدين إنما يكون بالبعد عن مصدره الأصلى القرآن والسنة، فبمقدار الابتداع فى الأمة بمقدار ما يكون التفرق فى الدين. إننا منهيون عن التشبه بهم فى هذا.

ورسول الله ﷺ يحذر من هذا ويقول «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة فى الجنة، وسبعون فى النار. وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون فى النار، وواحدة فى الجنة. والذى نفسى بيده.

لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة فى الجنة وثنتان وسبعون فى النار. قيل يا رسول الله من هم؟ قال: الجماعة»[٢].

وفى رواية «قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابى»[٣].

إن الإسلام دين واضح المنهج، وأصوله الكتاب والسنة أعطاهما الله

(١) سورة الروم: ٣١، ٣٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب افتراق الأمم ٢/ ١٣٢٢ رقم ٣٩٩٢. وابن أبى عاصم فى السنة رقم ٦٣. من حديث عوف بن مالك الأشجعى. وهو حديث صحيح.

(٣) عند الترمذى فى الإيمان باب افتراق هذه الأمة ٧/ ٣٩٩ وقال: حسن غريب مفسر وعند الحاكم ١/ ١٢٨.

أسباب الخلود، فمن استقام على الكتاب والسنة فهو المستقيم، ومن ابتعد عنهما ضل.

فمن الناس من يتأول القرآن الكريم والسنة النبوية على هواه. ومن الناس من ينكر السنة كلها. ومن الناس من يقبل الأحاديث الفعلية ويترك غيرها. وكل هذا ضلال، نشأ عنه افتراق الأمة.

* وقص الله علينا ما كان من قوم موسى فى طلبهم منه أن يجعل لهم صنمًا يعبدونه، فقال سبحانه: **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [1].

وعن أبى واقد الليثى «أن رسول الله ﷺ لما خرج[2] إلى حنين[3]، مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط[4] يعلقون عليها أسلحتهم. قالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال النبى ﷺ: سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: **﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾** والذى نفسى بيده لتركبن سنة من كان قبلكم»[5].

إنه ﷺ ينكر علينا كل الإنكار أن نتشبه بالآخرين. فكم من أناس يريدون شيئًا ماديًا فى دينهم، يتلمسون البركة من قبر، أو شجرة، أو بئر، وباب الطاعة مفتوح فليسجدوا لله وليسألوه، فهو سبحانه وعد

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٨، ١٣٩.

(٢) أى من مكة بعد فتحها.

(٣) موضع بين مكة والطائف.

(٤) أنواط يعنى تعاليق. وهذه الشجرة كان المشركون يعلقون بها أسلحتهم ويجتمعون حولها، يظنونها تنصرهم.

(٥) أخرجه الترمذى فى الفتن باب لتركبن سنن من كان قبلكم ٧/ ٤٠٧ وقال: حسن صحيح. وابن أبى عاصم فى السنة ١/ ٨٢، ٨٣ والمروزى فى السنة ص١٧ وغيرهم.

الداعين الاستجابة، وهو سبحانه القائل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

إنه لا يجود بالخير إلا الله، ولا يرفع البلاء إلا الله. وفى الحديث عن عبد الله بن عباس قال «كنت خلف النبى ﷺ يومًا. فقال يا غلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[2].

إن ديننا ينهانا عن سؤال المخلوق، ينهانا أن نسأل غير الله، ينهانا أن نخاف غير الله.

(٢) النهى عن التشبه بالآخرين فى العبادات:

وحذر الإسلام من التشبه بالأمم الأخرى فى العبادات، فالمسلم يعبد الله تعالى كما جاء فى الكتاب والسنة، ولا يقلد يهوديًا، ولا نصرانيًا، ولا غير ذلك.

* «ذكرت أم حبيبة وأم سلمة[3] كنيسة رأينها بالحبشة[4] فيها تصاوير، ذكرتا ذلك للنبى ﷺ فقال: إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار

---

(١) سورة النمل: ٦٢.

(٢) أخرجه الترمذى فى القيامة الباب الأخير ٧/٢١٩ وقال: حسن صحيح. وهو عند أحمد ١/٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧. وهو الحديث التاسع عشر فى جامع العلوم والحكم ٢/٥٤٧.

(٣) هما من أمهات المؤمنين.

(٤) حينما هاجرتا إليها فى بدء الدعوة وقبل أن يتزوجهما ﷺ.

الخلق عند الله يوم القيامة»[١].

* وقال ﷺ فى آخر ما قال: «لعنة على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يحذر ما صنعوا[٢].

* وقال ﷺ: «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنى أنهاكم عن ذلك»[٣]

إنه ﷺ ينهانا عن التشبه بهم فى بناء المساجد على القبور، ويبين أنهم بذلك شرار خلق الله، وبذلك حلت عليهم لعنة الله، فلا يصح أن نفعل فعلهم حتى لا نلقى مصيرهم. وفى هذا نهى عن التشبه بهم فى هذا صراحة، وعن التشبه فى غيره خشية أن يكون مثل هذا، أى مما يوجب اللعن.

* وأمر رسول الله ﷺ بصيام يوم عاشوراء فى أول الإسلام، ثم فرض بدلاً منه صيام شهر رمضان، لكنه ظل يصوم عاشوراء لفضله، فلما قيل له إن اليهود تصومه أمر بصيامه بطريقة غير طريقتهم، كأن يصام التاسع، أو التاسع والعاشر، أو العاشر والحادى عشر، وهذا جاءت به أحاديث، أذكر منها:

حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى. فقال رسول الله ﷺ: فإذا كان العام المقبل إن شاء الله

---

(١) أخرجه البخارى رقم ٤٢٦.

(٢) أخرجه البخارى رقم ٤٣٥، ٤٣٦ ومسلم رقم ٥٣١.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٥٣٢.

صمنا اليوم التاسع. قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله ﷺ[١].

هكذا لم يقبل ﷺ أن تكون أمته كأمة سابقة، وإنما لتكن لها شخصيتها التى تستقى من الكتاب والسنة، ولا تتبع فيها أحدًا، فإن الاتباع يورث أمراضًا لا يقبل الإسلام أن تكون فى الأمة[٢].

● **وأمر ﷺ بعدم التشبه بأهل الكتاب فى الصيام:**

* فقال ﷺ: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلةُ السحر»[٣].

* وقال ﷺ: «لا يزال الدين ظاهرًا ما عجَّل الناس الفطر، لأن اليهود والنصارى يؤخرون»[٤].

هكذا ينبه ﷺ أننا فى عبادتنا لا نتشبه باليهود ولا بالنصارى، وإنما نختلف عنهم، بل إن قوله ﷺ «لا يزال الدين ظاهرًا..» يثير الانتباه كثيرًا، فإنه يفيد أن الإسلام يظل غالبًا وعاليًا ما خالف المسلمون غيرهم، أما إذا تشبه المسلمون بغيرهم ففى هذا إضعاف للإسلام، وهو أمر لا يقبله المسلم.

● **حتى فى الجنائز نهى ﷺ أن نتشبه بأمة غير أمة الإسلام:**

* فقال ﷺ «اللحد لنا والشق لغيرنا»[٥] إن اللحد بناء تحت الأرض بالطوب اللبن، يبنى جداران يوضع الميت بينهما، ثم تنصب القوالب

(١) أخرجه مسلم رقم ١١٣٤.

(٢) سيأتى الحديث إن شاء الله قريبًا عن حكمة النهى عن التشبه بالآخرين.

(٣) أخرجه مسلم رقم ١٠٩٦.

(٤) أخرجه أبو داود فى الصوم باب ما يستحب من تعجيل الفطر ٦/ ٤٨٠.

(٥) أخرجه ابن ماجه رقم ١٥٥٤، ١٥٥٥. وأحمد ٤/٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٣.

فوقه، ثم يهال التراب.

أما الشق فهو حفر الأرض بعمق، ثم يوضع الميت، ثم يهال عليه التراب.

• وفى الآلة التى نذبح بها، نهانا ﷺ أن نذبح بما اختص بأمة غير أمة الإسلام:

* فعن رافع بن حذيج قال «يا رسول الله، إنا لنرجو أن نلقى العدو غدًا، وليست معنا مُدى[1]، أفنذبح بالقصب[2]؟ فقال: ما أنهر[3] الدم، وذُكر اسم الله[4] فكل، ليس السن والظفر. وسأخبركم عنه: أما السن فعظم، وأما الظفر فمدى الحبشة»[5].

إنه ﷺ ينهى عن الذبح بالظفر معللاً أن ذلك إنما يفعله أهل الحبشة، وكانوا وقتها كفارًا، فلا يجوز التشبه بهم.

(٣) النهى عن التشبه بالآخرين فى أمور الحياة:

• وفى أمور الحياة نهانا ﷺ أن نتشبه بغيرنا:

* فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال «قال ﷺ: غيروا الشيب، ولا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى»[6].

يبين ﷺ أنه فى مظهر المسلم لا يصح أن يكون كمظهر أى أمة أخرى، وإنما لا بد أن يكون مميزًا. فلنختضب بأن نضع على الشعر

---

(١) سكاكين.

(٢) القصب نبات مجوف، أعواده كالأنابيب، وإذا فلق عوده كان حادًا كالسكين.

(٣) أسال بشدة.

(٤) أى عليه كما فى الحديث رقم ٢٤٨٨ من البخارى أيضًا.

(٥) أخرجه البخارى رقم ٥٤٩٨ وسبق عنده برقم ٢٤٨٨.

(٦) أخرجه أحمد ٢/ ٢٦١، ٤٩٩.

الأبيض شيئًا من الحناء، يجعل لونه أصفر، ويمكن أن نجعل مع الحناء شيئًا من الكتم، فهذا يجمل صفرة الشعر.

* وعن أبى أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لى بالسياحة. قال رسول الله ﷺ: «إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله عز وجل»(١).

أراد هذا الصحابى أن يسير فى الأرض يترك المألوفات والملذات، يهذب نفسه بذلك، ويحرمها الشهوات. فبين له رسول الله ﷺ أن ذلك ليس من الإسلام، فإن السير فى الصحارى حرمان من الجمعة والجماعة، وبعد عن العلم الذى هو أصل عظيم فى الإسلام. ثم إن هذه السياحة تبعده عن الجهاد فى سبيل الله وهو عمل عظيم الأجر، فنصحه وأمثاله بالجهاد كما فى الحديث الذى معنا، وبالصيام كما فى حديث أبى هريرة «عن رسول الله ﷺ قال: «السائحون هم الصائمون»(٢).

وهكذا يتضح أن الإسلام ينهانا عن التشبه بالغير. ينهانا عن التشبه بأى أمة أخرى، وينهانا عن التشبه بهم فى أى أمر، سواء كان هذا الأمر عقديًا، أو عبادة، أو سلوكًا، أو أى أمر من أمور الحياة.

والحديث الذى معنا مستوعب لكل ما يمكن أن يقع التشبه فيه، فلقد بين ﷺ فيه أننا منهيون عن التشبه بهم فى الدين، فذكر أقبح الأشياء فى قوله «ولو أن أحدهم جامع أمه بالطريق لفعلتم»(٣) كما بين فيه أننا منهيون عن التشبه بهم فى الدنيا فذكر أقبح الدنيويات فى قوله «حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد باب فى النهى عن السياحة ٧/ ١٦٤.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى ١١/ ٣٧ والبيهقى فى شعب الإيمان ٣/ ٢٩٣ رقم ٣٥٧٨ مكرر.

(٣) فى حديث ابن عباس عند المروزى فى السنة ص١٨ رقم ٤٣، وهو عند البزار ورجاله ثقات كذا فى مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٥.

(٤) فى حديث الباب الذى نشرحه.

● **التوفيق بين النصوص:**

ويبقى هنا سؤال: لقد ثبت بالحديث الذى نشرحه هنا، والنصوص التى فى موضوعه من آيات وأحاديث أنه لا يصح أن نتشبه بالأمم الأخرى فى أى شىء، وهذا يتعارض مع ما يأتى:

١ ـ قول الله تعالى لرسوله بعد أن ذكر عددًا من الرسل: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [1]، وفى هذا أمر من الله لرسوله باتباع الأنبياء السابقين وبالتالى فهو اتباع للأمم الأخرى؟

والجواب: يقول الله لرسوله: أولئك الأنبياء الذين ذكرناهم لك هم الذين هديناهم إلى الحق ﴿**فَبِهُدَاهُمُ**﴾ أى بطريقتهم فى الإيمان بوحى الله ﴿**اقْتَدِهْ**﴾ أى كن مقتديًا ومتمسكًا.

والمقصود: كن مثلهم فى قبول ما جاء من عند الله، لا أن تتبع غير ذلك.

وليس فى هذا تشبه بالأمم الأخرى، وإنما هو بيان المنهج الفكرى السليم من اتباع ما جاءنا من عند الله تعالى.

٢ ـ قول الله تعالى لرسوله ﷺ بعد أن قص علينا شيئًا من أنباء إبراهيم عليه السلام: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ [2] فهذا أمر من الله لرسوله أن يتبع ملة إبراهيم مما يوحى أن الأمة تتبع ما قبلها؟

والجواب: إن رسول الله محمدًا وكل رسل الله أصل الدين الذى جاءوا به واحد، وهو توحيد الله تعالى، كما قال الله: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ**

(١) سورة الأنعام: ٩٠.

(٢) سورة النحل: ١٢٣.

أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [١].

فأصل الدين التوحيد، والأنبياء جميعًا دعاة إليه، السابق واللاحق كلهم على نهج واحد، يوضح ذلك:

* قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [٢].

* وقوله سبحانه على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [٣].

إن الملاحظ لأول الآية الكريمة ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ يتضح له أن رسول الله محمدًا ﷺ قد أوحى الله إليه أصل الدين، وأنه ﷺ كان على دين إبراهيم وفق وحى الله إليه. إنه لم يجد دين إبراهيم فاتبعه لا. وإنما أوحى الله إليه بأصل الدين كله وهو التوحيد، أما التشريعات فى العبادة والأخلاق، فهذه تختلف من رسول إلى آخر حسب نضج البشرية، وحكمة الله فى التشريع الذى يناسب كل طور من أطوارها، يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ

(١) سورة الشورى: ١٣.

(٢) سورة البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٣.

(٣) سورة يوسف: ٣٨.

شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [١].

وهكذا يتضح أن أمر الله سبحانه رسوله محمدًا ﷺ باتباع ملة إبراهيم عليه السلام إنما هو لاتفاق أصل الدين وهو التوحيد، جاءه الوحى به كما جاء بقية المرسلين، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [٢].

٣ ـ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [٣] قد يتسائل البعض: أليس فى هذه الآية أمر لنا باتباع أهل الكتاب؟

والجواب: إن قول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا﴾ ليس أمرًا للمسلمين. وإنما هو أمر للمشركين الذين يستبعدون أن يكون الرسول رجلاً. يأمرهم الله أن يسألوا أهل الذكر أى أهل العلم بالوحى، وهؤلاء إما علماء المسلمين، وإما علماء أهل الكتاب الذين أسلموا، وإما علماء أهل الكتاب الذين لم يسلموا، والسياق يرجح الثالث. وعليه فهذا أمر للمشركين الذين يستبعدون كون الرسول بشرًا أمر لهم أن يسألوا علماء أهل الكتاب فإنهم سيخبرونهم أن الرسول يكون من البشر.

وعليه فليس فى الآية أمر للمسلمين بأى نوع من اتباع غيرهم.

٤ ـ أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كان النبى ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه...»[٤].

(١) سورة المائدة: ٤٨.

(٢) سورة النساء: ١٦٣.

(٣) سورة الأنبياء: ٧.

(٤) أخرجه البخارى رقم: ٥٩١٧.

والسؤال: إذا كان رسول الله ﷺ كان يحب موافقة أهل الكتاب فكيف يأمرنا بعدم اتباعهم؟

والجواب: إن كلام ابن عباس يوضح أن رسول الله ﷺ كان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه، أى فيما لم يأته الوحى به، وهذا ممكن فى بعض الأمور فى أول الرسالة، كان يوافقهم لأنهم أصحاب دين، أما المشركون فليسوا أصحاب دين، وكلما زاد الإسلام كلما ترك ما كان عليه وفقًا لهم، حتى اكتمل الإسلام فبين للأمة بالآيات والأحاديث أنه لا يجوز أن نتبعهم فى شىء فقد كمل ديننا. وأسوق حديثًا يبين ذلك:

* فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: كان اليهود إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن فى البيوت[١] «فسأل أصحاب النبىِّ النبىَّ ﷺ[٢] فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ...﴾ إلى آخر الآية[٣]. فقال رسول الله ﷺ: اصنعوا كل شىء إلا النكاح فبلغ ذلك اليهود. فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد ابن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود تقول كذا وكذا. فلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما[٤]. فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبى ﷺ، فأرسل فى آثارهما. فسقاهما. فعرفا أن لم يجد عليهما»[٥].

(١) أى لم يخالطوا النساء ولم يساكنوهن فى بيت واحد.

(٢) أى سأل الصحابةُ رسولَ الله ﷺ عن مخالطة الحائض ومعايشتها.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٤) وجد عليهما يعنى: غضب عليهما.

(٥) أخرجه مسلم رقم ٣٠٢.

هكذا فى هذه الفترة التى كانت فى غمرة التشريع، حتى نزل حكم التعامل مع الحائض، خالف رسول الله ﷺ اليهود، حتى اعترفوا أنه قد خالفهم فى كل شىء.

٥ ـ روى عن السلف وجمهور الفقهاء: شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه. ومعنى هذا: أننا نقلد الأمم الأخرى فى أشياء دينية، فكيف والحديث الذى نشرحه ومعه آيات وأحاديث تنهى عن اتباع الآخرين؟

والجواب: إننا حينما نتبع شرع من قبلنا فإنه لا بد من ثبوت ذلك بمصدر من ديننا، كأن يخبرنا ربنا فى كتابه، أن أمة كذا كانت شريعتها كذا، أو يخبرنا ربنا على لسان رسولنا ﷺ، أما أن يخبرونا هم فلا يجوز أن نتبعهم، وقد قال ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ...﴾ الآية»[1] وعلى ذلك فنحن حينما نتبع ما كانوا عليه، فإنما نتبع شرعنا الذى جاءنا بطريق الوحى، وليس شرعهم.

مثال: ومثال ذلك أن فقهاء الإسلام يفتون أن من نذر ذبح ابنه فعليه أن يذبح شاة وفاء بنذره. وهذا كان فى دين إبراهيم الخليل.

لكن حينما يفتى المسلمون بذلك فإنما هو اعتماد على القرآن الكريم، والذى يحدثنا عن نوح ثم عن إبراهيم، فيقول ربنا سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ ثم يقول سبحانه على لسان إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ

(٤) أخرجه البخارى رقم ٤٤٨٥. وقد تقدم.

صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [1].

وهكذا نحن حينما نقول إن من نذر أن يذبح ولده فعليه أن يذبح شاة فإننا نتبع ما كان فى ديانة إبراهيم، نثق فى ذلك إذ أخبرنا به ربنا سبحانه وتعالى فى كتابه، ونمتثل ذلك لأن ربنا أقرَّ ذلك لنا فى كتابه، فنحن نعمل بذلك لأنه فى كتاب ربنا، فهو ثابت وحق، وهو قد أقره الله لنا. وعليه فلسنا متبعين لغيرنا، إنما نحن نعمل بكتاب ربنا.

• حكم التشبه بالكفار:

وإنى وقد ذكرت الكثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التى فيها النهى عن التشبه بالكفار، فإنى أريد هنا أن أوضح حكم التشبه بهم؛ وذلك لأن التشبه بالكفار يختلف حكمه من:

أ ـ تشبه يكْفُر فاعلُه، وبالتالى فهو أكبر الكبائر، ومعه يضيع الإيمان.

إلى ب ـ تشبه فاعله فاسق. وبالتالى فهو كبيرة من الكبائر.

إلى جـ ـ تشبه هو خطأ. وبالتالى فعلى المسلم أن يبتعد عن ذلك.

وأفصِّل القول فى ذلك:

• أ ـ التشبه الذى يَكْفُر فاعلُه:

إن المسلم لو تشبه بكافر فى أمر من أمور العقيدة، خالف المسلم فيها دينه فقد كفر، من ذلك:

١ ـ فصل الدين عن الحياة:

فالكفرة يعتقدون أن الحياة ينظمونها برأيهم، أما الدين فهو فى أماكن

---

(١) سورة الصافات: ٨٣ وآية ١٠٠ ـ ١٠٧.

العبادة، ولا علاقة له بالحياة فى رأيهم. فلو تشبه بهم المسلم فى ذلك فقد أنكر الكثير من الإسلام، وهذا يجعله كافرًا.

إن الإسلام نظم شئون الحياة، ولا يمكن فصله عن الحياة، وإنما تسمو الحياة به، هذه عقيدة المسلم، ولا يصح أن يحيد عنها.

٢ ـ الإيمان ببعض ما جاء به الدين وترك البعض الآخر:

فكثير من الكفرة يحيا على هذا، وقد سجل القرآن ذلك عليهم، فقال الله فى شأن اليهود: ﴿**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (١) فلو تشبه بهم المسلم فى ذلك فاستحل شيئًا حرمه الإسلام، أو حرم شيئًا أحله الإسلام فقد كفر.

إن الإسلام كلٌّ لا يقبل التجزئة، والحلال ما أحله الله ورسوله، ولا يليق بمسلم أن يحرم شيئًا منه، والحرام ما حرمه الله ورسوله، ولا ينبغى للمسلم أن يستحل شيئًا منه. والواجب على المسلم أن يقبل الإسلام كله، ولا يتشبه بالكفرة فى ترك بعض دينهم.

٣ ـ طلب الدين من غير مصدره:

فالأمم الأخرى حرفت فى دينها وغيرت، ولو أن المسلم تشبه بهم فى هذا وراح يطلب دينه من غير مصدره، ففسر القرآن على غير الأسس التى أجمعت عليها الأمة، فإنه يكفر بذلك. وكذلك من ينكر السنة النبوية، أو ينكر شيئًا منها قد قبله علماؤها المحدثون فإنه يكفر بذلك. وأيضًا من جعل عقله حكمًا على دينه فإنه يكفر بذلك، فمصدر الدين

---

(١) سورة البقرة: ٨٥.

القرآن والسنة، وأما العقل فيقبل ويسلم، ثم يفهم ويعمل. وقد عاب الله ترك الوحى واتباع الهوى والرأى فقال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

٤ ـ استحسان شيء مما عند الكفرة عن الإسلام:

فلو استحسن المسلم شيئًا مما عند الكفرة عن الإسلام فهذا يجعله كافرًا، وهذا باب شر واسع فُتِحَ على كثير من الناس، فإذا استحسنت المسلمة ما عند الكافرات من اختلاط أو عُرْى أو إباحية فهذا كفر، أما إن فعلت شيئًا من ذلك تشبها بهن دون استحسانه عن الإسلام فإنها تكون فاسقة. وكذلك المسلم إذا استحسن ما عليه الكفرة من الإباحية الجنسية على الزواج الإسلامى فقد كفر بذلك.

٥ ـ المادية فى العقيدة:

فالأمم الأخرى يتصورون الإله تصورًا ماديًا، أهل الكتاب يجعلونه: عزيرًا، والمسيح. وغيرهم يجعلونه: الشمس، أو القمر، أو الماء، أو المعدن، أو البقر، أو الأصنام... إلخ.

فلو تشبه المسلم بالكفرة فى ذلك، وراح يؤله مخلوقًا، أو يطلب النفع أو دفع الضرر من مخلوق فهذا تشبه بالكفرة يورث الكفر.

٦ ـ الموالاة:

وكثيرًا ما يؤدى التشبه إلى الموالاة، فمن رضى شيئًا من أفعال الكافرين فراح يتشبه بهم فيه، فإن ذلك يؤدى به إلى الموالاة، وقد قال

---

(١) سورة القصص: ٥٠.

الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1] فمن تولى كافرًا بمعنى صادقه وأحبه فإنه كافر، فكيف يحبه مع كفره، إن كفر الكافر جريمة فى رأى المؤمن تجعل المؤمن لا يحبه أبدًا ولا يصادقه.

إن حب الكافر لا يكون إلا لمن رضى كفره، ومن هنا فإن المؤمن لا يحب الكافر، ولا تكون بينه وبينه موالاة.

إن الكافر، لم يرض بالله ربًا، ولا بالإسلام دينًا، فلا يحبه المسلم ولا تكون بينهما موالاة ولا مصافاة.

٧ ـ عموم التشبه:

وإذا كان التشبه بالكفرة فى الأمور العقدية التى سبق أن ذكرتها يورث الكفر فإن حديث «من تشبه بقوم فهو منهم»[2] وكذا حديث «ليس منا من تشبه بغيرنا»[3] يفيدان كفر من تشبه بالكفرة، أيا كان الذى يتشبه بهم فيه. والاحتياط يقتضى حمل الحديثين على عمومهما، وإن كان من العلماء من يحمل الحديثين على أن من تشبه بهم فى أمر عقدى فقد كفر وإن كان فى أمر معصية فقد فسق، وإن كان فى أمر حياة فقد أخطأ، كما أسير عليه هنا فى تقسيم التشبه.

• ب ـ التشبه الذى يفسق فاعله:

ويحرم على المسلم مشابهتهم فى أمور العبادة والحياة، فللمسلم دينه الذى رسم له منهج الحياة السليم فى كل النواحى وعلينا أن نتبع ما جاءنا

---

(١) سورة المائدة: ٥١.

(٢) سبق مع تخريجه ص ٤٧، وبينت هناك أنه حديث حسن يرتقى بشواهده إلى الصحيح.

(٣) سبق أيضا ص ٤٧، وهو حديث حسن بشواهده.

به رسول الله ﷺ عن الله، نتبع القرآن الكريم والسنة النبوية بكل دقة وحيطة، لا نبدل ولا نغير، نأخذ منهما ولا نأخذ من أى أمة أخرى، فمن أخذ من أمة أخرى فهو فاسق، مرتكب بكل تَشَبُّهٍ ذنبًا.

فمن ذلك:

١ ـ قسوة القلب:

فقد نهانا الله عن مشابهة الكفرة فى قسوة القلب، فقال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾[1].

نهانا سبحانه أن نشبههم بقسوة القلب، وعدم الالتزام بالدين، وبين سبحانه أنهم إنما قست قلوبهم بسبب الذنوب، تركوا دينهم وتَخَلَّوْا عنه لطول الزمن فقست قلوبهم، كما قال سبحانه: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**﴾[2].

طال عليهم الزمن فبدلوا وغيروا فقست القلوب، والقلب القاسى أبعد المخلوقات عن الله عز وجل.

يقول رسول الله ﷺ: «لا تكثر الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى»[3].

إن أمور القلب اهتم بها الإسلام كثيرًا، وفيها آيات من كتاب الله،

(١) سورة الحديد: ١٦.

(٢) سورة المائدة: ١٣.

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد باب ما جاء فى حفظ اللسان ٧/ ٩٢ وقال: هذا حديث حسن غريب وأخرجه الطبرانى فى الدعاء ٣/ ١٦٣٧ رقم ١٨٧٤ وحسنه محققه.

وأحاديث لرسول الله ومؤلفات لعلماء الأمة، إلا أن الكثيرين من الأمة لا يعيرون ذلك اهتمامًا، مما جعل القلوب تقسو، حتى أشبهت قلوب أهل الكتاب، لا تحرص على الخير، وإنما تركب الشر، وهذا يجعل صاحبه فاسقًا[١].

٢ ـ التشدد فى الدين:

والإسلام دين واضح المعالم، لا يقبل الزيادة ولا النقص، وقد حذر رسول الله ﷺ من التشدد فيه، فقال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا. وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة»[٢].

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ[٣] فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبى ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال: أحدهم: أما أنا فأصلى الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[٤].

هذه صور من التشدد فى الدين أوردتها لأبين أن التشدد فى الدين ليس من الإسلام، وقد عاب الله على أهل الأديان السابقة تشددهم فى

---

(١) راجع الزواجر لابن حجر ١/ ٢٥١ الكبيرة الحادية والستون.

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان باب الدين يسر ١/ ٩٣ رقم ٣٩.

(٣) جاء فى رواية مسلم أنهم سألوا عن عبادته فى السر.

(٤) أخرجه البخارى فى أول كتاب النكاح ٩/ ١٠٤ رقم ٥٠٦٣.

دينهم فقال سبحانه: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٢).

وقال ﷺ فى بيان هذه الآية: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه» (٣).

وقال سبحانه: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ (٤).

هكذا الإسلام لا يبيح التشدد، والله قد عاب على الأمم الأخرى التشدد إلا أننا نلاحظ البعض تشدد فى الدين، فمن الناس من يترك التيسير الذى شرعه الله: كالفطر فى رمضان للمسافر، وللحامل والمرضع، فيتشدد هؤلاء ويصومون مع المشقة، بل غالى من لا يصح صومهن كالحائض والنفساء فبعضهن يصوم، ولا صيام لهن. وبعض الناس إذا أجنب بأن جامع زوجته أو احتلم والماء بارد يخشى منه الضرر، نجده يحرص على الاغتسال بهذا الماء البارد مع أن الشرع يبيح له التيمم، وهذا تشدد. وبعض الناس يغالى فى قيام الليل حتى ربما عجز عن صلاة الفجر، والتى هى فريضة.

إن هذا التشدد تشبه بالأمم الأخرى، وقد نهينا عنه كما سبق فى الآيات.

* ويقول ﷺ: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم. فتلك بقاياهم فى الصوامع

(١) سورة النساء آية ١٧١.

(٢) سورة التوبة آية ٣١.

(٣) أخرجه الترمذى فى التفسير سورة التوبة ٨/ ٤٩٢ رقم ٥٠٩٣ وحسنه.

(٤) سورة الحديد: ٢٧.

والديار. رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»[١].

إن التشدد أمر لا يقره الإسلام، وهو تشبه بالأمم الأخرى، فإذا اعتقد المتشدد أن فعله أفضل من الإسلام فهذا نوع من الكفر كما فى الحديث المتقدم «فمن رغب عن سنتى فليس منى» وإن كان بنوع من التأويل الذى يعذر صاحبه فيه فهو عاص، فإذا انضاف إلى ذلك التشبه بالكفار فإنه يجعل صاحبه موغلاً فى الإثم، فاسقًا بتشدده هذا.

إن التشدد فى العبادة يفضى إلى الملل الذى يؤدى إلى تركها. كما أن الاقتصار على الفرائض وترك التنفل يؤدى إلى تفضيل البطالة وعدم النشاط فى العبادة، وهما طرفان مرفوضان فلا تشدد ولا كسل، وخير الأمور الوسط، وهذا هو منهج الإسلام، وهو الكفيل بالسعادة فى الدنيا والآخرة.

٣ ـ اتخاذ المساجد على قبور الصالحين:

حذر الإسلام من اتخاذ المساجد على قبور الصالحين، وأخبرنا رسول الله ﷺ أن الأمم الأخرى قد فعلت ذلك، فحلت عليهم لعنة الله، يحذرنا ﷺ من أن نفعل فعلهم وأن نشبههم فى ذلك، فيكون مصيرنا كمصيرهم.

فعن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير «فذكرتا للنبى ﷺ فقال: إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب باب فى الحسد ٢٤٨/١٣ وأبو يعلى ٣٦٥/٦ رقم ٣٦٩٤/٩٣٩ وحسنه محققه.

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة باب هل تنبش قبور مشركى الجاهلية ٥٢٣/١ رقم ٤٢٧ ومسلم فى المساجد باب النهى عن بناء المساجد على القبور ٣٧٥/١ رقم ٥٢٨/١٦.

وعن جُنْدَب قال «سمعت النبى ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد. ألا فلا تتخذوا القبور مساجد. إنى أنهاكم عن ذلك»[١].

والصلاة إلى القبر أو على القبر لها ثلاثة أحكام:

ـ الصلاة إلى القبر تعظيمًا للمدفون فيه، واعتقاد أنه ينفع ويضر، فهذه يكفر فاعلها، وعلى هذا كثير من زوار القبور المعظمة.

ـ الصلاة إلى القبر تبركًا بالمدفون فيه، وفاعلها آثم مرتكب لكبيرة.

ـ الصلاة دون اعتبار للقبر، فهو يقصد الصلاة دون تعظيم أو تبرك بالمدفون وهذه مكروهة.

والأحاديث السابقة[٢] تفيد أن بناء المسجد على القبر، أو جعل أى علاقة بين المسجد والقبر من أعظم المحرمات، وفاعل ذلك من شرار الخلق، وعليه لعنة الله.

يخبرنا ﷺ بما كان فى الأمم السابقة، وأن الله لعنهم بسبب اتخاذ القبور مساجد، وينهانا عن ذلك ويحذرنا، فمن تشبه بهم فى ذلك فقد أتى بابًا واسعًا من أبواب الضلال. نعوذ بالله من ذلك.

٤ ـ تشبه الرجال بالنساء وعكسه:

ومما سرى إلى الأمة من أمم الكفر تشبه الرجال بالنساء، وتشبه النساء بالرجال، فالرجل فى أمم الكفر يتشبه بالمرأة فى الملبس والزينة، والكلام والمشى، ووفد هذا إلى أمة الإسلام، فنجد بعض الذكور تنحو به أمه هذا النحو فتجمل الصغير كأنه بنت، وحينما يشتد عوده تجده يسير على

---

(١) أخرجه مسلم فى الموطن السابق رقم ٢٣/ ٥٣٢ .

(٢) وغيرها فى موضوعها كثير راجع الزواجر لابن حجر الكبيرة ٩٣ ـ ٩٨ جـ١ ص٣٢١.

هذا النهج يتشبه بالنساء! وكذلك البنات رحن يحاكين الشباب فى الملبس والملعب والهيئة!

والإسلام حرم الأمرين، فحرم على الرجل أن يتشبه بالنساء، وحرم على النساء أن يتشبهن بالرجال، وحرص على أن يبقى كل جنس بخصائصه، حتى لو وجدت فى ولد بعض صفات البنات فإنه يُعَوّد على ترك ذلك. وكذلك البنت.

* فعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»[1].

* وعن ابن عباس أيضًا قال: «لعن النبى ﷺ المخنثين[2] من الرجال، والمترجلات[3] من النساء، وقال: أخرجوهم من بيوتكم»[4].

إن تشبه أحد الجنسين بالآخر كبيرة من الكبائر، وفاعل ذلك فاسق، وجاءت الفكرة من أمم الكفر، فتشبه بهم بعض أمة الإسلام، وهؤلاء جمعوا بين كبيرتين: كبيرة تشبه الرجال بالنساء أو العكس. وكبيرة التشبه بأهل الكفر[5].

٥ ـ مشاركة الكفار فى أعيادهم:

الأعياد جزء من الدين، وهى تختلف من أمة لأمة، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[6]. وقال ﷺ: «إن لكل قوم عيدًا

(١) أخرجه البخارى فى اللباس باب المتشبهون بالنساء ١٠/ ٣٣٢ رقم ٥٨٨٥.

(٢) المخنث: من فيه انخناث أى تكسر وتثنى كما يفعله النساء.

(٣) المترجلات: المتشبهات من النساء بالرجال.

(٤) أخرجه البخارى فى اللباس باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت ١٠/ ٣٣٣ رقم ٥٨٨٦.

(٥) راجع الكبيرة رقم ١٠٧ من الزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ٣٣٧.

(٦) سورة الحج: ٦٧.

وهذا عيدنا»[١]، وفى هذا أمر باتباع أعياد الإسلام، أما أعياد الكفر فنحن منهيون عن مشاركتهم فيها. إن دين الإسلام كامل تام، فكل ما يرسم حياة الأمة جاء به الوحى، وعلمه رسول الله ﷺ الأمة، فالأمة ليست بحاجة إلى ما عند الأمم الأخرى، وفى تعاليم ديننا ألا نشابههم، وأن لا نأخذ منهم.

فعن أنس بن مالك قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم[٢] يومان يلعبون فيهما[٣] فقال: ما هذان اليومان؟ قالوا: كنا نلعب فيهما فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما: يوم الأضحى ويوم الفطر»[٤].

وقوله ﷺ: «إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما» دليل على استقلالية الأمة بأعيادها، فليست تبعًا لأمة أخرى.

وقوله: «أبدلكم بهما» دليل على أنه لا علاقة لنا بأعياد الآخرين، فإنه لا يجمع بين البدل والمبدل منه، فأعيادنا بدل أعيادهم، فلا يصح أن نحتفل بأعيادنا وأعيادهم، وإنما نحتفل بأعيادنا فقط.

وعن كريب مولى ابن عباس قال: أرسلنى ابن عباس وناس من أصحاب النبى ﷺ إلى أم سلمة رضى الله عنها أسألها: أى الأيام كان النبى ﷺ أكثرها صيامًا؟ قالت: كان يصوم يوم السبت ويوم الأحد،

---

(١) صحيح مسلم رقم ٨٩٢ والبخارى رقم ٩٥٢ ورقم ٣٩٣١ ورقم ٩٨٧.

(٢) أى لأهل المدينة.

(٣) هما يوم النيروز ويوم المهرجان وهما أول الربيع وأول الخريف.

(٤) أخرجه أبو داود فى الصلاة باب صلاة العيدين ٣/ ٤٨٤ وقال فى الفتح ٢/ ٤٤٢ شرح حديث ٩٤٩ أخرجه النسائى وابن حبان بإسناد صحيح ونقل فى العون عن المنذرى أنه أخرجه أيضا الترمذى.

أكثر ما يصوم من الأيام. ويقول: إنهما يوما عيد للمشركين فأنا أحب أن أخالفهم»[١].

إن شأن العيد أنه لا يصام، فصام ﷺ أيام عيد المشركين مخالفة لهم، وتعليمًا لأمة الإسلام أن يخالفوهم. فلا علاقة لنا بأعيادهم.

ولقد كان السلف على ذلك:

فعن عمر رضى الله عنه قال: لا تعلموا رطانة الأعاجم[٢]، ولا تدخلوا على المشركين فى كنائسهم يوم عيدهم، فإن السخطة تنزل عليهم[٣].

وقال أيضًا: اجتنبوا أعداء الله فى عيدهم[٤].

وعن عبد الله بن عمرو قال: من بنى ببلاد الأعاجم، وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة[٥].

وأُتى على بن أبى طالب بهدية النيروز فقال: ما هذه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين هذا يوم النيروز. قال: فاصنعوا كل يوم فيروز. قال أبو أسامة[٦]: كره أن يقول نيروز. قال الحافظ البيهقى: وفى هذا كالكراهة لتخصيص يوم بذلك لم يجعله الشرع مخصوصًا به[٧].

وروى مثل هذا عن كثير من الصحابة والأئمة الأعلام.

(١) أخرجه أحمد ٤٤/ ٣٣٠ رقم ٢٦٧٥٠، وخرجه محققه وحسنه.

(٢) رطن: تكلم بغير العربية. و«رطانة الأعاجم» لغة الأعاجم.

(٣) أخرجه البيهقى فى الكبرى كتاب الجزية باب كراهية الدخول على أهل الذمة فى كنائسهم. . . ٩/ ٢٣٤ وعبد الرزاق فى كتاب الصلاة باب الصلاة فى البيعة ١/ ٤١١ رقم ١٦٠٩.

(٤، ٥) أخرجهما البيهقى فى الموضع السابق. وراجع اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٥٥.

(٦) أحد رجال السند.

(٧) أخرجه البيهقى فى الموطن السابق ٩/ ٢٣٥.

إن الصحابة يبينون أن دخول كنائس الكفار فى عيدهم يُعَرِّض الداخل لسخط الله، فما بالك بمن يعمل شعائر أعيادهم؟ إن من يعمل شعائر دينهم يورثه ذلك كفرًا - كما فى كلام عبد الله بن عمرو. فواجب على المسلم أن يبتعد عن مشاركتهم تمامًا، حتى إن عليًّ بن أبى طالب يرفض ذكر اسم عيدهم فلا يقول «نيروز» وإنما نطقه فيروز. وحث على أن لا يخص هذا اليوم بطعام، وإنما ليصنع المسلمون الأطعمة فى أى وقت.

وهكذا يتضح أنه لا يجوز لمسلم أن يشارك الكفار فى أى عيد لهم، لا فى عيد رأس السنة، ولا فى أى عيد آخر، فمن شاركهم على سبيل الرضا بدينهم فقد كفر، ومن شاركهم على مجرد المجاملة فسق، ومن شاركهم على سبيل التوسعة على نفسه وأولاده أيضًا فسق.

هذه أمور من اتبع الكفار فيها فأحسن أحواله أن يكون فاسقًا، أى عاصيًا، وأسوأ أحواله أن تجره إلى الكفر والعياذ بالله تعالى.

وإنى وإن كنت ذكرت خمسة أشياء فذلك من باب الدلالة بالشبيه على شبيهه، وإلا فهى أمور كثيرة اتبع كثير من المسلمين فيها الكفار مما أوقعهم فى المعاصى[1]. وحسبى أن أبين أن علينا أن نتبع ما جاءنا فى

(١) من ذلك:
* الاستكثار من تعلم لغات الكفار، والاستكثار من استعمالها. والإسلام يجيز تعلمها واستعمالها فى حدود الضرورة فقط.
* السياحة، فكثر بين المسلمين ما يسمونه بالسياحة، وهو السير فى الأرض للنزهة، والإسلام لا يبيح ذلك، وإنما السياحة فى الإسلام هى: الجهاد، والصوم.
* السلام بالإشارة. والسلام فى الإسلام بالنطق.
* إلقاء السلام على الكفرة. وهذا ليس من الإسلام.
* رفع الصوت بالذكر، وهذا تشبه بهم لا يجيزه الإسلام.
* رفع القبور. وهذا تشبه بالكفرة لا يجيزه الإسلام، وفاعله فاسق.
* جعل المحاريب فى المساجد، وهذا تشبه بهم لا يجيزه الإسلام.

كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، غير مبدلين ولا مغيرين، سواء كان التبديل أو التغيير وليد الهوى والشهوة، أو وليد اتباع الأمم الأخرى.

وهناك أمور هى من شئون الحياة، يظن الكثيرون أن تشبهنا فيها بالكفار لا شىء فيه، وهذا هو النوع الثالث.

● جـ ـ التشبه الذى هو خطأ:

وهناك أشياء نرى أنها من المباحات، وأن الإنسان يجوز له أن يفعلها كما يشاء، بينما هى معروفة بأنها من خصائص الكفار، فهذه لا يجوز للمسلم أن يفعلها. من ذلك:

* **هيئة الشعر**: فلو عرفت هيئة للشعر يفعلها بعض الكفار أو الكافرات، فلا يجوز لمسلم أو لمسلمة أن يفعلوها.

* **الملابس**: فلو عرف ملبس معين لبعض الكفار أو الكافرات فلا يجوز لمسلم أو مسلمة أن يلبسوه.

سئل سعيد بن عامر ـ إمام أهل البصرة فى زمانه متوفى ٢٠٨ ـ عن لبس النعال التى يلبسها بعض ملوك دول الكفر فأنكر ذلك.

وروى هذا عن الإمام أحمد بن حنبل أيضًا.

وقال سعيد بن عامر: زى نبينا أحب إلينا من زى «باكهن» ملك الهند[1].

= * شرافات المساجد والتكلف فى مبانيها.

* التوسع فى المطاعم والمشارب والفرش والمبانى.

* التوسع فى وسائل الحياة من سيارات وأجهزة منزلية وغيرها.

* قبول وسائل اللهو واللعب.

* عدم الأمر بالمعروف، وعدم النهى عن المنكر.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٦.

* **الملاعب:** فكل ألعاب الكفار لا يجوز للمسلم أن يتشبه بهم فيها، فإن ألعاب الإسلام لها هدفها النبيل، وسلوكها القويم.

يقول ﷺ: «كل شىء ليس فيه ذكر الله فهو لهو ولعب إلا أربع: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشيه بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة»(١) جاء فى رواية(٢): «ملاعبته أهله».

إلى غير ذلك من وسائل الحياة التى قد يظن البعض أنه يجوز لنا أن نتشبه بالكفرة فيها، والحق أنه لا يجوز لنا أن نتشبه بهم فى أى شىء، وإنما لتكن لنا شخصيتنا النابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية.

• متى يجوز التشبه بالكفار:

وإنى وقد بينت تحريم التشبه بالكفار، وأنه أحيانًا يجر إلى الكفر، وأحيانًا إلى الفسق، وأحيانًا إلى الخطأ، فإنى أريد أن أبين هنا أنه يجوز التشبه بالكفار فى الأحوال الآتية:

١ ـ **دفع المضرة:** كأن يكون مسلم يقيم فى بلاد الكفار، ورأى أنه لو خالفهم أضروه فإنه يجوز له أن يتشبه بهم دفعًا للضرر.

دل على ذلك أن رسول الله ﷺ لم يخالف المشركين إلا بعد الهجرة، وبعد أن قوى الإسلام.

٢ ـ **جلب المصلحة:** كأن يقيم مسلم بين الكفار يُعَرِّفُهُم الإسلام، أو يُمَثِّل أمته فى أمر نافع، وعلم أنه لا يستطيع ذلك إلا بمشابهتهم. وهذا

---

(١) أخرجه النسائى فى الكبرى ٥/٣٠٢، ٣٠٣ رقم ٨٩٣٩، ٨٩٤٠ وهو عند الطبرانى فى الكبير والأوسط وعند البزار، وهو حديث صحيح وراجع المجمع ٥/٢٦٩.

(٢) عند النسائى أيضًا.

إنما يكون فى أضيق الحدود، فإذا كانت المهمة من هذه تحصل بعشرة رجال، فلا يصح أن يقيم فى بلادهم أكثر من ذلك. وإذا كانت تحصل فى مدة فلا يزيد عليها.

دل على ذلك أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود فعن زيد قال «أُتِىَ بى النبى ﷺ مَقْدَمَهُ المدينة، فقيل: هذا من بنى النجار، وقد قرأ سبع عشرة سورة، فقرأت عليه، فأعجبه ذلك، فقال: تعلم كتاب يهود فإنى ما آمنهم على كتابى. ففعلت، فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب له إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له»[1] أمر ﷺ واحدًا فقط، فإنه تحصل به المصلحة.

وهكذا يجوز التشبه بهم فى هاتين الحالتين، وفى أضيق الحدود.

• حكمة النهى عن التشبه:

جاءت الآيات والأحاديث تنهى عن التشبه بالكفار، وذلك لحكم عديدة، أذكر منها:

١ ـ التشابه الظاهرى يؤدى إلى التشبه الخلقى، والعكس صحيح: فلو رأى إنسان إنسانًا آخر يلبس كملابسه أقبل عليه، وأحس أنه من جماعته، فلو التقى من يلبس الملابس العسكرية بآخر يلبس الملابس ذاتها، فإنهما يقبلان على بعضهما، وكذلك لو وجد من يحمل آلة لهو شخصًا آخر يحمل آلة كآلته فإنهما يقبلان على بعضهما، ويتوافقان.

---

(١) ذكره ابن حجر فى الإصابة ٥٩٣/٢ فى ترجمة زيد. وعزاه إلى البخارى تعليقًا، والبغوى وأبى يعلى موصولا. قلت: أخرجه أبو داود فى العلم باب رواية حديث أهل الكتاب ٧٨/١٠ وأخرجه البخارى فى الأحكام باب ترجمة الحكام ١٨٥/١٣ رقم ٧١٩٥ معلقا. ووصله فى التاريخ. وحسنه الحافظ فى شرحه. وأخرجه الترمذى وقال: حسن صحيح.

إن التشابه الظاهرى ليس هينًا، فإنه يقود إلى التشابه فى الأخلاق والأعمال. والعكس صحيح، فالمخالفة فى الشكل الظاهرى تؤدى إلى البعد عن أسباب الضلال، فالمخالف للكفار فى الظاهر تجده لا يُقبل عليهم، ولا يحبهم فقد ذكّر نفسه بالظاهر إلى مخالفته لهم فى الباطن.

إن التشبه بالكفرة فيه نوع إقبال عليهم وعلى باطلهم، يؤدى إلى إلف الباطل، مما يؤدى إلى الوقوع فى الضلال. أما مخالفتهم ففيها رفض للباطل. وتمسك بالحق، وهذا يصلح القلب ويجعله مقبلاً على الحق، مبغضًا للباطل.

٢ ـ التشبه بالكفار يؤدى إلى نوع موالاة، وموالاتهم تنافى الإيمان: قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [١]. هكذا ﴿**مَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾ إن من يحب الكفرة ويعاونهم، ويودهم ويصحبهم يؤول أمره إلى كفرهم.

إن التشبه بالكفار يؤدى إلى الكفر.

٣ ـ التشبه بالكفار يقوى الكفر ويضعف الإيمان: فحينما يصبح المسلم تابعًا للكافر ولو فى الظاهر فإن ذلك يجعل الكفر شائعًا، ويجعل الكفرة يظنون أن كفرهم حق. إن ذلك يلبس على العامة، ويخفى حقيقة الأمور عليهم.

إن التشبه بالكفار قد يكون فى أمر مُكَفِّر، وقد يسوق المسلم إلى قبول أو استحسان ما هم عليه، وذلك كفر.

(١) سورة المائدة: ٥١.

كما أن التشبه بالكفار هو إفراغ لطاقة المسلم الدينية، مما يضعفه فى أمور الإسلام، فمن احتفل بأعياد الكفار يضعف احتفاله بعيدى الفطر والأضحى، أما لو أنه لم يحتفل إلا بالفطر والأضحى، فإن احتفاله بهما يكون قويًا ويعتز بهما. وهكذا فى كل الأمور، فمن استمع للغناء والموسيقى شغله ذلك عن سماع القرآن الكريم. وهكذا.

ولهذه الأسباب وما على شاكلتها نهى الإسلام عن التشبه بالكفار، حفاظًا على إيمان المؤمن، ونصرة للإسلام، وإحقاقًا للحق.

• من المتشبهون بالكفار؟

جاء فى حديث **أبى هريرة** الذى نحن بصدد شرحه قوله ﷺ «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها».

وفى حديث **أبى سعيد** الذى نحن بصدد شرحه أيضًا قوله ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا شبرًا».

وهنا نتسائل: هل اللفظ على ظاهره وأن الأمة ستتشبه كلها بالكفار؟.

والجواب: إن النصوص الأخرى هى التى تحدد ذلك، فالآيات والأحاديث يبين بعضها بعضًا. وعندنا فى هذا الموضوع الأحاديث الآتية:

* حديث معاوية بن أبى سفيان قال «سمعت النبى ﷺ يقول: لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم مَنْ كذبهم، ولا مَنْ خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»[1].

* وحديث شداد بن أوس «أن رسول الله ﷺ قال: لَيَحْملن شرار هذه

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وهو مشروح فى هذا الكتاب فى فصل «الإخبار بالطائفة المنصورة فى كل زمان» ص ٩٢.

الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم من أهل الكتاب حذو القذة بالقذة»[١].

إن حديث معاوية يبين أن الطائفة الملتزمة بدين الله موجودة إلى قيام الساعة. وهذه الطائفة لا تتشبه بالكفار، مما يخصص حديثى الباب، ويبين أن الذين سيتشبهون إنما هم بعض الأمة، أما حديث شداد فقد خصص حديث أبى هريرة وحديث أبى سعيد، وتخصيصه قوى فهو من أحاديث هذا الموضوع، فقد بين أن الذين سيتشبهون بالكفار إنما هم شرار هذه الأمة، وإنما جاء التعبير فى حديث أبى هريرة وحديث أبى سعيد عامًا ليفيد أن التشبه سيقع من كثيرين.

ومع حديث معاوية أحاديث أخرى، منها:

* قوله ﷺ: «إن الله تعالى قد أجار أمتى من أن تجتمع على ضلالة»[٢].

* وقوله ﷺ: «لا يزال الله يغرس فى هذا الدين غرسًا يستعملهم فى طاعته»[٣].

وهذان الحديثان يفيدان أن الأمة لا يمكن أن تتشبه جميعها بالكفار، وإنما سيظل الكثير منها على الهدى الإسلامى، وأن الله سبحانه يؤيد الإسلام بأناس يوفقهم لنصرة هذا الدين.

---

(١) أخرجه المروزى فى السنة ص١٩ رقم ٤٩. وجود محققه إسناده.

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ١/ ٤١ ومعه أحاديث أخرى تشهد له، وذكره الكتانى فى نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص١٠٤ رقم ١٧٩. وراجعه فى كتابى «المدخل إلى السنة النبوية» فى خصائص الخبر الشرعى ص٣٠٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب اتباع سنة رسول الله ﷺ ١/ ٥ رقم ٨ وأحمد ٢٩/ ٣٢٥ رقم ١٧٧٨٧ وحسن محققه إسناده.

وهكذا تتضافر النصوص على أن بعض الأمة سيتشبه بالكفار، أولئك شرار الأمة. أما البعض الآخر فهم الأتقياء الأصفياء، وهؤلاء على هدى رسول الله ﷺ، ولا يقع منهم تشبه بغير القرآن والسنة.

• ما يمنع من التشبه:

وكما جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالنهى عن التشبه بالكفار، جاءت أيضًا بتفنيد أسباب التشبه، وبينت أنه لا يأتى بخير، وإنما يؤدى إلى كل شر، من ذلك:

١ ـ الكفار لا يعتمد عليهم:

* قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

نهى الله المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، وبين أن من والاهم كان منهم، ثم أعقب سبحانه وتعالى ذلك بتفنيد سبب الموالاة والتى تنشأ من التشبه، أو يلازمها التشبه:

فقال سبحانه: ﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾[2].

والمعنى: فواضح أمامك يا محمد، وأمام كل مؤمن صادق أن ضعاف الإيمان يحرصون على إرضاء اليهود والنصارى متعللين بأنهم قد تصيبهم

(١) سورة المائدة: ٥١.

(٢) سورة المائدة: ٥٢.

مصيبة فى المال أو النفس فينتفعون بمصاحبة هؤلاء اليهود والنصارى. وهذا لا خير فيه، فإن الله ناصر دينه وأولياءه، وهؤلاء المترددون سيندمون على ولائهم لغير المؤمنين.

يبين الله سبحانه أن ضعاف الإيمان ممن لا يتوكلون على الله يحرصون على موالاة اليهود والنصارى خوف أن تحل بهم أزمة، فإذا حدث ذلك استعانوا بهؤلاء اليهود والنصارى على أزمتهم. والله هو الرزاق وهو الناصر لأوليائه، وهو سبحانه الذى يزلزل أعداءه، فلا تهتموا أيها المؤمنون بفكر المنافقين هذا، وكونوا واثقين بالله سبحانه وتعالى.

٢ ـ المؤمنون وليهم الله:

* ويقول سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ (١).

إنه سبحانه يأمر المؤمنين بإبعاد المشركين عن الحرم، معللاً ذلك بأنهم نجس، وفى هذا قطع الصلة بين المؤمن والكافر، ثم بين سبحانه أن هذه القطيعة لن تؤثر على أحوال المؤمنين المالية، فهو سبحانه يغنى عباده، ولا يصح أن يخافوا العيلة أى الفقر، فبمشيئته سبحانه وتفضله يغنى المؤمنين ويعزهم، وما عليهم إلا أن يلتزموا شرعه سبحانه من الطاعة وبذل السبب، إن فتح البلاد للكافرين، أو الذهاب إلى بلاد الكافرين لن يغنى، وإنما الله الرزاق هو الذى يغنى، فلقد منَّ على المؤمنين بالكثير من الثروات والأرزاق، أما الكفار فلا خير يرجى منهم، وإنما يسلبون ما فى بلاد المسلمين وما فى أيديهم من خيرات.

---

(١) سورة التوبة: ٢٨.

وهكذا بينت الآية الكريمة أنه لا يصح أن يُخشى شأن الكافرين، وإنما يتوكل المؤمنون على الله، فهو سبحانه ناصر أولياءه.

٣ ـ التشبه خسارة:

* وقوله سبحانه مخاطبًا المنافقين: ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [1].

و«الخلاق» الحظ الدنيوى من الشهوات. و«الخوض» الدخول فى الباطل.

والمعنى: إنكم معشر المنافقين أشبهتم الكفرة من قبلكم، كانوا أشد منكم فى صحتهم وأكثر أموالاً وأولادًا، إنهم استمتعوا بالماديات وشغلتهم الشهوات فاشبهتموهم فى ذلك، وساروا فى الباطل فأشبهتموهم فى ذلك، وكل من كان كذلك فلا نفع لعمله الذى كان يرجو نفعه، لا نفع لعمله فى الدنيا ولا فى الآخرة، وهو خاسر كل الخسارة.

هكذا بينت الآية الكريمة أن التشبه بالكفار إنما هو من شأن المنافقين، وأنه يؤدى إلى الغرق فى الشهوات والشبهات، وهما أساس ضياع الدين والخسران التام. وبهذا يظهر أن التشبه بالكفار خسارة، بل كله خسارة.

● وهذه الآية جمعت بين التحذير من التشبه بالكفار فى الاستمتاع بالشهوات والتحذير من التشبه بهم فى اتباع الشهوات، وهناك آيات كثيرة

---

(١) سورة التوبة: ٦٩.

حذرت من هذا ومن هذا.

وجاء فى السنة أحاديث فى ذلك، منها:

* حديث عمرو بن عوف «أن رسول الله ﷺ قال: والله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[1].

يحذرنا ﷺ من الاستكثار من الدنيا.

وهكذا تفند الآيات والأحاديث دوافع التشبه بالكفار:

* وأنه لا يليق بالمسلمين أن يتشبهوا بالكفار تقربًا إليهم ورجاء ما عندهم من خير، فلا خير يرجى منهم.

* ولا يصح أن يتشبهوا بهم توددًا إليهم خوف طغيانهم، فالله ناصر أولياءه.

* ولا يصح أن يتشبهوا بهم فالتشبه بهم خسارة فى الدنيا والآخرة.

فليكن المسلم على بصيرة من أن التشبه بهم لا مبرر له. وإنما مخالفتهم هى التى لها الكثير من المبررات.

• منع الكفار من التشبه بالمسلمين:

وكما منع الإسلام المسلمين من التشبه بالكفار، فإنه أيضًا منع الكفار من التشبه بالمسلمين.

إن الإسلام يحرص على أن تكون للمسلم هيئته المميزة، لا يتشبه بغيره، ولا يتشبه غيره به.

(١) أخرجه البخارى فى المغازى باب بعد باب شهود الملائكة بدرا ٧/٣١٩ وأخرجه مسلم رقم ٢٩٦١، وقد تقدم فى الجزء الأول باب الإخبار عن كثرة الماديات والتنافس فيها ص٢١٥.

على هذا أجمع علماء الأمة، وقد جاء فى كتاب نصارى الشام لعمر أنهم اشترطوا للمسلمين على أنفسهم: وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا جلوسًا، ولا نتشبه بهم فى شىء من لباسهم، من قلنسوة ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نتكنى بكناهم[١] .. إلخ.

ودخل ناس من بنى تغلب على عمر بن عبد العزيز عليهم العمائم كهيئة العرب. فقالوا: يا أمير المؤمنين ألحقنا بالعرب. قال: فمن أنتم؟ قالوا: نحن بنو تغلب. قال: أولستم من أوسط العرب؟ قالوا: نحن نصارى. قال: علىّ بجلم[٢] فأخذ من نواصيهم[٣]، وألقى العمائم[٤]، وشق رداء كل واحد شبرًا يحتزم به، وقال: لا تركبوا السروج[٥]، واركبوا على الأكف[٦]، ودلوا رجليكم من شق واحد[٧].

هكذا يُمنع الكفار من التشبه بالمسلمين، فما كان مَعْلَمًا من هيئة المسلمين فلا يصح أن يتشبه الكفار بهم فيه، فإن تشبهوا منعهم المسلمون من ذلك ما استطاعوا.

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى كتاب الجزية باب الإمام يكتب كتاب الصلح على الجزية ٩/ ٢٠٢.

(٢) أى: ائتونى بجلم وهو آلة يجز بها الشعر، كالمقص.

(٣) مقدمة شعر الرأس، قص شيئًا منها علامة لغير المسلم.

(٤) أخذها من على رءوسهم لأنها لباس المسلمين.

(٥، ٦) السروج: جمع سراج. والأكف: جمع إكاف. والسراج والإكاف كلاهما شىء يوضع على ظهر الدابة. إلا أن السراج أفخم من الإكاف وأكثر منه رفاهية.

(٧) يعنى: إذا ركبوا دابة فعليهم أن يجعلوا الراكب منهم رجليه فى ناحية واحدة من الدابة. وهذا الأثر ساقه فى اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٣٢٨، ٣٢٩، وعزاه لأبى الشيخ الأصبهانى. وراجع أحكام الذمة لابن القيم ٢/ ٧٤٢. وراجع مصنف عبد الرزاق رقم ١٠٠٠٤ و ١٩٢٣٥.

• النهى عن التشبه بالفاسقين:

وحرم الإسلام التشبه بالفاسقين والفاسقات، أصحاب المعاصى الذين لم يلتزموا بأحكام الإسلام. فلا يجوز التشبه بهم فى أى أمر حادوا فيه عن منهج الإسلام، سواء تشبهوا فيه بالكفار، أو ابتدعوه من أنفسهم، كاختلاط النساء بالرجال، وعرى النساء، والاختلاط بالكفار.

لا يجوز أن يتشبه المسلم الحريص على دينه بالمسلم المُضيِّع لدينه كما يُفعل فى المصايف، والقرى السياحية، والحدائق والمتنزهات من أمور لا تتفق مع الإسلام.

ولا يجوز التشبه بالآخرين فى عدم تعلم الدين، ولا فى أنماط التفكير المادى، ولا فى إعلاء العقل على القرآن والسنة.

إن الله حذرنا التشبه بالفاسقين فى قوله سبحانه: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[١].

والمعنى: تمسكوا أيها المؤمنون بتقوى الله تعالى وابتعدوا عن معصيته سبحانه، ولا تتشبهوا بمن خلت قلوبهم من التقوى، فتركوا أوامر الله، فتركهم الله إلى أنفسهم، فغرقوا فى شهواتهم، فكانوا خارجين عن دينه، معذبين فى الدنيا والآخرة.

وحذرنا رسول الله ﷺ ذلك أيضًا فى قوله: «من تشبه بقوم فهو منهم»[٢].

فالمتشبه بالكفار مثلهم، والمتشبه بالفساق مثلهم، وعلى المسلم المتزن ألا يتشبه بهذين، وإنما ليكن عاملاً بالقرآن الكريم والسنة النبوية على

(١) سورة الحشر: ١٩.

(٢) أخرجه أبو داود وأحمد والطبرانى. وهو حديث حسن تقدم هنا ص ٤٧.

علم والتزام.

إن التشبه بالفساق يؤدى إلى نوع من القبول أو المصاحبة، وهذا تضييع للدين.

يقول ﷺ: «. . .ولا يحب رجل قومًا إلا جاء معهم يوم القيامة. . .»[١].

ويقول ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقى»[٢].

إنه ﷺ يحذر من محبة من لا يحب المرء أن يحشر معهم يوم القيامة فلا تحاب بين المسلم والكافر، ولا تحاب بين الصالح والطالح.

ويوصينا ﷺ بمصاحبة المؤمنين، وأن تكون ضيافتنا فى المتقين.

وهكذا لا يجوز التشبه بالفساق زجرًا لهم عما هم عليه من انحراف، وبعدًا عن باطلهم.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

كان رسول الله ﷺ وأهل زمانه على الكتاب والسنة على خير وجه، معتقدين أن ذلك الخير كله، واثقين من أن ذلك سبيل رضا الله تبارك وتعالى.

كان الصحابة وأهل زمانه ﷺ يتتبعون كل ما نزل من القرآن الكريم، فيتعلمون ويعملون، ويتتبعون كل ما كان منه ﷺ، فيتعلمون ويعملون، حتى وصل الأمر أن سألوا عن عبادته ﷺ فى السر، وأرادوا مجاوزة الحد فى العبادة، فهدأهم ﷺ حرصًا على الاستمرارية، ومخافة السآمة.

فى هذا الوقت الذى كانت الأمة مقتدية بالكتاب والسنة تمامًا، لا تقبل

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده ٨/ ٤٩ رقم ٤٥٦٦ و٤٥٦٧ وخرجه وصححه محققه.

(٢) أخرجه ابن حبان ٢/ ٣١٤، ٣١٥، ٣٢٠ رقم ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٦٠ وخرجه وحسنه محققه.

أى شىء من غيرهما، فلا تقلد غيرها، ولا تتشبه بغير أئمتها، فى هذا الوقت يخبر ﷺ أنه سيأتى على أمته زمان يتشبه الكثيرون منها بالأمم الأخرى، حتى فى الحقارات والتفاهات. يقلدونهم فى انحرافاتهم وضلالاتهم ووسائل حياتهم.

يخبر ﷺ بأن تشبه الأمة بالأمم الأخرى سيكون، فيتحقق ذلك فى زماننا تمامًا!!

فالكثيرون من الأمة يتشبه بالأمم الأخرى، يتشبهون بهم فى **علاقتهم بالدين**، يتشبهون بهم فى العمل ببعض الدين دون بعض، واعتبار الدين جمودًا وتأخرًا، واعتبار البعد عن الدين حضارة وتقدمًا، غير مدركين الفارق بين الإسلام والديانات الأخرى، فالديانات الأخرى حرفها أهلها وأضافوا عليها وحذفوا منها، أما الإسلام فهو الدين الخاتم الذى تكفل الله بحفظه، ويقيم به الحجة على الخلق.

والتعليم فى معظمه تَشَبُّهٌ بالأمم الأخرى، وضعوا المناهج التى تحقق ما يريدون من إبعاد الأمة عن الإسلام، وإيقاعها فى الإباحية. تعليم كَثُرَ فيه اللهو وخلا عن دراسة الدين، بل فيه مضادات الدين. تعليم تدرس فيه اللغات الأجنبية أكثر من اللغة العربية. تعليم الملتزم فيه يعتبر جامدًا يعاقب ويشدد عليه، أما الإباحى فيعتبر متنورًا، يكرم ويكافأ!!

وسافر الكثيرون للدراسة فى بلاد الكفر، فجاءوا الأمة بأخلاق الكفرة، وما جاءوا بعلم ولا خبرة، وخصصت لهم المناصب يقودون البلاد بفكر لا يتفق مع الإسلام.

وأنشئت فى بلاد المسلمين جامعات أجنبية ولاء طلابها لغير بلاد المسلمين، وإنما للدولة المنشئة للجامعة، وغُذُّوا بما جعلهم يحتقرون بلادهم ويعظمون دولاً أخرى!!

لقد تشبه الكثيرون من الأمة بالأمم الأخرى فى المخالفات الدينية!! من تعاطى المسكرات وتناول الأطعمة المحرمة، مع الإسراف والترف. وشاع بين الكثيرين الربا والزنا، وفد إليهم من الأمم الأخرى.

وتشبه الكثيرون بالأمم الأخرى فى **أصول الحياة**، فتشبهنا بهم فى الاقتصاد، نسير على نظرياتهم، ونستعين بخبرائهم، ولازلنا نتشبه مع أن ذلك ما أفاد!

وتشبهنا بهم فى العسكرية، فى الخطط، والتدريب، والأجهزة، والأسلحة من صنعهم، ولا نأخذها إلا برأيهم!!

وتشبهنا بهم فى الزراعة والصناعة، حتى الطعام والشراب وها هى شركات مطاعمهم تصنع الأطعمة للمسلمين!!

وتشبه الكثيرون بالأمم الأخرى فى **عالم المرأة**، تشبهوا بهم فى الاختلاط والعرى، وتشبهت المسلمة فى ملابسها، وحركتها وتزينها بغير المسلمات، وأصبحت لا تفكر فى منهج الإسلام، وإنما قدوتها نساء الأمم الأخرى، فوصلت شعرها مثلهن، وقشرت جلدها، وتشبهت بهن فى الفراش والمطبخ، والخروج، والمصايف، والمسارح، مما أحدث خللاً عظيمًا فى الأمة.

وتشبه كثيرون بالأمم الأخرى فى **عالم اللهو**، فكثرت أماكن اللهو مع الخلو من الخلق والدين، وكثرت أجهزة اللهو، تستوردها الأمة، بل تستورد أعمال اللهو، ثم جاءت ثورة الاتصالات ما بين قنوات فضائية، وإنترنت، وفيديو فقربت للمتشبهين بالكفار لهو الكفار.

وتشبه كثيرون بالأمم الأخرى فى **أشكال الحياة**، يحتفلون بأعيادهم كما يحتفلون، ويلبسون كملابسهم، وربما يلبسون ملابسهم بعد أن يرميها

الكفار! ويظهرون بمظهرهم، حتى رسموا بيوتهم كبيوت الكفار، وجلسوا جلسة الكفار، ومستشفياتنا كمستشفياتهم - البنت تمرض الرجال حتى فى أقسام المسالك البولية، والتناسلية، والرجل يعالج النساء مع كثرة المتخرجات فى الطب - والدواء من شركاتهم، والعلاج مختوم بتصريحهم، وكأنه لا فكر إلا لهم.

وتشبهنا بهم فى إنشاء دور المسنين، وكل عائلة أولى بآبائها وأمهاتها، حتى تجتمع قوة الشباب وخبرة الشيوخ.

وتشبهنا بهم فى حضانات الأطفال، والطفل محتاج لحنو أمه، لا لقهر المربية (الدادة) تلك المعاملة التى تدمر نفسية الصغار.

وتشبهنا بهم فى عمل المرأة، وهجرها المنزل، مما أثر فى النفسيات سلبًا خطيرًا.

وغالت الأمة فى التشبه بالغير، حتى صارت تستورد منهم الكثير والكثير، تشبها بهم فى الحياة، وهذا جلب على الأمة الفقر والذل.

وزادت الأمة فى التشبه فأنتج ولاء بين كثير من المسلمين والكفار، فاتخذوا منهم المستشارين والأمناء، وأشركناهم فى أمورنا مع أن الله نهانا عن ذلك فقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ [١].

لقد عم التشبه بهم الحياة حتى أصبح الملتزمون غرباء، فمنهج الأمة لا يتفق مع منهجهم النابع من الكتاب والسنة، ومسالك الأمة لا تتفق مع مسلكهم.

---

(١) سورة آل عمران: ١١٨.

إن ظاهر الحديث برواياته يدل على أن الأمة ستتشبه بالأمم الأخرى فى الكثير والكثير من أمور الحياة، وقد وقع كما أخبر ﷺ، وهذا من أعلام نبوته، وأدلة ثبوت سنته ﷺ.

• الدروس المستفادة من الحديث:

١ ـ فى هذا الحديث يخبرنا رسول الله ﷺ أن كثرة من الأمة ستتشبه بالأمم الأخرى، وهذا الإخبار يحمل فى طياته التحذير من التشبه أيضًا. مما يجعل متوسطى الإيمان يتركون التشبه، ويجعل ضعاف الإيمان يعلمون قبح التشبه. أما أقوياء الإيمان فإنهم بعيدون عن التشبه كل البعد.

٢ ـ فى الحديث معجزة له ﷺ، فقد أخبر أن كثرة من الأمة ستتشبه بالأمم الأخرى، فوقع الأمر كما أخبر. وأخبر أن التشبه سيكون كثيرًا، وفى كل شىء فوقع الأمر كما أخبر، وفى ذلك دليل على صدق نبوته، وصحة سنته ﷺ.

٣ ـ الإسلام منهج كامل للحياة بأسرها، نظم شئونها، وارتقى بالأمة فى مناحيها، وأهله ليسوا بحاجة إلى محاكاة الأمم الأخرى فى خلق أو دين. أما التجريبيات فإنها أفكار تقتبس، ولا يصح أن تستورد كسلع.

٤ ـ على الأمة أن تعتز بدينها، وأن لا تحيد عنه، فهو الحق الذى به تسعد، وبه تعز.

* * *

الإخبار بالطائفة المنصورة فى كل زمان

عن معاوية بن أبى سفيان قال «سمعت النبى ﷺ يقول: لا يزال من أمتى أُمَّةٌ قائمةٌ بأمر الله، لا يضرهم من كذَّبهم، ولا مَنْ خذلهم حتى يأتى أمرُ الله وهم على ذلك».

فقال مالك بن يخامر: سمعت معاذًا يقول وهم بالشام[1].

• المعانى:

«لا يزال من أمتى أمة» أى أنه سيستمر وجود الأمة القائمة بأمر الله، وسيدوم، وستظل جماعة الحق فى كل زمان.

«أمة» أى جماعة، جاء فى رواية جابر عند مسلم «لا تزال طائفة» والطائفة: القطعة من الشيء، والمراد بها هنا: العدد من الناس.

وجاء فى رواية عقبة بن عامر عند مسلم أيضًا «ولا تزال عصابة من المسلمين».

والمعنى: إن جماعة من المسلمين سيتمسكون بالإسلام. هذه الجماعة لم تبين الروايات كثرتها أو قلتها، وإنما أفادت الروايات: أن بعض الأمة هو الذى سيتمسك بالإسلام فى آخر الزمان، يعمل به وينصره، أما البعض الآخر فإنه متخاذل، وفى هذا حث على أن نكون من الأولين الذين يتمسكون بالإسلام وينصرونه.

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد باب قول الله تعالى ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه﴾ ١٣/ ٤٤٢ رقم ٧٤٦٠. ومسلم فى الإمارة باب قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق...» ٤/ ٥٨٤ ط الشعب بشرح النووى.

«قائمة بأمر الله» أمر الله: كل ما أمر به سبحانه، وهو يشمل النواهى بالمقابلة، اكتفى بأحد المتقابلين عن الآخر، وأصل التعبير: قائمة بأمر الله فتفعله، مجتنبة نواهيه سبحانه وتعالى، فتتركها، فاكتفى بأحد المتقابلين عن الآخر.

أى إن هذه الطائفة ملتزمة بكل ما فى الإسلام، فهم علماء، عاملون، مخلصون. يهتمون بنصرة الإسلام، وإظهاره.

وقد جاء فى رواية جابر عند مسلم «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق» أى يدافعون عن الإسلام، ويبذلون النفس والنفيس فى سبيل نصرته.

وفى رواية ثوبان عند مسلم أيضًا «ظاهرين على الحق» أى غالبين غيرهم، ثابتين على الحق.

«لا يضرهم مَنْ كذَّبهم» من الكافرين والمنافقين. فأهل الحق بثباتهم يؤيدهم الله، فلا يستطيع أعداؤهم أن يضروهم.

«ولا مَنْ خذلهم» أى ولا من تخلى عنهم، فلم يعاونهم ولم ينصرهم من المسلمين.

و«مَنْ» فى قوله ﷺ: «لا يضرهم مَنْ كذبهم» اسم موصول يعود على الكافرين والمنافقين.

أما «مَنْ» فى قوله ﷺ «ولا مَنْ خذلهم» فهى أيضًا اسم موصول، لكنه يعود على المسلمين غير الملتزمين بالإسلام. وأفرد ضمير الفاعل فى الموضعين مراعاة للفظ «مَنْ» ولو روعى معنى «مَنْ» لكان التعبير «لا يضرهم مَنْ كذبوهم، ولا مَنْ خذلوهم».

و«الخِذْلان» عدم العَوْن، وعدم النصرة. والمسلمون الذين لا يعتزون

بدينهم يخذلون الفئة الملتزمة، بمعنى: لا يعينونهم، ولا ينصرونهم، إلا أن هذا الموقف السلبى من المسلمين غير الملتزمين، لا يفت فى عضد هذه الفئة الناصرة للإسلام، الحامية له.

إنهم جماعة لا يهزمهم كيد الكافرين والمنافقين، ولا تخاذل بقية المسلمين.

وقد جاء فى حديث عقبة بن عامر «قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم» أى إن هذه الفئة يكونون منصورين على عدوهم من الكافرين والمنافقين ولا يضرهم من خالف منهجهم ممن سواهم، من الكافرين والمنافقين، والمسلمين غير الملتزمين.

«حتى يأتى أمر الله» أى أمره سبحانه بقيام القيامة، كما جاء فى حديث عقبة «حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك» أى إنهم يستمرون متمسكين بالحق إلى آخر زمن الدنيا، إلى أن تبدأ علامات قيام القيامة.

«وهم على ذلك» أى وهم على الحق والإسلام القويم، متمسكين بالإسلام كل التمسك، حريصين عليه كل الحرص، ينصرونه بكل ما أوتوا، حتى تقوم القيامة وهم على نصرة الإسلام. جاء فى حديث المغيرة «حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون».

• راوى الحديث:

معاوية بن أبى سفيان: الصحابى ابن الصحابى، كاتب الوحى للنبى، أبو عبد الرحمن الأموى القرشى.

أبوه: أبو سفيان صخر بن حرب، بن أمية، بن عبد شمس، بن عبد مناف، بن قصى، يلتقى مع رسول الله ﷺ فى عبد مناف بن قصى كان

أبو سفيان من سادات قريش فى الجاهلية، وآلت إليه رئاسة قريش بعد بدر، وكان رئيسًا مطاعًا، ذا مال جزيل.

ولما أسلم أبو سفيان قال: يا نبى الله ثلاث أعطنيهن فقال ﷺ: نعم.

قال: عندى أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبى سفيان أزوجكها. قال: نعم.

قال: ومعاوية تجعله كاتبًا بين يديك. قال: نعم.

قال: وتؤمرنى حتى أقاتل الكفار، كما كنت أقاتل المسلمين. قال: نعم[١].

والمراد بتزويجه أم حبيبة تجديد زواجها، وإلا فلقد كان ﷺ تزوجها قبل ذلك. أسلم أبو سفيان وقت فتح مكة، وحسن إسلامه.

أما معاوية فإنه أسلم قبل فتح مكة، أسلم أيام صلح الحديبية، سنة ست من الهجرة، يتحدث عن نفسه فيقول: لما كان عام الحديبية، وصدوا رسول الله ﷺ عن البيت، وكتبوا بينهم القضية، وقع الإسلام فى قلبى، فذكرت لأمى، فقالت: إياك أن تخالف أباك، فأخفيت إسلامى. فوالله لقد رحل رسول الله ﷺ من الحديبية، وإنى مصدق به. ودخل مكة عام عمرة القضية وأنا مسلم. وعلم أبو سفيان بإسلامى، فقال لى يومًا: لكن أخوك خير منك، وهو على دينى. فقلت: لم آل نفسى خيرًا. وأظهرت إسلامى يوم الفتح. فرحب بى النبى ﷺ وكتبت له[٢].

هكذا شرح الله صدر معاوية للإسلام، فأسلم قبل أن يسلم أهل مكة، واعتز بإسلامه، فلما كان فتح مكة، وأسلم أهل مكة، أتيحت الفرصة لمعاوية ليكون قريبًا من رسول الله ﷺ، وبخاصة أن أخته أم

(١) أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة باب فضائل أبى سفيان ٥/ ٣٧٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ١٢٢.

حبيبة كانت إحدى أمهات المؤمنين، فكان يدخل بيتها، والذى هو أحد بيوت رسول الله ﷺ، وهذا القرب من رسول الله ﷺ أثمر لمعاوية خيرًا كثيرًا، من أهمه:

١ ـ فهمه الإسلام جيدًا فى وقت قصير، فلقد تعلم معاوية من رسول الله ﷺ علمًا كثيرًا، كما تعلم من أخته أم حبيبة، كما تعلم من كبار الصحابة أمثال أبى بكر وعمر. ولقد أتاحت له ملكاته القويمة، ومعارفه الكثيرة، أن يتعلم، وأن يفهم ويستنبط.

● لقد استدرك معاوية على بعض علماء الأمة أمورًا منها:

* قوله «إنكم تصلون صلاة لقد صحبنا النبى ﷺ فما رأيناه يصليها. ولقد نهى عنهما، يعنى الركعتين بعد العصر»[١].

* ولما حج صعد المنبر وتناول خصلة من شعر[٢]، ثم قال أين علماؤكم؟ «سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه، ويقول: إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذا نساؤهم»[٣].

● وله غير ذلك مواقف تدل على فقه وسبق، من ذلك:

* أوتر معاوية بركعة واحدة، فأخبر بعض الناس عبد الله بن عباس فقال لأحدهم: دعه، فإنه قد صحب رسول الله ﷺ[٤]. وقال لآخر: إنه فقيه[٥].

---

(١) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة باب ذكر معاوية رضى الله عنه ٧/١٠٣ رقم ٣٧٦٦.

(٢) تطيل بها النساء شعورهن.

(٣) أخرجه البخارى فى اللباس باب وصل الشعر ١٠/ ٣٧٣ رقم ٥٩٣٢.

(٤) البخارى رقم ٣٧٦٤.

(٥) البخارى رقم ٣٧٦٥.

* وصلى بالناس فقال أبو الدرداء الصحابى الجليل: ما رأيت أحدًا بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا. يعنى معاوية[١].

٢ ـ حظوته بالكتابة لرسول الله ﷺ: فلقد كان أحد الكُتَّاب لرسول الله ﷺ، كتب له من الوحى، وكتب له فى شئون الدولة، وكان هذا أمنية لأبى سفيان كما تقدم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث إلى معاوية ليكتب له فقال إنه يأكل، ثم بعث إليه فقال إنه يأكل فقال رسول الله ﷺ لا أشبع الله بطنه»[٢].

ولقد كان معاوية على دين متين، وخلق كريم، التزم بالإسلام التزام الصادقين، واهتدى بهَدْى رسول الله اتباع المخلصين، ومن أقواله:

* أيها الناس ما أنا بخيركم، وإن منكم لمن هو خير منى، عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما من الأفاضل، ولكن عسى أن أكون أنفعكم ولاية، وأنكاكم فى عدوكم[٣]، وأدرَّكم حلبًا[٤]».

وقال عبد الملك بن مروان ـ وذكر معاوية ـ فقال: ما رأيت مثله فى حلمه واحتماله وكرمه[٥].

وقال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحدًا أعظم حلمًا، ولا أكثر سؤددًا، ولا أبعد أناة، ولا ألين مخرجًا، ولا أرحب باعًا بالمعروف من معاوية[٦].

(١) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير قيس بن الحارث المذحجى، وهو ثقة. مجمع ٩/ ٣٥٧.
(٢) أخرجه الطيالسى ٤/ ٤٦٤ رقم ٢٨٦٩. ومسلم فى البر والصلة باب من لعنه النبى ﷺ أو سبه. . ٥/ ٤٦٢ رقم ٩٤.
(٣) أى أشدكم نكاية وفتكا بعدوكم.
(٤) أى وأكثركم عطاء وكرما. . وراجع البداية ٨/ ١٤٥.
(٥، ٦) البداية ٨/ ١٤٧.

كان معاوية يعرف للصحابة قدرهم، وكان يعرف قدر الأمة وحقها، وكان يعرف قدر علىٍّ بن أبى طالب، فى علمه وفقهه ومنزلته.

وكان معاوية قائدًا مقدامًا، ومجاهدًا مغوارًا، فتح الكثير من بلاد الروم أثناء إمرته على الشام، ولما دب الخلاف بينه وبين على بن أبى طالب طمع ملك الروم فى معاوية، وتدانى إلى بعض البلاد فى جنود عظيمة، وطمع فى بلاد المسلمين فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمى عليك، ولأخرجنك من جميع بلادك، ولأضيقن عليك الأرض بما رحبت.

فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف، وبعث يطلب الهدنة.

واصطلح الحسن بن على ومعاوية، وذلك فى سنة إحدى وأربعين، فاجتهد فى الفتوحات، وعلت كلمة الإسلام.

مات معاوية فى رجب سنة ستين من الهجرة، رضى الله عنه وأرضاه[1].

• شرح الحديث:

* الأمم قبل الإسلام:

فهم المسلمون من أول الدعوة سنة الله تعالى فى الخلق، وأن كثيرًا من الأمم قبل الإسلام قد فنيت، وأن كثيرًا من أهل الديانات قبل الإسلام قد أهلكوا:

---

(١) مصادر ترجمته: سير أعلام النبلاء ٣/ ١١٩ ـ ١٦٢ والبداية والنهاية ٨/ ١٢٧، وفى السير كثير من مصادر ترجمته.

فأين عاد ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [١] هؤلاء الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [٢]؟.

وأين ثمود أصحاب الحضارات والعمارات، وأصحاب البساتين والزراعات؟.

وأين الفراعنة أصحاب العلوم والمهارات، وأصحاب الحكم والقيادات؟.

أمم قد راحت، وجماعات قد فنيت.

والقرآن الكريم يحدثنا عن ذلك، يحدثنا عن أمم سابقة كانت آية فى قوتها وبطشها، ومع ذلك فنيت:

* يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ [٣].

* ويقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ

(١) سورة الفجر: ٨.

(٢) سورة فصلت: ١٥.

(٣) سورة فصلت: ١٥، ١٦.

﴿١٥٣﴾ ما أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [١].

* ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [٢].

أمم فنيت وأهلكت، لأنهم كذبوا رسل الله، وعاثوا فى الأرض فسادًا!!

*** أمم قلَّ الخير فيهم أو انعدم:**

فها هو مؤمن آل فرعون، رجل واحد فى أمة، لا يستطيع أن يعلن إيمانه، وفرعون وأشياعه يجمعون الرأى على قتل موسى وأتباعه، فلا يستطيع هذا المؤمن إلا أن يبدى رأيه:

* يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [٣].

وها هو لوط يرجو أن يكون فى أمته رجل واحد رشيد فلا يجده!! حتى يقول لقومه كما أخبر الله عنه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ

---

(١) سورة الشعراء: ١٤١ ـ ١٥٨.

(٢) سورة الفجر: ٦ ـ ١٤.

(٣) سورة غافر: ٢٨ واقرأ فى هذه السورة من آية ٢٣ إلى آية ٤٥.

منكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ (١).

فهم المسلمون هذه السنة الكونية لله سبحانه وتعالى، وأن الله سبحانه يهلك المكذبين الجاحدين. ومن هنا ابتعد المسلمون عن هذا المسلك، وساروا على مسلك الصالحين المتقين:

*** أمة الإسلام:**

عرف المسلمون الأوائل سبيل النجاة والنجاح، سبيل رضوان الله ومحبته، وساروا عليه والتزموه، وبكل دقة وصدق عملوا بكتاب الله، وبسنة رسول الله ﷺ.

وكم من آيات فى القرآن الكريم تحثهم على ذلك، وهم بالقرآن يعملون.

وكم من أحاديث لرسول الله ﷺ تدعوهم لذلك، وهم به ﷺ يقتدون.

*** كان المنهج واضحًا:**

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ (٢).

ومعرفة الأمة بسنة الله الكونية، وأنه سبحانه يهلك الجاحدين. جعلهم يلتزمون هُدى الله سبحانه وتعالى. وجعلهم أيضًا يتساءلون عن مستقبل

(١) سورة هود: ٧٨.

(٢) سورة طه: ١٢٣ ـ ١٢٧.

أمتهم، فهل يا ترى سيحدث لهذه الأمة ما حدث لغيرها، ويبين ﷺ ما سيحدث للأمة من انحرافات، ويحذر وينذر، إلا أنه لن يشملها الانحراف، ولن تنجرف كلها، وإنما سيظل فريق منها على الحق، كما فى هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه، والذى فى إحدى رواياته: «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»[1].

لقد بين ﷺ فى هذا الحديث أن هذه الأمة لن تهلك، ولن تتخلى عن الإسلام، وإنما سيظل منها من هم على الحق، ينصرهم الله عز وجل باتباعهم الحق، ويؤيدهم بأنهم أولياؤه سبحانه وتعالى.

إنهم الطائفة المنصورة، وهنا تظهر عدة تساؤلات عن هذه الطائفة:

فما خصائص هذه الطائفة؟

ومن هم؟

وكم عددهم؟

وأين يكون مكانهم؟

وإلى متى يستمرون؟

إن جميع روايات هذا الحديث وما فى موضوعه يجيب عن هذه التساؤلات:

• خصائص الطائفة المنصورة:

١ ـ قائمة بأمر الله:

جاء فى نص الحديث الذى نشرحه «لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله».

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٥٨٣ رقم ١٦٩.

وفى حديث جابر بن سمرة: لن يبرح هذا الدين قائمًا[١].

ومن هذا يتضح أن هذه الطائفة إنما هم يحافظون على أوامر الله تعالى فيفعلونها، ويحافظون على نواهيه سبحانه وتعالى فيجتنبونها، وهذا يقتضى أنهم جمعوا بين ثلاث صفات:

أ ـ علماء بالقرآن والسنة: يتعلمونهما، ويفهمونهما فهمًا صحيحًا، يأخذون منهما عقيدتهم وكل دينهم، يترسمون خطى العلماء الأماثل من الأمة. ويدرسون أسلم السبل للفهم، وأدق المناهج للعمل. رائدهم قول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[٢].

ب ـ عاملون بالقرآن والسنة: فهم يتعلمون ويعملون، يريدون دين الله كما بلّغ رسولُ الله، ويريدون هدى رسول الله، الذى كان عليه ﷺ.

يعلمون أن العلم فى الإسلام إنما هو للعمل، ومن هنا فبكل ما يتعلمون يعملون، لا يحيدون عن ذلك.

ويعلمون أن الإسلام إنما هو من القرآن والسنة.

جـ ـ دعاة إلى الله: فهم يعلمون أن كل مسلم عليه أن يدعو إلى الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾[٣]. يعلمون أن كل مسلم عليه أن يجتهد فى النصح، والأخذ بيد الآخرين إلى الاستقامة على دين الله تعالى، كما قال ﷺ: «الدين النصيحة. قال الصحابة: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»[٤].

---

(١) عند مسلم.

(٢) سورة فاطر:٢٨.

(٣) سورة يوسف:١٠٨.

(٤) أخرجه مسلم.

ومجمل القول أن هذه الطائفة المنصورة علماء عاملون، ودعاة مخلصون. أمرهم الإسلام بطلب العلم فتعلموا، وأمرهم بالعمل فعملوا، وأمرهم بالدعوة إلى الله فاجتهدوا فى ذلك.

٢ ـ حماة الإسلام:

أما الخصيصة الثانية للطائفة المنصورة فهى أنهم يحمون الإسلام، وينصرونه كما جاء فى وصفهم فى روايات الحديث الذى نحن بصدد شرحه: «يقاتلون على الحق»[١].

وفى رواية: «يقاتلون على أمر الله»[٢].

وفى رواية: لن يبرح هذا الدين قائمًا يقاتل عليه عصابة من المسلمين»[٣].

وهذا يوضح أن هذه الطائفة يحمون الإسلام، حتى ولو اقتضى الأمر قتالاً. إنهم يحمون الإسلام من كل أعدائه، فلا يقبلون أن يُغَيَّر، ولا أن يبدل، ولا أن يظلم، وإنما يحرصون على أن ينتشر وينتصر.

إنهم ينصرون الإسلام بكل وسائل النصر:

* ينصرونه بجهدهم، بنشر العلم والعمل، بالتبليغ والدعوة، بدفع الأباطيل عنه، ورد الافتراءات التى تفترى عليه.

يعملون جاهدين على إبراز محاسنه، وإظهار حاجة البشرية إليه.

* وينصرونه بأموالهم؛ ينفقونها على أعمال الخير، ونشر علوم

---

(١) فى حديث جابر بن عبد الله ومعاوية عند مسلم.

(٢) كما فى حديث عقبة بن عامر عند مسلم.

(٣) كما فى حديث جابر بن سمرة عند مسلم.

الإسلام، يعملون على قوة الأمة فى كل مجال من مجالات الحياة، ويحرصون على عزتها واستغنائها عن الغير.

* وينصرونه بأرواحهم؛ فإذا اقتضى الأمر جهادًا، جادوا بأرواحهم، يبذلونها فى سبيل الله، يأمرهم القرآن بذلك، وهم به عاملون.

إنهم يحمون الإسلام من كل ما يضر، ويوفرون له كل ما يسر: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾**[1].

٣ ـ لا يؤثر فيهم كيد أعدائهم ولا سلبية العصاة:

ووصف رسول الله ﷺ الطائفة المنصورة بأنهم «لا يضرهم من كذبهم ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»[2].

وهذا يبين أن هناك من البشر من سيقفون فى طريق هذه الطائفة، يحيلون بينها وبين تحقيق أغراضها، وهذا النوع من البشر صنفان:

الصنف الأول: قوى الكفر والنفاق، أعداء الإسلام، المكذبين به، الصادين الناس عنه بكل ما أوتوا.

هذا الصنف بكل جماعاته، مُعَادٍ للطائفة المنصورة، وعدو لدود لهم، اجتمعت جحافله على عداوة هذه الطائفة، واستماتت جموعه فى إيذائهم، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾**[3].

إن هذه القوى اجتمعت وأعدت العدة لضرب الطائفة المنصورة، إلا أن

---

(١) سورة محمد: ٧.

(٢) كما فى نص الحديث الذى نشرحه.

(٣) سورة الأنفال: ٣٦.

الطائفة المنصورة قد فهمت حقيقة الموقف، والذى يتلخص فى أمرين:

١ ـ أن الكفر يُضْمِر للمسلمين كل شر، ولا يدخر وسعًا فى القضاء على الإسلام والمسلمين، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (١).

٢ ـ أن المسلمين إذا استقاموا على دين الله فلن يضرهم كيد كائد، ولهم وعد الله بالنصر على عدوهم مهما كان: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٢).

وبمعرفة الطائفة المنصورة هذين الأمرين، استفادتهما من القرآن والسنة، تكون قد عرفت:

* حقيقة الموقف، وعداء الكفر للإسلام، وأن على المسلمين أن يتعاملوا مع الكفر فى ضوء ذلك.

* طريق النصر، وأنه بالاستقامة على الكتاب والسنة.

ومن هنا فإن تآمر الكفر على هذه الطائفة لا يضعفها، ولا يخيفها، وإنما يجعلها أقوى وأقوى، إذ تجد تصديق ما أخبر به القرآن، وما أخبر به رسول الله ﷺ.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٣).

---

(١) سورة البقرة: ٢١٧.

(٢) سورة آل عمران: ١٢٠.

(٣) سورة آل عمران: ١٧٣، ١٧٤.

ولقد بشّر رسول الله ﷺ هذه الطائفة المنصورة، أعنى جماعة المسلمين الملتزمين، بشرهم ﷺ بأن موقف الكفر منهم لن يضرهم، وذلك فى قوله ﷺ فى هذا الحديث: «لا يضرهم من كذبهم» إن المكذبين للمسلمين الصادقين إنما هم الكافرون والمنافقون، ومهما كاد هؤلاء للمسلمين، فإنهم لن يضروا المسلمين.

وتصديق ذلك فى كتاب الله تعالى، إذ يقول سبحانه: **﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾** [١].

وفى هذا بشارتان للمسلمين الصادقين، فالكفار لن يضروا المؤمنين ضررًا يؤثر على كيان أمة الإسلام، وإنما إن ضروهم، فإنما يضرونهم ضررًا لا يؤبه به، كأن يؤذوهم بألسنتهم، أو يحاولوا إشاعة اللهو بينهم، أما أن ينالوا من كيان أمة الإسلام، ويضروا الأمة فى ذلك، فإنهم لا يستطيعون ذلك، فإن الإسلام يجعلها أقوى من ذلك وأحصن.

أما البشارة الثانية فهى: إذا التقى الجيشان جيش الإسلام وجيش الكفر، فإن جيش الكفر يولى مدبرًا منهزمًا، ولا نصر له بعد ذلك **﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾** [٢].

وهذه البشارات من القرآن والسنة تطمئن أهل الإسلام، وتبين للملتزمين أنهم أقوى من كيد هذا الصنف من أعدائهم، أعنى أقوى من جحافل الكفر وجماعات النفاق **﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [٣].

وأما الصنف الثاني: من الصنفين اللذين يقفان أمام الطائفة المنصورة،

---

(١) سورة آل عمران: ١١١.

(٢) تقدمت هذه الآية، وهى من سورة آل عمران رقم ١١١.

(٣) سورة البقرة: ١٣٧.

فهم: المسلمون غير الملتزمين، وعدم التزام هؤلاء مرده إلى أحد أمرين:

١ ـ عدم التفقه فى الدين. فهم لا يعرفون أصول الإسلام، ولا يدركون قدره.

٢ ـ غلبة شهواتهم لهم، حتى اجتالتهم عن الصراط المستقيم.

وهذا الصنف لم يقل رسول الله ﷺ إنهم سيكذبون الطائفة المنصورة، ولم يقل إنهم سيحاربونها، وإنما بيّن ﷺ أن هؤلاء المسلمين الذين هم غير ملتزمين بالإسلام، هؤلاء سيخذلون الطائفة المنصورة!!.

إن المسلمين الذين لم يعرفوا حدود الإسلام، ولم يلتزموا به سيتخلون عن جماعة الملتزمين، ولن يقفوا معهم لنصرة الإسلام!!.

إن موقف غير الملتزمين موقف سلبى، يرون أن نصرة الإسلام إنما تكون من الملتزمين، وأن تحمل مشاق الدفاع عن الإسلام إنما هى خاصة بالملتزمين، يرون أن الإسلام مسئولية الملتزمين أما هم فلا مسئولية عليهم!!.

ومن هنا فإذا جد الجد، وحدثت مواقف الحسم، فإن غير الملتزمين بموقفهم السلبى هذا إنما هم يخذلون إخوانهم الملتزمين، ويتركونهم دون تعاون وتأييد، مما قد يعرضهم للشدائد والمحن.

وفى هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه يبشر ﷺ المسلمين عمومًا، الطائفة الملتزمة وغيرها، يبشرهم أن تثاقل غير الملتزمين عن نصرة الملتزمين لن يضر الملتزمين، وإنما سينصرهم الله، ويثبت أقدامهم.

وفى هذا حث لكل مسلم أن يحرص على أن يكون من أهل التمسك بالإسلام، فيتعلم ويعمل، ويُعَلِّم، وينصر دين الله تعالى بكل ما أوتى، وفيه تطمين للملتزمين بأن الله ناصرهم، فالله تعالى ناصر أولياءه، كما

قال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [١].

إن الطائفة المنصورة قد علمت من نصوص الإسلام أن كثرة الكفار والمنافقين لا تضرهم، وأن تخاذل المسلمين غير الملتزمين أيضًا لا يضرهم، وإنما الذى يضرهم المعاصى، ومن هنا فإنهم لا يهابون أعداءهم، ولا يضعفون لتخاذل بنى دينهم، وإنما يتقون الله تعالى، ويتوكلون عليه سبحانه وتعالى، وهذا يقتضى استقامتهم على دين الله، وإعداد ما أمكنهم من العدة، وبعد ذلك هم مطمئنون لنصر الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٢].

٤ ـ منتصرون على أعدائهم:

ولم تقف البشارة للطائفة المنصورة عند حد أنهم «لا يضرهم من كذبهم ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك» لم تقف البشارة عند حد أنهم لا يضرهم كيد الكافرين، والمنافقين، وتخاذل عصاة المسلمين. وإنما تعدت ذلك فبين ﷺ أن هذه الطائفة ستكون قاهرة لأعدائها، منتصرة على من عاداها.

فيصف رسول الله ﷺ هذه الطائفة بـ «قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»[٣].

---

(١) سورة الحج: ٤٠، ٤١.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٩.

(٣) حديث عقبة بن عامر عند مسلم.

ويصفهم ﷺ بـ: «ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة»[١].

ويصفهم ﷺ بـ: «لا تزال طائفة من أمتى منصورين، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة»[٢].

وهذا يوضح أن هذه الطائفة المتمسكة بالإسلام، الملتزمة به، هى طائفة منصورة على أعدائها، بل إنها ستظل منصورة إلى قيام الساعة.

وهذا يقتضى أنهم متصفون بصفات المنصورين، وهى:

* أنهم قوة قوية، لهم خبرة بالجهاد ودربة، علّمهم الإسلام منزلة الجهاد فتفننوا فى أساليبه. وعلمهم الإسلام أسباب القوة فتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ.

* إنهم مجتمع متكامل، فيهم العالم، وفيهم التاجر، وفيهم الصانع، وهم جميعًا متعبدون مجاهدون.

* إنهم أمة متكاملة «لا تعتمد على غيرها، وإنما تعتمد على نفسها فى كل شئونها، وهذا مبعثه:

* قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٣].

* وقول رسول الله ﷺ: «لن أستعين بمشرك»[٤] قالها ﷺ لرجل مشرك، أراد أن ينضم لجيش المسلمين، فرفض ذلك رسول الله ﷺ.

---

(١) حديث معاوية عند مسلم.

(٢) أخرجه الطيالسى ٢/٤٠٢ رقم ١١٧٢ وخرجه محققه وصححه.

(٣) سورة الأنفال: ٦٠.

(٤) أخرجه مسلم فى آخر الجهاد ٣/١٤٤٩ رقم ١٨١٧.

* إنهم جماعة مستقيمة على دين الله تعالى، ومن كان كذلك أعزه الله ونصره، كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

* إنهم ملتزمون بالإسلام، وفي الإسلام كل أسباب النصر والعزة، ومن ثم فهم منصورون مؤيَّدُون من الله تعالى.

علموا صفات حزب الله فتخلقوا بها، وعلموا صفات حزب الشيطان فابتعدوا عنها، ووصل بهم ذلك إلى أعلى مراتب الجد والاستقامة. وهذا سبيل النصر والعزة.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۝٥٦ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢).

● هذه خصائص الطائفة المنصورة، ذكرتها بإيجاز، أقصد بذلك أن أُذكِّر، والذكرى تنفع المؤمنين، فمن جمع هذه الخصائص وما يستلزمها فهو من الطائفة المنصورة، أسأل الله أن يثبتنا على الحق، وأن يجعلنا من حزب الله، وأن يجعلنا ممن ينصر دين الله سبحانه وتعالى.

(١) سورة الروم: ٤٧.

(٢) سورة المائدة: ٥٥ ـ ٥٧.

• من هم الطائفة المنصورة؟

خصائص الطائفة المنصورة صفات لها، اختصت هذه الطائفة باجتماع هذه الصفات فى أفرادها، مما جعل هذه الصفات مجتمعة خصائص لهذه الطائفة.

وإنى وقد ذكرت هذه الخصائص فإنى أجدنى حريصًا على تحديد هذه الطائفة أكثر وأكثر، ومبعث ذلك أن كل مسلم يود أن يكون من هذه الطائفة.

وأقوال الأئمة فى تحديد هذه الطائفة كثيرة، أوجزها فيما يلى:

• هم الطائفة المذكورة فى قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[1].

قال بذلك عدد من الصحابة، منهم: أبو سعيد الخدرى، وأبو هريرة، ومعاوية، وجابر، وسلمة بن نفيل، وقرة بن إياس.

والمعنى: أنها الطائفة التى استقامت على الدين خير استقامة.

وبتعبير آخر: هم الطائفة التى فهمت الإسلام فهمًا صحيحًا، وعملت بذلك، ودعت إليه.

• هم العلماء بالإسلام، الذين يتبعون الكتاب والسنة.

وبتعبير آخر: هم الذين فهموا الإسلام بعمق، واتبعوه بدقة.

* قال بذلك عبد الله بن المبارك أحد علماء الأمة الأفذاذ، وأحد أعلام الجهاد «توفى ١٨١» قال: هم عندى أصحاب الحديث[2].

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) شرف أصحاب الحديث ص٢٦ فقرة ٤٧.

* وقال به أيضًا يزيد بن هارون المتوفى ٢٠٦ قال بعد أن حدث بهذا الحديث: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدرى من هم[١].

* وبه قال أيضًا على بن المدينى أحد شيوخ البخارى، المتوفى ٢٣٤، قال: هم أصحاب الحديث[٢].

* وبه قال الإمام أحمد بن حنبل أيضًا، قال: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدرى من هم[٣].

* قال القاضى عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث[٤].

* وبه قال الإمام البخارى، أجل علماء الأمة فى جمع صحيح السنة، المتوفى ٢٥٦ قال هم أهل العلم[٥]، وقال: يعنى أصحاب الحديث[٦].

* وبه قال أحمد بن سنان المتوفى ٢٥٦ قال: هم أهل العلم، وأصحاب الآثار[٧].

• وواضح من كلام هؤلاء الأئمة أنهم يركزون على صفات:

* سلامة الدين. كما ورد فى تفسيرهم هذه الطائفة بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

---

(١) شرف أصحاب الحديث ص٢٦ رقم ٤٦.

(٢) نقله الترمذى عن البخارى عن ابن المدينى بعد حديث الباب. وأخرجه الخطيب فى شرف أصحاب الحديث ص٢٧ رقم ٥٠.

(٣) أخرجه فى شرف أصحاب الحديث ص٢٧ رقم ٤٨.

(٤) نقله النووى فى شرحه على مسلم ٤/٥٨٣.

(٥) ذكره فى صحيحه فى تفسيره هذا الحديث رقم ٧٣١١.

(٦) أخرجه الخطيب فى شرف أصحاب الحديث ص٢٧.

(٧) شرف أصحاب الحديث ص٢٧ رقم ٤٩.

* والعلم، لكنه العلم النابع من الكتاب والسنة. وهذا يجعل العقيدة صحيحة، والعبادة سليمة.

* والعمل بالكتاب والسنة، فالعلم المعتبر فى الإسلام لابد أن يقارنه العمل.

* والدعوة إلى الإسلام، فكلنا دعاة، وعلى كل من عَلِم أن يُعَلِّمَ.

• ولقد جاءت نصوص كثيرة تبين هذه الطائفة، منها آيات قرآنية، ومنها أحاديث نبوية.

• فمن الآيات القرآنية:

* قول الله تعالى: **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [1].

وفى هذه الآية حث على وجود هذه الطائفة، وأنها أمة من أمة الإسلام.

* وقوله تعالى: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [2].

وفى هذه الآية بيان منهج هذه الطائفة، وأنه يجب أن يكون منهج كل أفراد الأمة.

* وقوله سبحانه: **﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** [3].

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٢) سورة التوبة: ٧٢.

(٣) سورة البقرة: ٢٥١.

وفى هذه الآية بيان غاية هذه الطائفة. وأنه بها يتوازن الكون، فيكتب الله له الحياة، وبدونها يشيع الفساد فى الأرض، فيهلك الله الحياة.

● ومن الأحاديث النبوية:

* ما روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[١].

وفى هذا الحديث حث لكل فرد من أفراد الأمة أن ينكر المنكر وجوبًا، وهذه الطائفة هى الأقوى فى هذا الشأن.

* وما روى عن معاوية بن أبى سفيان قال: «قال رسول الله ﷺ: إن هذه الأمة ستفترق على إحدى وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا واحدة، وهى الجماعة»[٢].

وفى هذا أن الاختلاف سيكثر، لكن ستظل القاعدة العريضة من الأمة على أصل الدين وسلامته، على الكتاب والسنة.

وفيه أنه سيظهر الاختلاف ويتنوع ويتعدد، لكن أفراده قلة بالنسبة لأهل السنة.

وجماعة الإسلام والذين هم القاعدة العريضة من الأمة، هؤلاء صفوتهم الطائفة المنصورة، أما الباقون فيؤمنون بمنهج الطائفة المنصورة،

(١) أخرجه مسلم رقم ٤٩/٧٨.

(٢) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ١/٧٦ رقم ٦٥ باب فيما أخبر به النبى ﷺ أن أمته ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، وذمه الفرق كلها إلا واحدة وهو عنده أيضا عن غير معاوية قبل ذلك، وبعد ذلك. وأخرجه أبو داود فى أول كتاب السنة من سننه، وأخرجه أحمد ٤/١٠٢ والحاكم ١/١٢٨ وغيرهم. وصححه الحاكم والذهبى، وحسنه ابن حجر فى تخريج الكشاف، وصححه الشاطبى فى الاعتصام. ولقد أطال الشيخ الألبانى فى تخريجه فى السلسلة الصحيحة ١/٣٥٨ رقم ٢٠٤.

وإن كانوا لا يصلون إلى درجتها فى التمسك والنصرة لدين الله تعالى.

* وفى هذه الطائفة المنصورة جاء حديث النعمان بن بشير ـ رضى الله عنهما ـ «عن النبى ﷺ قال: مثل القائم على حدود الله[١] والواقع فيها[٢] كمثل قوم استهموا على سفينة[٣]، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها. فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء[٤] مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا[٥]، ونجوا جميعًا»[٦].

وفى هذا الحديث حث على وجود الطائفة المنصورة، وأنه لابد أن يوجد فى الأمة من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. يأخذون على يد العصاة، ويحملونهم على طاعة الله، ليرضى الله عن الجميع، يرضى عن الطائفة المنصورة بنصرتها دين الله، ويرضى عن غيرها لاستجابتهم لها وتركهم المعاصى.

أما إذا لم توجد هذه الطائفة المنصورة، وترك الحبل على الغارب للعصاة، فإن الله يغضب على الجميع، على الطائعين بتركهم العصاة يعصون، وعلى العصاة بعصيانهم.

إن الطائفة المنصورة وجودها يُمْن وبركة على أفرادها، وعلى كل الأمة

---

(١) الممتثل أحكام الإسلام، المحافظ عليها، فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر.

(٢) عكس سابقه، فيقع فى المعاصى ولا ينهى غيره عنها.

(٣) أجْرَوْا قرعة على سفينة، من يسكن أعلاها، ومن يسكن فى الغاطس.

(٤) إذا أرادوا ماء للشرب.

(٥) أى نجا أهل العلو. ونجا أيضا أهل الغاطس من السفينة.

(٦) أخرجه البخارى فى الشركة باب هل يقرع فى القسمة ٥/ ١٣٢ رقم ٢٤٩٣ وفى الشهادات باب القرعة فى المشكلات ٥/ ٢٩٢ رقم ٢٦٨٦. وأخرجه الترمذى وغيرهما.

ولابد من وجودها، وإلا نزلت النقمة. نعوذ بعفو الله من عقابه، ونعوذ برضاه من سخطه.

ولعلى أكون قد استطعت توصيف هذه الطائفة المنصورة بهذين العنوانين:

- خصائص الطائفة المنصورة.
- من هم الطائفة المنصورة؟

* وأنهم الذين فهموا الإسلام، وعملوا به.
* وأنهم حماة الإسلام، الذين يحمونه وينصرونه.

• عدد الطائفة المنصورة:

جاءت الروايات بأن الطائفة المنصورة «أمة» كما فى حديث معاوية الذى نحن بصدد شرحه، ونصه «لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله...».

وجاء أن هذه الطائفة «قوم» كما فى حديث المغيرة[1] «لن يزال قوم من أمتى ظاهرين على الناس».

وجاء فى رواية أنهم «طائفة» كما فى حديث جابر[2] وثوبان[3] وغيرهما «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق...».

وجاء فى رواية أنهم «عصابة» كما فى حديث جابر بن سمرة[4] «لن يبرح هذا الدين قائمًا يقاتل عليه عصابة من المسلمين».

---

(١) عند البخارى.

(٢ ـ ٤) عند مسلم.

وكما فى حديث معاوية[(١)] «ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق. . . ».

وكما فى حديث عقبة بن عامر[(٢)] «لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله. . . ».

إن وصف هذه الجماعة بهذه الصفات، وأنهم «أمة».

وأنهم «قوم».

وأنهم «طائفة».

وأنهم «عصابة».

كل هذا يفيد كثرتهم وظهورهم.

• ولقد جاءت أحاديث أخرى تفيد كثرة هذه الجماعة واشتهارهم، من ذلك:

* حديث معاوية أن رسول الله ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطى. ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله»[(٣)].

إن هذا الحديث يفيد أن هذه الصفة من القيام بأمر الله إنما هى صفة الأمة كلها، مما يفيد كثرة هذه الطائفة المنصورة، وكأنها كل الأمة.

نعم يتعين علينا تخصيص هذا اللفظ «ولن تزال هذه الأمة» بالأحاديث السابقة، وفهمه على أنه لا يراد منه الأمة كلها، وإنما يراد منه الطائفة المنصورة، إلا أنه يفيد مع ذلك كثرة هذه الطائفة وشيوعها.

(١، ٢) عند مسلم.

(٣) أخرجه البخارى فى العلم باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ١/ ١٦٤ رقم ٧١.

* وفى لفظ آخر لحديث معاوية هذا «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين، وإنما أنا قاسم، ويعطى الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتى أمر الله»(١).

إن لفظ «ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا» يفيد شيوع هذه الحال، وأن السمة العامة هى الاستقامة، وأن الطائفة المستقيمة كثيرة شائعة. إن الألفاظ التى وردت فى النصوص، والأحاديث التى وردت فى وصف الأمة دينيًا كل ذلك يفيد كثرة هذه الطائفة، وأنها جماعة ظاهرة.

● فإذا أضفنا لذلك صفات هذه الطائفة من:

* أنها قاهرة لعدوها.

* لا يضرهم من كذبهم ولا من خذلهم.

اتضح أنهم جماعة لها صفات الأمة.

* فى الكثرة، فهم من الكثرة بحيث يقاتلون وينتصرون.

* وفى التكامل، فلهم حياتهم، وشئونهم، وكل أنشطة الحياة متكاملة فيهم.

* وفى الاستقلال، فهم لهم شخصيتهم ومجتمعهم، ليسوا تابعين، وإنما هم متبوعون.

إنهم الأمة الملتزمة من أمة الإسلام، لها كيانها القوى، عددًا وعدة، تأخذ بيد أمة الإسلام إلى كل خير، وتجدد لها دينها، وتحنو على كل طوائفها بالنصح والتوجيه.

---

(١) أخرجه البخارى فى الاعتصام باب قول النبى ﷺ لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ١٣/ ٢٩٣ رقم ٧٣١٢.

• مكان الطائفة المنصورة:

تفيد النصوص مجتمعة أن الطائفة المنصورة ستكون موجودة فى كل الجهات، يقيم الله بها الحجة على خلقه، إذ يكون الدين القويم أمام كل الخلق، واضحة معالمه ظاهرة حدوده.

وآيات القرآن الكريم تفيد عموم أماكن هذه الطائفة:

* يقول الله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ (١).

هذا خبر عام: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ**﴾ كل الناس، فى كل مكان. لولا أن يدفع الله بعض الناس الكافر، ببعض الناس المؤمن لكثر الكفر والشر، وفى هذا بيان أن على أهل الحق أن يدافعوا عن الحق، فهذه سنة كونية لله تعالى، وهذه السنة عامة، ليست مقيدة بزمان، ولا بمكان.

* ويقول سبحانه: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ (٢).

والمعنى: لولا أن الله سبحانه يدفع أهل الكفر والشر بأهل الإيمان والخير لعمّ الشرُّ الأرض، وأوذى كل الناس، أوذى أهل الصوامع والبيع وهم النصارى، وأوذى أهل الصلوات وهم اليهود، وأوذى أهل المساجد وهم المسلمون.

---

(١) سورة البقرة: ٢٥١.

(٢) سورة الحج: ٤٠، ٤١.

وليس المراد هذه الأمم فقط، وإنما المراد كل البشرية، وذكر سبحانه هذه الأمم لأنهم أهل الأديان السماوية، والكفيلون بأن لا يشيع الشر فيهم، فبيّن سبحانه أنه لا بد أن تكون طائفة الإيمان آخذة بزمام الأمور، ناصرة دين الله الحق، قاهرة للباطل، وإلا عم الشر الأرض.

وهنا أيضًا بيان أن الطائفة المنصورة فى كل مكان ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ**﴾ كل الناس، فى كل مكان، لولا أن يدفع الله أهل الكفر بأهل الخير. ﴿**لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ**﴾ ففى الآية تعميم للأماكن، وللجنسيات، وللديانات.

وهكذا تبين هاتان الآيتان، وآيات أخرى معهما[1] أن الطائفة الملتزمة بالإسلام، الناصرة للحق إنما هى فى كل مكان.

والآيتان بجانب ما فيهما من عموم الأماكن، فيهما أيضًا حتمية وجود الطائفة الناصرة للحق، وأنها لا بد أن تكون، كما سبق أن بينت[2].

وجاءت الأحاديث النبوية تبين ما أفادته الآيات الكريمة:

● فأحاديث تبين أن هذه الطائفة فى أرض الحجاز، منها:

* حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال: «إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية فى جحرها»[3].

* وحديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»[4].

(١، ٢) فى أول الشرح ص ١٠١ - ١٠٧.

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا ١/ ١٣١ رقم ١٤٦/٢٣٢.

(٤) أخرجه مسلم فى التخريج السابق.

فهذان الحديثان يبينان أن المؤمنين يشتاقون إلى بلاد الحرمين لما فيها من العلماء والقدوة، ولما فى هذه البلاد من أهل الخير والصلاح، وهم من الطائفة المنصورة.

وإذا كان لفظ «المدينة» قد صرح به فى الحديث الثانى، ولفظ «المسجدين» قد صرح به فى الحديث الأول، فالمعنى المقصود أوسع من ذلك، والمراد به جزيرة العرب بكاملها، وإن كانت منطقة الحجاز هى المصدر والأساس.

• وأحاديث تبين أن هذه الطائفة فى جزيرة العرب عموما؛ منها:

* حديث عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لأُخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب، حتى لا أدع إلا مسلمًا»[١].

* وحديث عائشة رضى الله عنها قالت: «كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: لا يترك بجزيرة العرب دينان»[٢].

فهذان الحديثان يبينان مكانة الجزيرة فى الإسلام، وأنها مُنْطَلَقُه، ومَلاَذُه، وهذا يدل على وجوب صفائها، ليصفو الأمر لأهل الخير فيها. ففيها الكثير من الطائفة المنصورة.

ولقد نَزَلْتُ بلاد الحجاز، ومنطقة نجد، وشيئًا من دول الخليج، وأتابع أخبار الجزيرة فأجد تصديق هذه الأحاديث؛ والحمد لله رب العالمين. إن أهل الجزيرة يحبون الإسلام كثيرًا، ينصرونه بكل ما أوتوا، مما يوضح أنهم من الطائفة المنصورة، بل إن الواضح أمامى أنهم من أقوى الطائفة المنصورة، نفع الله بهم الأمة، وكشف بهم الغمة، ووفق الجميع لنصرة الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم فى الجهاد باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ٣/ ١٣٨٨ رقم ١٧٦٧.
(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٢٧٥.

• وأحاديث تبين أن هذه الطائفة فى بلاد الشام، منها:

* حديث معاوية بن أبى سفيان قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من كذّبهم، ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»، فقال مالك بن يخامر سمعت معاذًا يقول: وهم بالشام. فقال معاوية: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذًا يقول: وهم بالشام.

* وحديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على أبواب دمشق وما حوله، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله، لا يضرهم خِذلان من خذلهم، ظاهرين إلى أن تقوم الساعة»[1].

* وحديث أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال: «إنكم ستجندون أجنادًا، جندًا بالشام، ومصر، والعراق، واليمن. قالوا: فَخِرْ لنا[2] يا رسول الله. قال: عليكم بالشام. قالوا: إنا أصحاب ماشية، ولا نطيق الشام. قال: فمن لم يطق الشام فليلحق بيمنه، فإن الله قد تكفل لى بالشام»[3].

وواضح من هذه الأحاديث أن هذه الطائفة سيكون منها فى بلاد الشام، وبخاصة حول دمشق، وحول بيت المقدس، والحمد لله نلمس هذا، فأهل الخير موجودون بكثرة فى بلاد الشام، سواء فى سوريا، أو

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ١٩/١ رقم ٤٧. قال فى مجمع الزوائد ٢٨٨/٧: فيه الوليد بن عباد مجهول. وأخرجه أبو يعلى ٣٠٢/١١ رقم ٦٤١٧/٥٧٧. قال فى المجمع ١٠/ ٦٠، ٦١ رواه أبو يعلى ورجاله ثقات. قلت: الوليد فى إسناد أبى يعلى أيضا، ومن حكم بجهالته فلرواية إسماعيل بن عياش عنه وحده، وهذا رأى البعض، ولا أقول به، وما عدا ذلك فالوليد حديثه ضعيف، لكنه عُضِّد، فيُقْبل.

(٢) أى: اختر لنا، فى أى هذه الأجناد نكون؟

(٣) أخرجه البزار، كذا فى كشف الأستار ٣٢٣/٣ رقم ٢٨٥١ باب فضل الشام من أبواب المناقب. قال فى المجمع ٥٨/١٠: رواه البزار والطبرانى وفيهما سليمان بن عتبة وقد وثقه جماعة، وفيه خلاف لا يضر، وبقية رجاله ثقات.

لبنان، أو الأردن، أو فلسطين، يفهمون الإسلام وينصرونه، نصرهم الله وأعزهم.

وأنا أكتب هذه السطور[1] والجهاد فى بلاد الشام على قدم وساق، فالصهيونية العالمية، والصليبية العالمية يبذلون كل قوة وكل حيلة لجعل بلاد الشام للصهاينة، وتقف الطائفة المنصورة وقفة الصدق والثبات، يهزمون قوى الكفر العالمية، على الرغم من عدم تكافؤ الأسلحة، وعلى الرغم من انتهاك قوى الكفر كل المعايير الخلقية، وعلى الرغم من دهاءِ المؤامرات الكافرة.

وإنى أسأل الله أن يقى هذه الطائفة شر العلمانيين من بنى جلدتنا، وأن يقيها الكافرين.

• وأحاديث تبين أن هذه الطائفة فى المشرق الإسلامى، منها:

* حديث أبى هريرة قال: «كنا جلوسًا عند النبى ﷺ إذ نزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ: ﴿**وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ**﴾ [2] قال رجل: مَنْ هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبى ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثًا. قال وفينا سلمان الفارسى. قال فوضع النبى ﷺ يده على سلمان ثم قال لو كان الإيمان عند الثريا، لناله رجال من هؤلاء»[3].

* وحديث سلمان قال: «قال رسول الله ﷺ يا سلمان، لو كان الدين معلقًا بالثريا لتناوله ناس من أهل فارس يتبعون سنتى، ويتبعون آثارى، ويكثرون الصلاة علىّ، يا سلمان أحب المجاهدين، وأحب المرابطين،

---

(١) فى ربيع الأول سنة ١٤٢٢، ويوافقه يونيو سنة ٢٠٠١.

(٢) سورة الجمعة: ٣.

(٣) أخرجه مسلم رقم ٢٥٤٦/ ٢٣١ آخر فضائل الصحابة ٤/ ١٩٧٢ وأخرجه البخارى فى التفسير سورة الجمعة باب قوله ﴿وآخرين منهم...﴾ ٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٧.

وأحب الغزاة»[١].

وواضح من هذين الحديثين قوة أهل فارس، أهل المشرق الإسلامى، فى نصرة دين الله تعالى، وأن منهم الكثير من الطائفة المنصورة.

• وأحاديث تبين أن هذه الطائفة المنصورة فى المغرب الإسلامى، ومن هذه الأحاديث:

* حديث سعد بن أبى وقاص قال: «قال رسول الله ﷺ لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»[٢].

* وحديث عمرو بن الحمق «عن رسول الله ﷺ أنه قال ستكون فتنة أسلم الناس فيها ـ أو قال خير الناس فيها ـ الجند الغربى» قال عمرو بن الحمق: فلذا قدمت مصر[٣].

وواضح من هذا أن المغرب الإسلامى، مصر وما جاورها، إنما هى بلاد فيها من أهل الثبات على الحق الكثيرون، وهم الطائفة المنصورة، إنها بلاد الإسلام، تفهمه وتنصره وسيظل أهلها على الحق إلى قيام الساعة.

• وأحاديث تبين أن هذه الطائفة المنصورة فى كثير من بلاد الله تعالى، وأنها فى شرق الأرض وغربها، وأنها من العرب وغير العرب، من هذه الأحاديث:

* حديث واثلة بن الأسقع قال: «قال رسول الله ﷺ تجنّد الناس أجنادًا، جند باليمن، وجند بالشام، وجند بالمشرق، وجند بالمغرب.

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهانى فى أول كتابه أخبار أصبهان ١/٧.

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة باب قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين...» ٣/١٥٢٥ رقم ١٧٧/١٩٢٥.

(٣) أخرجه الحاكم فى الفتن باب بين يدى الساعة موتان شديد والزلازل ٤/٤٤٨ وصححه ووافقه الذهبى.

فقال رجل يا رسول الله خِرْ لى[١]، إنى فتى شاب فلعلى أدرك ذلك، فأى ذلك تأمرنى؟ فقال: عليك بالشام»[٢].

* حديث تميم الدارى «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر[٣] ولا وبر[٤] إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»[٥].

* حديث المقداد بن الأسود قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر، ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام، بعز عزيز، أو ذل ذليل. إما يعزهم الله عز وجل فيجعلهم من أهلها[٦]، أو يذلهم فيدينون لها»[٧].

* حديث أبى هريرة يقول: أبشروا يا بنى فروخ، فلو كان الإيمان معلقًا بالثريا، لا تناله العرب لنالته العجم. قيل لسفيان[٨] يا أبا محمد، مَنْ بنو فروخ؟ قال: من لم يكن من العرب[٩].

---

(١) أى: اختر لى. فى أى هذه الأجناد أكون؟ فى أى هذه الجيوش والجماعات أكون؟

(٢) أخرجه الطبرانى فى الكبير من طريقين، وفيهما المغيرة بين زياد وفيه خلاف، وبقية رجال أحد الطريقين رجال الصحيح. مجمع ١٠/٥٩ كتاب المناقب باب ما جاء فى فضل الشام.

(٣) مبانى أهل الحضر.

(٤) مساكن أهل البادية.

(٥) أخرجه أحمد ٤/١٠٣. قال فى المجمع فى أول كتاب المغازى ٦/١٤ رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال صحيح.

(٦) أى إما يعزهم فيكونون من أهل عقيدة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وإما يذلهم فلا يكونون من أهلها، وإنما يخضعون لأهلها.

(٧) أخرجه أحمد ٦/٤. وذكره فى المجمع فى أول كتاب المغازى ٦/١٤ واقتصر على عزوه للطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

(٨) أحد رجال الإسناد.

(٩) أخرجه أبو نعيم فى أول كتابه ذكر أخبار أصبهان ١/٥ أخرجه موقوفا ـ من كلام أبى هريرة ـ وأخرجه أيضا مرفوعا، ومن طرق كثيرة.

هذه الأحاديث تفيد أن الإسلام يملأ الأرض، يؤمن به العرب، وغير العرب، ويصل المشرق كما يصل المغرب، ويبلغ ما بلغ الليل والنهار، ولا يبقى بيت من حضر أو بادية إلا دخله الإسلام، يعز الله به طوائف فيكونون أخيارًا، دعاة هداة، ينصرون دين الله، وينصرهم الله، هم الأئمة فى مكارم الأخلاق، وغيرهم تبع لهم.

وهكذا تبين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أن هذه الطائفة المنصورة، ستكون فى كل المناطق والنواحى، أجملت الآيات القرآنية، وأفادت أنها فى كل جماعة من البشر، بها تتوازن الجماعة وتستقر. وفصلت الأحاديث النبوية، وبينت أن هذه الطائفة ستكون فى بلاد الحرمين، وفى بلاد الجزيرة، وفى بلاد الشام، وفى بلاد المشرق الإسلامى، وفى بلاد المغرب الإسلامى، وفى كل البلاد، وفى كل البيوت.

وكل هذا يطمئن الجماعات الإسلامية فى كل مكان، وأنهم ما عليهم إلا أن يلتزموا بالكتاب والسنة فبذلك يأتى نصر الله تعالى.

وهذه النصوص أيضًا تبين واجب كل جماعة مسلمة، وأن عليها أن تفهم الإسلام جيدًا، وأن تعمل به، وأن تُعَلِّمه الآخرين، وأن تنصره.

إن وجود هذه الجماعة خير عظيم، ومن فضل الله أن فتح باب ذلك على مصراعيه، فيمكن لكل جماعة فى أى مكان، فى أى زمان أن تنهج نهج الطائفة المنصورة فتكون منها، وتحظى بما وعد الله ورسوله هذه الطائفة من خير.

* * *

• زمان الطائفة المنصورة:

إن الحديث الذى نحن بصدد شرحه يبين أن الطائفة المنصورة، طائفة كبيرة فى القرون الأولى للأمة، وأنه فى القرون المتأخرة ستكون هذه الطائفة موجودة وبكثرة، وينص الحديث على أن هذه الطائفة ستظل موجودة إلى قيام الساعة:

فيقول ﷺ: «لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من كذبهم، ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»(١).

فقوله ﷺ: «لا يزال .. أمة قائمة بأمر الله حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»، معناه أن هذه الطائفة ستظل موجودة إلى آخر زمان الدنيا.

ولفظ حديث جابر «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق، ظاهرين، إلى يوم القيامة»(٢).

وهكذا بيَّن ﷺ أن هذه الطائفة موجودة إلى يوم القيامة، والمعنى إلى ظهور علامات القيامة الكبرى.

وجاء فى حديث جابر المتقدم «فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا. فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة»(٣).

وهكذا تفيد الأحاديث أن هذه الطائفة ستظل إلى نهاية الدنيا، ستظل موجودة، تنصر دين الله إلى قيام الساعة، إلى بدء أحداث القيامة، من

(١) هذا هو الحديث الذى نحن بصدد شرحه، وقد تقدم مع شرح معانيه.

(٢) لفظ حديث جابر بن عبد الله، وهو عند مسلم فى الإمارة باب «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق..».

(٣) هذا اللفظ عند مسلم فى الإيمان باب نزول عيسى ابن مريم.. ١/ ٣٧٣، ٣٧٤ طبعة الشعب، النووى على مسلم.

ظهور عيسى عليه السلام، والعلامات الكبرى.

إن الأحاديث التى فى هذا الموضوع تُجمع على أن هذه الطائفة موجودة فى كل زمان، وأنها ستستمر إلى نهاية الدنيا، إلى ظهور علامات القيامة الكبرى، والتى منها «نزول عيسى عليه السلام» كما تقدم فى حديث جابر.

ومنها «ظهور المسيح الدجال».

فقد جاء فى حديث عمران بن حصين رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق، ظاهرين على مَنْ ناوأهم، حتى يقاتل آخرُهم الدجال»(١).

إنهم ظاهرون أقوياء إلى مجىء الريح الطيبة التى تقبض أرواح الصالحين، فيموتون وقد انتهت فترة إقامة الحجة لله على خلقه، وانتهى زمن التوبة.

• الأحاديث متوافقة:

أفادت أحاديث الباب أن الطائفة المنصورة ستظل إلى قيام الساعة، وجاءت أحاديث أخرى تفيد أن القيامة لا تقوم إلا على شرار الخلق، من ذلك:

* حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض: الله، الله»(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب الفتن باب أحوال أهل الجاهلية يوم القيامة ٤/ ٤٥٠ وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان باب ذهاب الإيمان آخر الزمان ١/ ٣٥٩، ٣٦٠.

* حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»(١).

ولقد وفّق رسول الله ﷺ بين هذه النصوص، وذلك فى:

* حديث عائشة - رضى الله عنها - قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يذهب الليل والنهار(٢) حتى تُعْبَدَ اللاتُ والعزى. فقلت: يا رسول الله، إن كنتُ لأظن حين أنزل الله **﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** (٣)، أن ذلك تامًا. قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحًا طيبة فَتَوَفَّى كُلَّ من فى قلبه مثقالُ حبةِ خردلٍ من إيمان، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم(٤).

وكان الصحابة أيضًا يفهمون هذه الأحاديث، ويعرفون هذا التوفيق بينها، ومن ذلك:

* حديث عبد الرحمن بن شماسة المهرى قال: كنت عند مسلمة بن مُخَلّد، وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق. هم شر من أهل الجاهلية. لا يدعون الله بشىء إلا رده عليهم.

فبينما هم(٥) على ذلك أقبل عقبة بن عامر فقال له مسلمة: يا عقبة، اسمع ما يقول عبد الله.

---

(١) أخرجه مسلم فى الفتن باب قرب الساعة ٥/ ٨١٠.

(٢) أى لا تقوم القيامة.

(٣) سورة التوبة: ٣٣ وسورة الصف: ٩.

(٤) أخرجه مسلم فى الفتن باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة ٤/ ٢٢٣٠ رقم٢٩٠٧.

(٥) أى مسلمة بن مخلد، وعبد الله بن عمرو.

فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم مَنْ خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك.

فقال عبد الله: أجل[1]، ثم يبعث الله ريحًا كريح المسك، مسّها مس الحرير، فلا تترك نفسًا فى قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، عليهم تقوم الساعة»[2].

وهكذا تتضح معانى الأحاديث، وتُبين أن هذه الطائفة التى يتحدث عنها رسول الله ﷺ ستظل موجودة إلى نهاية الدنيا، إلى ظهور الأمارات الكبرى للقيامة، وحينما تأتى الريح الطيبة التى تقبض فيها أرواح المؤمنين، فإن هذه الطائفة المنصورة تموت، كما يموت كل مسلم، ولا يبقى على الأرض إلا شرار الخلق، ممن لا يقول أحد منهم «الله» فهم لا يعرفون الإسلام. وبذا تتوافق الأحاديث وتتواءم، ويكمل بعضها بعضًا.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

يبين رسول الله ﷺ فى هذا الحديث أن دين الإسلام سيظل له أهله، المحافظون عليه، الناصحون له، الذين يفدونه بكل ما أوتوا.

إن نصوصًا كثيرة تفيد أن صعوبات كثيرة ستعترض طريق الأمة، وذلك كما فى:

* قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ**

---

(١) يعنى: نعم.

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة باب لا تزال طائفة من أمتى ٤/ ٥٨٤.

فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾(١).

* وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾(٢).

* وقول رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها.

قال(٣): قلنا يا رسول الله، أمن قِلَّة بنا يومئذ؟

قال: أنتم كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، يُنتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل فى قلوبكم الوهْن.

قال(٤): قلنا وما الوهْن؟

قال ﷺ: حب الدنيا، وكراهية الموت»(٥).

* وقوله ﷺ: «لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، ليُلْزِمَنَّكُم الله مزلة فى رقابكم، لا تنفك عنكم، حتى تتوبوا إلى الله، وترجعوا على ما كنتم عليه»(٦).

* وقوله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء»(٧).

---

(١) سورة الأنفال: ٣٦.

(٢) سورة البقرة: ٢١٧.

(٣، ٤) القائل هو ثوبان الصحابى الجليل، راوى هذا الحديث.

(٥) أخرجه أحمد ٥/١٧٨ وأبو داود فى الملاحم باب تداعى الأمم على الإسلام ٤/١١١ وقد تقدم شرحه فى باب «الإخبار باجتماع الأمم على المسلمين» أول هذا الجزء.

(٦) أخرجه أحمد ٢/ ٤٢، ٨٤، وهو عند أبى داود فى البيوع باب النهى عن العينة ٣/ ٢٧٤.

(٧) أخرجه مسلم فى الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا ١/ ١٣٠ رقم ٢٣٢/١٤٥.

* وقوله ﷺ: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم[١]، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسى كافرًا، أو يمسى مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[٢].

إن هذه النصوص من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية تبين ما سيعرض للأمة من أسباب ضعف، يبدو للقارئ والسامع أنه ضعف ربما كان قاتلاً مما يجعل المهتم بظروف هذه الأمة يتساءل: إلى أى حد تؤثر هذه الصعوبات فى هذه الأمة؟

فجاء هذا الحديث: «لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من كذّبهم، ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك» جاء هذا الحديث فأكمل الصورة، وبيّن أن هذه الصعوبات لن تضعف الأمة كلها، ولن تصل إلى حد إلحاق أى ضرر بأصول هذا الدين.

لقد بيّن هذا الحديث أن طائفة من هذه الأمة ستظل جند الإسلام الحامى له، والمدافع عنه، يعز الله بهم دينه، وينصرهم سبحانه فهم أولياؤه جل جلاله. ستظل هذه الطائفة ملتزمة بالإسلام فى عقيدته وشريعته، فى أوامره ونواهيه، لا تؤثر فيها الفتن ولا الصوارف، وإنما هى ثابتة على دين الله، تنصره بالنفس وبالنفيس.

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ فى هذا الحديث، فهذه الطائفة بحمد الله موجودة فى كل البلاد، وبالصفات التى ذكرها ﷺ، من قيامهم بأمر الله تعالى، وتمسكهم بدين الله عز وجل، وفهمهم الإسلام، ودعوتهم الخلق

---

(١) أى أسرعوا بالأعمال الصالحة، قبل أن تحدث فتن تحيركم تحير من سار فى ليل مظلم، فلا تستطيعون فعل الصالحات.

(٢) العرض من الدنيا: الشىء القليل من الماديات. والحديث أخرجه مسلم فى الإيمان باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن ١/ ١١٠ رقم ١٨٦/١١٨.

إلى الله تبارك وتعالى.

إننا نلاحظ وجود هذه الطائفة فى كل أنحاء الأرض، ففى كل دولة نجد هذه الجماعة، وبالخصائص والأحوال التى ذكرها ﷺ.

ولقد حدد ﷺ زمان هذه الطائفة، وأنها فى كل زمان إلى قيام الساعة، والحمد لله هى موجودة قبل زماننا، وفى زماننا، لم تؤثر فيها:

* مؤامرات أعداء الإسلام.

* ولم يضعفها انصراف غيرهم من المسلمين عن المنهج الذى رسمه الإسلام.

* ولم يهزمها انصراف غيرهم من المسلمين عنهم. حتى ولو وصل الأمر إلى أن يقف هذا الغير ضدها أو يؤذيها.

كم من طامات رأيناها تجتاح بلاد المسلمين، فنظن أنها ستضعف الإسلام، وستقضى على معالمه، حملات فكرية، وفتن متنوعة، ومؤامرات متعددة، تعصف بجماعة الإسلام عصفًا، لكنا نجد الإسلام يخرج من كل هذه الطامات أقوى وأسلم، وتظل هذه الطائفة أثبت وأقوم لقد تحقق ما أخبر به ﷺ تمامًا، ووفق ما قال، وما ذلك إلا لأنه ﷺ يتكلم بوحى الله سبحانه وتعالى، الذى أحاط بكل شىء علمًا، وخلق كل شىء فقدره تقديراً.

وهكذا يتضح أن هذا الحديث معجزة من معجزاته ﷺ التى ظهرت فى زماننا.

* * *

• الدروس المستفادة من الحديث:

١ ـ الإسلام الدين الخاتم الخالد، عقيدته خالدة، وتعاليمه باقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا تؤثر فيه مكائد أعدائه، ولا تخاذل بعض أتباعه. يهيئ الله له من كل جيل من يتمسك به وينصره.

٢ ـ ستظل طائفة من هذه الأمة قائمة بأمر الله عز وجل، تعلم الإسلام وتعمل به، وتعلمه وتدعو إليه، وتتمسك به وتنصره. هذه الطائفة فى كل جيل إلى قيام الساعة.

٣ ـ هذه الطائفة، والتى يسميها العلماء: «الطائفة المنصورة»:

* دينها سليم، فلا بدع ولا خرافات.

* ومنهجها قويم، فهى على منهج الإسلام فى دينها ودنياها، لا تقبل غير الإسلام، ولا تتبع إلا القرآن والسنة.

* أئمتهم علماء عاملون، مخلصون، صادقون، جادُّون، ثابتون.

* ومجاهدوهم أشداء، أكفاء، طلاب شهادة، باعوا أنفسهم وأموالهم لله.

٤ ـ هذه الطائفة لا يقهرها غيرها، مهما كان عدده أو عدته، وإنما هى محظوظة بنصر الله سبحانه، يؤيدهم الله تبارك وتعالى ويعزهم.

٥ ـ وفى هذا الحديث بشارة لأهل الخير، بأنهم منصورون مؤيّدون، دعوتهم صحيحة، وجماعتهم على الحق إلى قيام الساعة.

٦ ـ وفى هذا الحديث تطمين للأمة، أن الإسلام له أهله، المتمسكون به، الحريصون على تمامه وكماله، الثابتون عليه إلى يوم القيامة.

٧ ـ وهذا الحديث معجزة لرسول الله ﷺ، فلقد تحقق ما أخبر به تمامًا كما أخبر. فمن هذه الأمة أناس حريصون على الإسلام كل الحرص، يعلمونه، ويعملون به، وينصرونه، هم كما وصفهم ﷺ.

* * *

الأمة بين حرص رسول الله وإكرام الله

أولاً: دعواته ﷺ المستجابة للأمة:

١ ، ٢ ـ الدعاء بأن لا يهلك الله هذه الأمة بالقحط ولا بأعدائها.

٣ ـ الدعاء بأن لا يهلك الله هذه الأمة بالجوع.

٤ ـ الدعاء بأن لا يهلك الله هذه الأمة بالغرق.

٥ ـ الدعاء بأن لا تكفر هذه الأمة.

٦ ـ الدعاء بأن لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة.

٧ ، ٨ ـ الدعاء بأن لا تهلك هذه الأمة بالرجم ولا بالخسف.

٩ ـ الدعاء بأن لا تهلك هذه الأمة بما أهلكت به الأمم السابقة.

١٠ ـ الدعوة التى مُنِعَها ﷺ.

ثانيًا: دعوات أوحاها الله إليه واستجابها سبحانه:

١١ ـ دعاء الهداية.

١٢ ـ ١٣ ـ دعاء التيسير والرحمة والنصر.

* * *

• تقديم:

* كان رسول الله ﷺ حريصًا على إيمان الأمة واستقامتها على دين الله حرصًا زاد وفاض، حتى وصفه الله فى ذلك بقوله: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (١).

والمعنى: لقد أرسل الله لكم رسولاً من خالص العرب، هذا الرسول يصعب عليه مشقتكم وهو حريص على إيمانكم، وهو ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ**﴾ يحرص على إبعاد المكروه عنهم ﴿**رَّحِيمٌ**﴾ يسعى لإيصال الخير لهم.

* ولقد بذل ﷺ كل جهده وطاقته فى سبيل إيمان الأمة، حتى قال الله له: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ (٢).

والمعنى: لا تبخع نفسك أى لا تقتلها همًا وغمًا لعدم إيمانهم.

* وقال سبحانه: ﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ (٣).

والمعنى: لا تهلك نفسك حسرة على إعراض هؤلاء الكفرة عن الحق.

* وقال سبحانه: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (٤).

والمعنى: لا تقتل نفسك لعدم إيمانهم.

● لقد بذل ﷺ كل ما فى وسعه فى سبيل إخراج الناس من الكفر إلى الإيمان، وجاءت مواقف فى السنة النبوية تبين ذلك:

---

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

(٢) سورة الكهف: ٦.

(٣) سورة فاطر: ٨.

(٤) سورة الشعراء: ٣.

* فلقد دل على الخير وحبب فيه بكل السبل.

* وحذر من الشر ونفر منه بكل الحيل.

* واستعمل كل الأساليب الكفيلة بالارتقاء بالأمة.

● ومن حرصه ﷺ على أمته دعا الله أن يحفظها على طول عمرها من كل مهلك.

● واستجاب الله الكريم دعوات نبيه ﷺ، وطمأنه والأمة بحفظه سبحانه أمة الإسلام ومعافاتها.

● لقد دعا ﷺ للأمة دعوات جامعة متعددة:

* سأل الله ألا تنقلب عن الإسلام إلى الكفر. وألا تجتمع على ضلالة.

* وسأل الله ألا تهلك بالقحط ـ الجفاف ـ ولا بالغرق.

* وسأل الله ألا يهلكها عدو.

* وعمم فى دعوة فسأل الله ألا يهلكها بأى بلاء أهلك أمة من الأمم السابقة.

وهكذا سأل الله لها الاستقامة على الصراط المستقيم، والسلامة من كل مهلك. واستجاب الله تبارك وتعالى كل هذه الدعوات.

ومما ينبغى التنبيه له أن دعواته ﷺ المستجابة هذه إنما هى لرفع البلاء العام، فلا تنحرف الأمة كلها عن الحق، ولا تهلك كلها بالقحط أو الغرق... إلخ.

أما أن يقع نوع بلاء لبعض الأمة فهذا ممكن، وهنا رسم الإسلام طريق الخلاص، ولهذا فلقد ركزت أثناء شرحى أحاديث هذه الدعوات على:

- إبراز وجه إعجاز الحديث، وأنه ﷺ أخبر فوقع الأمر تمامًا كما أخبر، وأن الله سبحانه أجار الأمة مما دعا الله به ﷺ.

- توضيح منهج الإسلام فى سلامة بعض الأمة من هذه الابتلاءات التى استعاذ منها ﷺ للأمة كلها. كالتحصين ضد الانحراف عن الحق، والتحصين ضد القحط والغرق... إلخ.

وكما حظيت هذه الأمة بحرص رسول الله ﷺ على الخير لها، فلقد كان فضل الله علينا أعظم، فعلم سبحانه رسوله دعوات يدعو بها للأمة، وطمأنه الله على استجابتها.

وهذه الدعوات والتى هى فى سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، هى دعوات بالهداية والتيسير والرحمة والنصر على الأعداء.

وهكذا اجتمع للأمة كاملة أسباب البقاء الدينية والعملية، فلن تهلكها جائحة، ولن تهلك بالانحراف عن دين الله، وإنما ستظل على الهدى القويم، محوطة بالعناية الإلهية، مشمولة بالعفو والمغفرة والتأييد.

إن هذه الدعوات أخبرنا رسول الله ﷺ باستجابتها، وفعلاً نعيش فى بركة تحققها، وهذا من أعلام نبوته، ودليل قاطع على كمال المنهج الإسلامى، وصحة وسلامة نصوصه.

ومما يعلى شأن السنة النبوية فى ساحة هذه الدعوات، أن يخبر ﷺ أن دعوة من دعواته ﷺ تلك لم تُسْتَجَبْ له. فلقد سأل الله ألا تختلف هذه الأمة ولا تقتتل، وأخبر ﷺ أن الله لم يستجب له هذه الدعوة، وإنما الأمة فى هذا موكولة للقرآن والسنة، فهما كفيلان بكفاية الأمة ذلك، واشتمال السنة على ذلك دليل على صدق النبوة، وأمانة المحدثين، وسلامة السنة وثبوتها.

١ ـ ٢ الدعاء بأن لا يهلك الله هذه الأمة بالقحط ولا بعدو

عن ثوبان قال «قال رسول الله ﷺ: إن الله زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فرأيت مشارقَها ومغاربَها، وإن أمتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِى لى منها. وأُعْطيتُ الكَنْزَيْن الأحمر والأبيض. وإنى سألت ربى لأمتي ألا يُهْلكَها بسَنَة عَامَّة. وألا يُسَلِّطَ عليهم عدوًا من سوى أنفُسهم، فيَسْتَبيحَ بَيْضَتَهُم. وإن ربى قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدُّ. وإنى أعطيتك لأمتك ألا أُهْلكَهُم بِسَنَة عَامَّة. وألا أسلط عليهم عَدُوًا من سوى أنفسهم، يَستبيحُ بَيْضَتَهم، ولو اجتمعَ عليهم مَنْ بأَقْطَارها ـ أو قال مَنْ بَيْن أَقْطَارِهَا ـ حتى يكون بعضُهم يُهْلِك بعضًا، ويَسْبِى بعضُهم بعضًا»[1].

● **المعانى:**

«زوى لى الأرض» أى جمعها لى ربى وضَمّها، حتى رأى ﷺ المساحات الشاسعة منها، فرأى مشارقها ومغاربها.

«الكنزين الأحمر والأبيض» أى كنز الذهب والفضة، وهما عملتا فارس والروم؛ فكانت عملة كسرى الذهب الأحمر، و كان كسرى ملك العراق.

وكانت عملة قيصر الفضة البيضاء، وكان قيصر ملك الشام.

---

(١) أخرجه مسلم فى الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ٢٢١٥/٤ رقم ٢٨٨٩/١٩ و٧٣٩/٥ط الشعب بشرح النووى. وهو عند الترمذى ٣٩٨/٦ تحفة الأحوذى وقال: حسن صحيح. وعند ابن حبان ٢٢١/١٦. وعند ابن أبى شيبة ٤٥٨/١١ وعند غير هؤلاء.

والمعنى: إن الله تبارك وتعالى سيفتح هاتين المملكتين للإسلام، وسيدخل أهلها دين الله تبارك وتعالى.

«وإنى سألت ربى لأمتى..» السؤال هنا ليس على سبيل الدعاء المجرد، وإنما على وجه الرجاء والعطاء، فهو ﷺ سأل ربه ورجاه، ومن هنا كان الجواب من الله تعالى له ﷺ: «وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة..» فقول الله تعالى «أعطيتك» دليل على أن سؤاله ﷺ كان على وجه السؤال والعطاء.

ولقد تكرر هذا منه ﷺ، فصلى عدة مرات، وسأل الله عدة مرات، وكان السؤال متنوعًا:

* فمرة سأل الله ثلاث خصال، فأُعطى اثنتين، ومُنع واحدة.
* ومرة سأل الله أربعًا، فأُعطى ثلاثًا، ومُنع واحدة.
* ومرة سأل الله أربعًا، فأُعطى اثنتين، ومُنع اثنتين.
* ومرة سأل الله اثنتين، فأُعطى واحدة، ومُنع واحدة.
* وصلى طويلاً.
* وصلى خفيفًا.
* وصلى ليلاً.
* وصلى نهارًا.

وكل ذلك يدل على أن ذكر العدد «سألت ربى ثلاثًا» و «سألت ربى أربعًا» إنما كان فى كل موقف بحسبه، وليس ذلك حصرًا لكل ما سأل الله لأمته.

«لأمتى» هذا يبين أنه ﷺ يسأل الله سؤالاً عامًا للأمة، فلا يقع هذا

الأمر ـ من القحط أو الغرق ـ لكل الأمة، رحمها الله من ذلك، أما أن يقع للبعض فهذا جائز. ونسأل الله العفو والعافية.

وجميع الروايات تعطى أنه ﷺ سأل الله لأمته كثيرًا، وكلها تدور حول أن لا تكفر هذه الأمة، وألا تهلك، رجا لأمته الخلود إلى يوم القيامة، على الإسلام الدين الحق المتين.

«بسنة عامة» السنة تطلق على العام، وتطلق على القحط، والذى هو عدم المطر، وانقطاع الماء. وهذا الثانى هو المراد هنا.

ومعنى «عامة» أى شاملة.

دعا ﷺ أن لا يهلك الله أمة الإسلام بقحط يعم الأمة كلها.

لكنه قد يحل بناحية من نواحى الأمة، وحينئذ على الآخرين إغاثة هذه الناحية المبتلاة بالقحط.

«يستبيح بيضتهم» بيضة الناس: معظمهم ومجموعهم.

ويستبيح بيضتهم، أى: يرى معظمهم مباحًا، فيقتل ويأسر.

والمعنى أنه ﷺ سأل الله تبارك وتعالى أن لا يمكن عدوًا من أعدائنا من استباحة كرامتنا، سأل الله أن لا يمكن عدوًا من قتلنا أو أسرنا، «ولو اجتمع عليهم من بأقطارها» أى ولو اجتمعت كل الأمم على أمة الإسلام، فإنهم لا يقدرون على غلبتها جميعا.

إن كل الأمم لو اجتمعت على أمة الإسلام فإنهم لا يقدرون على هزيمتها هزيمة عامة.

«حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا» أى إن أمة الإسلام لا يستطيع أعداؤها أن يهلكوها، أما هم فى بعضهم، فيمكن أن يهلك بعضهم بعضًا.

«ويسبى بعضهم بعضًا» ويمكن لأمة الإسلام أيضًا أن يأسر بعضهم بعضًا، أما أن يأسرهم جميعًا غيرهم فلا.

• راوى الحديث:

ثوبان مولى رسول الله ﷺ: وترجمته مذكورة فى باب الإخبار باجتماع الأمم على المسلمين. حديث «يوشك أن تداعى عليكم الأمم. كما تداعى الأكلة على قصعتها»[1].

• الشرح:

• دعاء الأنبياء لأممهم:

أنبياء الله أناس حكماء رحماء، يسألون الله الخير الكثير لأممهم، يعلمون فقر الخلق إلى الله، ويعلمون سعة رحمة الله، وكريم عفوه سبحانه ويؤمنون بعميم فضله، وكريم إحسانه جل جلاله، ومن هنا يسألونه سبحانه، يسألونه خير الدنيا والآخرة، لأنفسهم ولأممهم.

* فها هو إبراهيم عليه السلام يدعو لقومه: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ**﴾[2].

ويدعو: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[3] يسأل الله المغفرة لمن عصى.

---

(١) فى أول هذا الجزء ص ٧.

(٢) سورة البقرة: ١٢٦.

(٣) سورة إبراهيم: ٣٥، ٣٦.

* وها هو عيسى عليه السلام يدعو: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١) يسأل الله معجزة تقود إلى الإيمان. ويدعوه سبحانه أن يرزقه وأمته رزقًا عميمًا فهو سبحانه خير الرازقين.

ويدعو: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) إنه يرجو رحمة الله، فالعصاة عباده، وهو خالقهم، والأمر كله له سبحانه فهو العزيز الحكيم، وروح النص تفيد أنه يسأل الله الرحمة لأمته.

• دعاء رسول الله محمد ﷺ لأمته:

ورسول الله محمد ﷺ دعا لأمته كثيرًا. وعلم الأمة الكثير من الدعاء، سواء منها ما كان أدعية لأمر خاص، وما كان عامًا.

ومن أدعيته ﷺ:

* تلا ﷺ قول الله جل وعلا فى إبراهيم: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، وقال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فرفع يديه وقال «اللهم أمتى أمتى. وبكى فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد. وربك أعلم فسله ما يبكيه؟ فأتاه جبريل، فسأله فأخبره بما قال ـ والله أعلم ـ فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك» (٣).

---

(١) سورة المائدة: ١١٤.

(٢) سورة المائدة: ١١٨.

(٣) أخرجه ابن حبان ١٦/٢١٧ رقم ٧٢٣٥ وهو عند مسلم فى أواخر كتاب الإيمان باب دعاء النبى ﷺ لأمته ١/١٩١ رقم ٣٤٦/٢٠٢.

* وقوله: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك»(١).

* وقوله ﷺ: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا»(٢).

* وقوله ﷺ: «اللهم إنى أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك»(٣).

* وقوله ﷺ: «اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا، وعذاب الآخرة»(٤).

* وعن أبى سعيد الخدرى قال: «قلنا يوم الخندق: يا رسول الله هل من شىء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم، اللهم استر عوراتنا، وآمِنْ رَوْعاتنا قال: فضرب الله عز وجل وجوه أعدائه بالريح، فهزمهم الله عز وجل بالريح»(٥).

* وعَلَّمَنَا ﷺ إذا خفنا جيش الأعداء أن نقول: اللهم إنا نجعلك فى نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم(٦).

---

(١) أخرجه مسلم فى الصلاة باب ما يقال فى الركوع والسجود ١/ ٣٥٢ رقم ٢٢٢/ ٤٨٦.

(٢) أخرجه الترمذى فى التفسير فى أول سورة المؤمنون ٩/ ١٦.

(٣) أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء باب أكثر أهل الجنة الفقراء ٤/ ٢٠٩٧ رقم ٩٦/ ٢٧٣٩.

(٤) أخرجه ابن حبان فى الرقاق باب الأدعية ٣/ ٢٢٩ رقم ٩٤٩.

(٥) أخرجه أحمد ١٧/ ٢٧ رقم ١٠٩٩٦، وفى إسناده: ربيح بن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى وهو ضعيف، لكن شاهده عن ابن عمر يقويه، وهذا الشاهد عند أحمد رقم ٤٧٨٥، ٨/ ٤٠٣ وهو صحيح.

(٦) أخرجه ابن حبان فى السير باب الخروج وكيفية الجهاد ١١/ ٨٢ رقم ٤٧٦٥ وهو عند أبى داود فى الصلاة باب ما يقول إذا خاف قومًا، وعند النسائى فى اليوم والليلة ٦٠١ وعند الحاكم ٢/ ١٤٢ وصححه ووافقه الذهبى.

* ودعا لنا جميعًا بالإسلام والمغفرة فقال ﷺ: «اللهم اغفر لحيِّنا وميِّتنا وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، اللهم من أحييته منا فأحيه على الإيمان، ومن توفيته منا فتوفه على الإسلام»(١).

هكذا دعا ﷺ لنا بخير الدنيا والآخرة، ومن هذه النماذج التى سقتها من أدعيته يتضح أنه ﷺ كان شفوقًا على الأمة، يلح على الله تبارك وتعالى فى سؤال الخير لها.

• إشفاق الأنبياء على أممهم:

وواضح من هذه الدعوات إشفاق الأنبياء على أممهم، وأنهم يخافون غضب الله وعذابه، ويرجون رحمته سبحانه وفضله.

ويوضح ذلك أيضًا ما أخرجه الإمام أحمد عن صهيب بن سنان أن رسول الله ﷺ كان أيام حنين يحرك شفتيه بعد صلاة الفجر بشىء لم نكن نراه يفعله، فقلنا: يا رسول الله، إنا نراك تفعل شيئًا لم تكن تفعله، فما هذا الذى تحرك شفتيك؟ قال: إن نبيًا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته، فقال: لن يروم هؤلاء شىء(٢)، فأوحى الله إليه: أن خير أمتك بين إحدى ثلاث: إما أن نسلط عليهم عدوًا من غيرهم فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت. فشاورهم(٣)، فقالوا أما العدو فلا طاقة لنا بهم. وأما الجوع فلا صبر لنا عليه. ولكن الموت. فأرسل عليهم الموت، فمات منهم فى ثلاثة أيام سبعون ألفًا. قال ﷺ: فأنا أقول الآن حيث رأى كثرتهم ـ اللهم بك أحاول، وبك أصاول وبك أقاتل»(٤).

---

(١) أخرجه ابن حبان فى الجنائز باب الصلاة على الجنازة ٧/ ٣٣٩ رقم ٣٠٧٠.

(٢) أى لن يطلبهم عدو فينال منهم، أو لن يغلب هؤلاء عدو.

(٣) فى رواية أخرى ـ عند أحمد أيضًا ـ أنهم فوضوا الاختيار لرسولهم قائلين له: أنت نبى الله نَكِل ـ نفوض ـ ذلك إليك، فَخِر لنا ـ طلبوا منهم أن يختار لهم ـ فصلى، ثم اختار لهم الموت.

(٤) أخرجه أحمد فى مسند صهيب من مسنده ٤/ ٣٣٢، ٣٣٣ من ثلاث طرق، وأخرجه الترمذى =

هكذا الأنبياء يحبون كثرة أممهم، ويجتهدون فى طلب الخير، كلٌّ لأمته. وكان رسول الله محمد ﷺ قد أعلمه الله أخبار الأمم السابقة، ومنها خبر هذا النبى، وأن سبب البلية الإعجاب بكثرتهم، فحينما رأى محمد ﷺ كثرة أمته لم يغتر بها، ولم يعتمد عليها، وإنما لجأ إلى الله سبحانه، متوكلاً عليه، مفوضًا إليه، قائلاً: «اللهم بك أحاول» أى أبذل ما أعطيتنى من حيلة «وبك أصاول» أى أبذل ما أعطيتنى من سطوة وقوة «وبك أقاتل» بما تمن به علىَّ من أعوان أقاتل. جاء فى رواية أخرى «ولا حول ولا قوة إلا بالله» أى أنه لا حيلة ولا قوة له على أمر إلا بعون الله وتوفيقه.

إن رسول الله محمدًا ﷺ بما علمه الله عرف أسباب هلاك الأمم السابقة، وعرف أيضًا الذنوب التى أدت إلى الهلاك، ومن هنا يسأل الله أن يَمُنّ عليه وعلى أمته بالسلامة من هذه الأسباب ومن هذه الذنوب، ويبرأ إلى الله من هذه الأسباب، ومن هذه الذنوب.

● **دعاء رجاء وعطاء:**

وهناك دعوات لها صفات خاصة:

* فلقد اجتهد ﷺ فى جمع أسباب القبول لها، فدعا فى الصلاة، وهذه الصلاة أطال فيها القراءة والذكر.

* وألحّ على الله فيها، راجيًا، متضرعًا، متلمسًا كل أسباب الإجابة.

* وانتظر من الله الإجابة، ورجاه التطمين، فطمأنه الله تبارك وتعالى.

* وأخبر ﷺ عن هذه الدعوات، وأنه سأل الله كذا، وأن الله تعالى

= فى تفسير سورة البروج ٩/ ٢٥٩ وحسنه وأخرجه عبد الرزاق ٥/ ٤٢٠ رقم ٩٧٥١ وأخرجه الطبرانى فى الكبير ٨/ ٤١، وابن حبان ٥/ ٣١٢.

أجابه بكذا.

والحديث الذى نحن بصدد شرحه من هذا القبيل، ففيه أنه ﷺ سأل الله لأمته أشياء أعطاه الله، مجموعها، ووكله والأمة فى واحدة منها إلى الالتزام بالقرآن الكريم والسنة النبوية.

وحديث الباب والأحاديث الأخرى التى فى موضوعه يجتمع منها عدة دعوات:

١، ٢ ـ الدعاء بألا يهلك الله هذه الأمة بالقحط ولا بأعدائها.

٣ ـ الدعاء بألا يهلك الله هذه الأمة بالجوع.

٤ ـ الدعاء بألا يهلك الله هذه الأمة بالغرق.

٥ ـ الدعاء بألا تكفر هذه الأمة.

٦ ـ الدعاء بألا تجتمع هذه الأمة على ضلالة.

٧، ٨ ـ الدعاء بألا تهلك هذه الأمة بالرجم ولا بالخسف.

٩ ـ الدعاء بألا تهلك هذه الأمة بما أهلكت به الأمم السابقة.

وألاحظ على هذه الدعوات أنها تركز على:

أ ـ استقامة الأمة دينيًا.

ب ـ سلامة الأمة من الأعداء والجوائح.

وأتناول هذه الدعوات تفصيلاً:

١ ـ الدعاء بألا يهلك الله هذه الأمة بالقحط:

جاء فى الحديث الذى نشرحه هنا قوله ﷺ «سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة عامة» أى لا يهلكها الله بقحط عام، أى لا يميتها جوعًا.

وقد صرح بذلك فى حديث على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ قال «سألت ربى عز وجل ثلاث خصال فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة:

قلت: يا رب لا تهلك أمتى جوعًا. قال: هذه لك.

قلت: يا رب لا تسلط عليهم عدوًا من غيرهم يعنى أهل الشرك فيجتاحهم. قال: لك ذلك.

قلت: يا رب لا تجعل بأسهم بينهم فمنعنى هذه[1].

إنه ﷺ يسأل الله ألا يهلك أمته بالقحط، أى بعدم المطر، يسأله سبحانه ألا يسلط على أمته هذا السبب من أسباب الهلاك، وهو دوام الجفاف وعمومه حتى تهلك الأمة.

وهذا لا ينفى أنه يمكن أن يقع الجفاف فترة تحتمل ثم يرسل الله المطر، ولا ينفى أيضًا وقوع الجفاف فى منطقة من بلاد المسلمين دون المناطق الأخرى. إنه ﷺ يسأل الله ألا يسلط على الأمة القحط العام والطويل فهذا يؤدى إلى هلاكها.

ولقد استجاب الله تبارك وتعالى دعاء نبيه ﷺ، وطمأنه بأن أمته لن يأتيها الهلاك من باب القحط. وطمأن رسول الله ﷺ الأمة فأخبرنا بهذا الحديث والذى يفيد أن الله استجاب دعاءه، ولن تموت الأمة جوعًا.

وفى دعائه ﷺ بألا يهلك الله الأمة بالقحط، بيان لخطورة القحط، وتحذير للأمة منه، وأن عليها أن تبتعد عن كل ما يؤدى إليه، سواء كان ذلك السبب دينيًا أو تجريبيًا.

---

(١) أخرجه الطبرانى وقال فى مجمع الزوائد ٧/ ٢٢٢ فيه أبو حذيفة الثعلبى ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

• التحذير من أسباب القحط:

وأسباب القحط منها ما هو دينى، ومنها ما هو تجريبى، ولقد بين الإسلام النوعين.

أسباب القحط الدينية: بين الإسلام أن الذنوب أساس كل مصيبة قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [١].

كما بين أن الناس إذا استقاموا على دين الله أنعم الله عليهم فقال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٢].

ومن هاتين الآيتين يتضح أن القحط إنما يأتى بسبب الذنوب، وأنه بالتوبة والطاعة، يرفع الله هذا البلاء، ويحول الشدة إلى رخاء.

وجاءت الأحاديث فبينت الذنب الذى يورث القحط:

* فقال ﷺ «يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن[٣]، وأعوذ بالله أن تدركوهن:

- لم تظهر الفاحشة فى قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا.

- ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم.

- ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم

---

(١) سورة الشورى: ٣٠.

(٢) سورة الأعراف: ٩٦.

(٣) جواب إذا محذوف تقديره: فلا خير. أو فإنه يحل بكم من العقوبات ما سأخبركم به.

لم يمطروا.

- ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما فى أيديهم.

- وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم[١].

وواضح من هذا الحديث الشريف أن الابتلاء إنما سببه ذنب، وأن كل ذنب يجر بلاء معينًا، وأن القحط سببه نقص المكيال والميزان، وأيضًا منع الزكاة.

* وقال ﷺ: «ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين»[٢] أى: القحط.

وفى رواية «... ولا منع قوم الزكاة إلا حبس الله عنهم القطر»[٣] أى: المطر.

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب العقوبات ٢/ ١٣٣٢ رقم ٤٠١٩ والحاكم فى الفتن باب خمس بلاء أعاذ النبى منها المسلمين ٤/ ٥٤٠ وصححه ووافقه الذهبى. أخرجاه عن عبد الله بن عمر، وأخرج الطبرانى له شاهدًا عن ابن عباس وذلك فى المعجم الكبير حـ١١ ص٤٥ رقم ١٠٩٩٢ وتكلم عليه الهيثمى فى المجمع ٣/ ٦٥ والمنذرى فى الترغيب ١/ ٧١٩ ومفاد كلامهما أن هذا الشاهد إنما هو حديث حسن.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ٥/ ٢٦ رقم ٤٥٧٧ و٧/ ٤٠ رقم ٦٧٨٨ عن بريدة قال فى مجمع الزوائد ٣/ ٦٤، ٦٥ رجاله ثقات.

(٣) عند الحاكم فى الجهاد باب ما نقض قوم العهد... ٢/ ١٢٦ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

• سُبُل الخلاص من القحط:

وعلمنا الإسلام سُبُلَ الخلاص من القحط:

فقال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [١].

و«الجنات»: البساتين.

يبين سبحانه أن ذكر الله تعالى طريق تفريج الكروب، وإذا وقع القحط فأنسب الذكر الاستغفار.

ووقع القحط فى المدينة فى الفترة النبوية، شاء الله ذلك ليُعلِّم رسولُ الله ﷺ الأمة طريقة علاج القحط، وسبيل نزول الغيث، فصلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الاستسقاء، ودعا وألح على الله تعالى، حتى نزل الغيث، وتغير الحال من الضيق إلى الفرج.

فعن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت «شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر[٢]، فأمر بمنبر، فوضع له فى المصلى[٣]، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه. قالت عائشة: فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجب الشمس[٤]، فقعد على المنبر، فكبر وحمد الله عز وجل، ثم قال: إنكم شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله عز وجل أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم[٥]. ثم

---

(١) سورة نوح: ١٠ ـ ١٢.

(٢) عدم نزوله.

(٣) المصلى غير المسجد. المصلى يكون خارج البلد لصلاة العيدين، والاستسقاء، وما إلى ذلك.

(٤) حين أشرقت.

(٥) وذلك فى قوله تعالى ﴿ادعونى أستجب لكم﴾ سورة غافر آية ٦٠.

قال: الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، لا إله إلا الله، يفعل ما يريد، اللهم أنت الله، لا إله إلا أنت الغنى ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة. وبلاغًا[١] إلى حين. ثم رفع يديه، فلم يزل فى الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب - أو حول - رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل فصلى ركعتين، فأنشأ الله سحابة، فرعدت وبرقت، ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكِنّ[٢] ضحك ﷺ حتى بدت نواجذه[٣] فقال: أشهد أن الله على كل شىء قدير، وأنى عبد الله ورسوله»[٤].

وعن جابر بن عبد الله قال «أتيت النبى ﷺ يُوَاكِى[٥] فقال: اللهم اسقنا غيثًا[٦] مغيثًا[٧]، مريئًا[٨]، مريعًا[٩]، نافعًا غير ضار، عاجلاً غير آجل. قال: فأطبقت عليهم السماء»[١٠].

وهكذا تعلمت الأمة الإسلامية من دينها سبل الخلاص من القحط، وذلك بالصلاة والاستغفار، وكثرة الدعاء والتوبة.

---

(١) نتبلّغ به، ونتوصل به للعيش، فترة من حياتنا.

(٢) الكِنّ: ما يحتمى فيه من المطر والحر والبرد، من بيت أو مغارة أو ما إلى ذلك.

(٣) أضراسه.

(٤) أخرجه أبو داود فى الاستسقاء باب رفع اليدين فى الاستسقاء ٤/ ٣٤، وأخرجه أيضا ابن حبان، والحاكم وصححه، وصححه أيضًا ابن السكن، كذا فى عون المعبود.

(٥) من المواكاة والتوكؤ والاتكاء. والمعنى: يرفع يديه ويتحامل عليهما فى الدعاء.

(٦) مطرا.

(٧) يخرجنا من العطش إلى الرى.

(٨) مَرُؤَ الشراب: نفع وأفاد.

(٩) أى من المراعة وهو الخصب. وقيل الكثرة. وروى «مُرْبعا» أى منبتا للربيع.

(١٠) عمهم المطر. والحديث أخرجه أبو داود فى الموطن السابق. وهو حديث صحيح.

وهناك أسباب أخرى للخلاص من القحط لفت الإسلام الانتباه إليها، وهى:

١ ـ عدم الإسراف فى الماء:

فلقد نهى الإسلام عن الإسراف فى الماء، مهما كان كثيرًا عند المسلم، نهى عن الإسراف فى الماء حتى ولو كان مستعملاً فى عبادة، وضح ذلك رسوله ﷺ وبينه:

* فعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ فقال: ما هذا السرف؟ فقال: أفى الوضوء إسراف؟ قال: نعم وإن كنت على نهر جار»[1].

* وعن أبى الدرداء قال: اقصد فى الوضوء ولو كنت على شاطئ نهر[2].

* وعن هلال بن يساف ـ أحد التابعين ـ قال: كان يقال فى الوضوء إسراف ولو كنت على شاطئ نهر[3].

* وجاء أعرابى إلى النبى ﷺ يسأله عن الوضوء، فأراه الوضوء ثلاثًا ثلاثًا، ثم قال: «هكذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم»[4].

* وعن عبد الله بن مغفل قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء»[5].

(١) أخرجه ابن ماجه فى الطهارة باب ما جاء فى القصد فى الوضوء ١/ ١٤٧ رقم ٤٢٥ ونقل عن الزوائد: إسناده ضعيف لضعف حيى بن عبد الله، وابن لهيعة. وذكره ابن حجر فى الفتح وقال: إسناده لين. قلت: الشواهد تقويه، فله شاهد عن ابن عمر عند ابن ماجه فى بابه.

(٢، ٣) أخرجهما ابن أبى شيبة فى الطهارات باب من كان يكره الإسراف فى الوضوء ١/ ٦٦.

(٤) أخرجه النسائى فى الطهارة باب الاعتداء فى الوضوء ١/ ٧٥.

(٥) أخرجه أبو داود فى الطهارة باب الإسراف فى الوضوء ١/ ١٦٩.

ومعنى «يعتدون فى الطهور» يزيدون على ثلاث مرات فى الوضوء، أو يسرفون فى الماء، أو يبالغون فى الغسل إلى حد الوسواس.

وهكذا ينص الإسلام على عدم الإسراف فى الماء، حتى ولو كان فى عبادة، وحتى ولو كان مستعمله على شاطئ نهر. مما يدل على نهى الإسلام عن الإسراف مطلقًا.

٢ ـ عدم تضييع الماء:

فلقد نهى الإسلام عن تضييع الماء، ونبه المسلمين إلى الاقتصاد كل الاقتصاد فى استعماله:

* فعن عبد الله بن عباس قال «قال رسول الله ﷺ: من توضأ بعد الغسل فليس منا»[١].

* وعن أنس بن مالك رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: لا خير فى صب الماء. وقال: إنه من الشيطان. يعنى كثرة صب الماء فى الوضوء»[٢].

* وعن أبى الدرداء «أن النبى ﷺ توضأ من إناء على نهر، فلما فرغ أفرغ فضله فى النهر»[٣].

* وعن أبى الدرداء أن النبى ﷺ مر بنهر فتناول بقعب كان معه ثم قال: «يبلغه الله قومًا ينفعهم به»[٤].

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير ١١/ ٢٦٧ وهو فى الأوسط والصغير أيضا وفى إسناده سليمان بن أحمد، عُدِّل وجُرِّح بيد أن الشواهد تقويه. فله شاهد فى الكبير ١/ ٣٦١ ليس فيه سليمان هذا، والنصوص الأخرى تشهد له.

(٢) أخرجه أبو نعيم فى ذكر أخبار أصبهان ٢/ ٩٢.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير، وفيه أبو بكر بن أبى مريم اختلط وترك حديثه لاختلاطه مجمع ١/ ٢١٩.

(٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير وفيه أبو بكر بن أبى مريم، وهو ضعيف مجمع ١/ ٢٢٠ والحديثان يقوى كل منهما الآخر، وتقويهما نصوص الأمر بالاقتصاد ونصوص النهى عن الإسراف.

٣ ـ حماية مصادر مياه الأمة:

وحث الإسلام على حماية ثروات الأمة، فلا يصح أن تنهب ثروة، من أرض، أو مياه، أو معدن، أو ما إلى ذلك.

وسبيل حماية ثروات الأمة أن يكون الجهاد قائمًا، وأن يكون جيش الإسلام قويًا، وأن تسود روح الإسلام كل أفراد الأمة، حتى يفهم الجميع واجبه، وحتى يجاهد المجاهد من منطلق إسلامى.

إن الإسلام قد بين لنا أن الكفر لن يدخر وسعًا فى إيذاء المسلمين، وأنه لن يراعى أى حرمة، ولن يحفظ أى عهد، ولا رادع له إلا قوة المسلمين.

يقول سبحانه: ﴿ **كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً** ﴾ (١).

والمعنى: إن المشركين إذا قووا عليكم فإنهم لا يراعون قرابة ولا عهدًا، وإنما يبطشون ويقتلون، هذا شأنهم فلا بد أن نكون أقوياء لنراعى الحقوق والعهود، فهذا شأن المسلمين.

إن الإسلام يوصينا بالقوة، نحمى بها أمتنا، ونحمى بها الحق فى الأرض كلها.

يقول الله تعالى: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ (٢).

وهكذا دعا رسول الله ﷺ ربه ألا يهلك الأمة بالقحط، واستجاب الله دعاءه ﷺ، فلن تهلك الأمة بقحط عام.

أما القحط الخاص فقد بين الإسلام سبيل النجاة منه، وذلك بعدم

---

(١) سورة التوبة: ٨.

(٢) سورة الحج: ٤٠، ٤١.

نقص الكيل والميزان، وبعدم منع الزكاة، فهذا يجعل المطر ينزل فى حينه فإن تأخر فعلينا بكثرة الاستغفار، وكثرة الذكر والصلاة.

كما أن على الأمة أن تبذل أسباب النجاة من القحط، فلا إسراف فى الماء، ولا تضييع له، وعلى الأمة أن تحافظ على ممتلكاتها وثرواتها، وأهمها الماء.

٢ـ الدعاء بألا يمكن الله أحداً من قتل هذه الأمة:

ومن دعواته ﷺ فى الحديث الذى نشرحه «وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم» سأل ﷺ ربنا تبارك وتعالى أن لا يسلط علينا عدوًا من غيرنا يقتل ويأسر الأمة كلها.

ولقد جاءت هذه الدعوة فى معظم أحاديث هذا الموضوع، حتى إنها حسب الروايات التى جمعتها تقع فى خمسة عشرة حديثًا، وألفاظها كما هنا أو نحوه:

ففى حديث خباب «وسألته أن لا يظهر علينا عدوًا من غيرنا فأعطانيها»[1].

وفى حديث خالد الخزاعى «وسألته أن لا يسلط على عامتكم عدوًا يستبيحها، فأعطانيها»[2].

وفى حديث شداد بن أوس «... وأن لا يسلط عليهم عدوًا بعامة فيهلكهم بعامة»[3].

---

(١) عند ابن حبان ١٦/٢١٨ وسيأتى فى «الدعاء بأن لا تهلك هذه الأمة بما أهلكت به الأمم السابقة» ص ٢٥٨.

(٢، ٣) سيأتيان فى الدعوة التى منعها ﷺ ص ٢٧٤.

وكل الأحاديث تفيد أن رسول الله ﷺ سأل الله تعالى أن لا يسلط على أمته عدوًا يهلكها، فاستجاب الله سبحانه دعاء رسوله ﷺ، حتى جاء فى لفظ حديث الباب: «ولو اجتمع عليهم من بأقطارها» والمعنى: إن هذه الأمة لا يستطيع أعداؤها القضاء عليها، ولو اجتمع عليها كل أمم الأرض.

*** سبب هذه الدعوة:**

ويرجع السبب فى هذه الدعوة إلى أمرين:

١ ـ أنه جاءت آيات فى القرآن الكريم تبين أن أهل الكفر يكيدون لأهل الإسلام بكل صنوف الكيد، وأنهم أى أهل الكفر يحرصون على إيذاء المسلمين بكل ما أوتوا، وأنهم لو استطاعوا إيذاء المسلمين فلن يراعوا خلقًا ولا إنسانية:

إن القرآن الكريم بين أن الكفر على مر التاريخ قديمه وحديثه لا يرضى عن دين الله، وبين القرآن الكريم أن الأمم الماضية كاد أهل الباطل فيها لأهل الحق بكل أنواع الكيد، وأن أمتنا يكيد لها أعداؤها كذلك بكل صنوف الكيد:

يكيدون لها فى دينها: بمحاولة صرفها عن دينها، وإيقاعها فى الذنوب والمعاصى، وتحويلها إلى النفاق والكفر، إنهم يشككون المسلمين فى دين الإسلام، ويصورون الإسلام بصورة سيئة ـ هم فيها كذبة ومزورون ـ يريدون بذلك إبعاد الناس عنه.

يقول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾**[١].

(١) سورة آل عمران: ١٠٠.

ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١).

ويقول سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (٢).

هكذا يحرصون على قلب المسلمين إلى الكفر، وقلب فكرهم من الصواب إلى الخطأ وتحويل فطرتهم من الحق إلى الباطل.

ويقول سبحانه: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٣).

هكذا يتآمرون، وهكذا يكيدون، يسلمون ثم يكفرون لصرف المسلمين عن دينهم!!.

ويقول سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٤).

هكذا يريدون القضاء على الإسلام، ولكن الله يحفظ دينه، ويمكن لأهله، ويعز أولياءه.

ويكيدون لها عسكريًا: فيرصد الكفر المبالغ الطائلة لقتل المسلمين، وتشريدهم من بلادهم!.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٩.

(٢) سورة البقرة: ١٠٩.

(٣) سورة آل عمران: ٧٢.

(٤) سورة التوبة: ٣٢.

سبيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (١).

ويقول سبحانه: **﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾** (٢).

هكذا الكفار ينفقون أموالهم ليصرفوا المسلمين عن دين الله تعالى، ويقاتلون المسلمين قتالاً مستميتًا على أمل أن يردوهم إلى الكفر.

وتأمل فى الآية الأولى **﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾** ، إن هذا التعبير يدل على دوام الفعل **﴿يُنفِقُونَ﴾** وأنه سيتكرر كثيرًا.

وتأمل أيضًا فى الآية الثانية **﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾** إنه تعبير يدل على استمرار قتالهم المسلمين، وأنه سيقع كثيرًا.

ويقول سبحانه: **﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾**(٣).

يتمنى الكفار غفلة منا، ينتهزونها للهجوم علينا، **﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾**(٤)، هذه حالهم معنا، وهكذا يفكرون.

ويكيدون لها اقتصاديًا: فيحرصون على تدمير اقتصادنا، يبذلون فى ذلك كل السبل!.

يقول الله تعالى: **﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي**

---

(١) سورة الأنفال: ٣٦

(٢) سورة البقرة: ٢١٧.

(٣) سورة النساء: ١٠٢.

(٤) سورة البروج.

الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

هذا هو منهجهم ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ يرون أن لا حرج فى تضييع أموالنا، ولا حرج فى سفك دمائنا!.

ويقول سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

والمعنى: يأمر الله المؤمنين أن لا يتخذوا بطانة من غير المسلمين، وبطانة الرجل: أصفياؤه المطلعون على سره، يأمرنا سبحانه أن لا نسند أعمالنا لغير المسلمين ثم يعرفنا بغير المسلمين وأنهم ﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ أى لا يدخرون وسعًا فى إفساد أموركم. وأنهم ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ أى يتمنون ضرركم وإيذاءكم. وأنهم ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ فالعداوة منهم لكم ظاهرة، وما خفى منها أعظم، فكونوا منهم على حذر.

وهكذا تبين هاتان الآيتان أن الكفار لا يرون لمالنا حرمة، ولا يخلصون لنا، وإنما حريصون على إيذائنا، جادون فى إلحاق الضرر بنا، فلتكن ولايتنا فى أهل ديننا، فهذا مقتضى العقل والحكمة.

ويكيدون لها اجتماعيًا: فالكفار يد واحدة على المسلمين، يؤذونهم بكل صنوف الإيذاء، ولا يرون للمسلمين أى حق من قرابة أو عهد.

يقول الله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٣).

(١) سورة آل عمران: ٧٥.

(٢) سورة آل عمران: ١١٨.

(٣) سورة التوبة: ٨.

أى: كيف يكون للمشركين عهد وهم إذا غلبوكم لا يراعون حق قرابة، أو حق عهد أبرم بينكم وبينهم؟

ويقول سبحانه: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾[١].

ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[٢].

هكذا الكفار:

* لا حق للمسلم عندهم ولا حرمة له، يحرصون على إيذاء المسلمين بكل صنوف الإيذاء.

* ومما يزيد خطورة ذلك أنهم يتعاونون عليه، ويتضافرون فى سبيل تحقيقه. فهم مجتمعون على إيذاء المسلمين، متآمرون على القضاء عليهم، لا يراعون فى ذلك أية عهود أو مواثيق.

٢ ـ واقع عداء الكفر للإسلام:

أما السبب الثانى لهذه الدعوة ـ أى دعوة رسول الله ﷺ ألا يهلك الله أمة الإسلام بنصر عدو عليها ـ هو: واقع عداء الكفر للإسلام، فلقد كاد الكفر كثيراً للإسلام منذ أول يوم، وبلغ أن نظم المشركون جيوشهم وساروا إلى مدينة رسول الله ﷺ يريدون القضاء على الإسلام، وعلى رسول الله ﷺ!!.

إن قراءة الآيات الواردة فى غزوة بدر[٣].

والآيات الواردة فى غزوة الأحزاب «الخندق»[٤].

(١) سورة التوبة: ١٠.

(٢) سورة الأنفال: ٧٣.

(٣) راجع سورة آل عمران الآيات ١٢٣ ـ ١٢٧، وسورة الأنفال: ٥ ـ ١٩.

(٤) راجع سورة الأحزاب: ٩ ـ ٢٧.

تبين مدى طغيان الكفر على الإسلام.

وتلا ذلك تآمر الروم على الإسلام حتى كانت «غزوة تبوك».

وعلى الرغم مما كان بين الفرس والروم من عداوات إلا أن الفرس تعاونوا مع الروم فى حرب الإسلام.

ولقد اجتمع السببان أمام رسول الله ﷺ:

* الآيات القرآنية التى تبين اجتماع أهل الكفر على كيد الإسلام.

* وواقع الأمم الأخرى فى عدائها لأمة الإسلام.

اجتمع السببان أمام رسول الله ﷺ فسأل الله سبحانه أن لا يمكن أعداء المسلمين من القضاء عليهم، كما فى نص حديث الباب.

ودعوته ﷺ أن لا يسلط الله على الأمة أعداءها فيهلكونها، معناها أن أعداء أمة الإسلام لا يستطيعون إهلاكها جميعها، وهذا لا ينافى أن يغلب الأعداء قطرًا أو جماعة من الأمة.

• وهنا جاءت النصوص تبين للأمة سبيل النصر، سبيل نصر كل جماعة؛ سبيل عزها ونصرها:

فأمرنا الله تبارك وتعالى عدة أوامر تنتج النصر، منها:

* قول الله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾[1].

* وقوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا**

(١) سورة الأنفال: ٦٠.

تولوهم الأدبار ﴿١٥﴾ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ [١].

* وقوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴿٤٥﴾ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴿٤٦﴾ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط﴾ [٢].

* وقوله سبحانه: ﴿... ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴿٤٠﴾ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ [٣].

● وجاءت أحاديث فى السنة النبوية ترسم منهج النصر، منها:

* حديث عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: « ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ، ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى»[٤].

إنه ﷺ يبين الآية ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ يعنى تعلموا الرمى وإصابة الهدف بآلات الحرب والقتال. وهذا أمر عام لكل من استطاع من الصبية فمن أكبر منهم.

* وحديث عقبة بن عامر أيضًا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من علم الرمى ثم تركه فليس منا»[٥].

---

(١) سورة الأنفال: ١٥، ١٦.

(٢) سورة الأنفال: ٤٥ ـ ٤٧.

(٣) سورة الحج: ٤٠ ـ ٤١.

(٤) أخرجه مسلم فى الإمارة باب فضل الرمى والحث عليه ٤/ ٥٨١ طبعة الشعب.

(٥) أخرجه مسلم فى التخريج السابق.

والمعنى: على المسلم أن يتعلم إصابة الهدف بآلات القتال، وأن يدوم على ذلك. ولا يصح أن يهمل ذلك فينساه، فهذا من الذنوب الخطيرة.

* وحديث أبى هريرة وجابر عن النبى ﷺ قال «الحرب خَدْعة»[1].

والمعنى: إن المعارك ينبغى أن تنبنى على المخادعة لا المواجهة، وذلك لأن المخادعة تحقق الغرض دون إراقة دماء، أما المواجهة فإنها خطيرة فى إراقة الدماء.

* وحديث عبد الله بن أبى أوفى إن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام فى الناس خطيبًا فقال: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ثم قال: اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم، وانصرنا عليهم»[2].

وهذا منهج الإسلام لا يحرص المسلمون على إشعال المعارك، فإذا أشعلها العدو ثبت المسلمون وصبروا وسألوا الله إلى أن يمن الله بالنصر.

* وحديث سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ قال «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها. وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها. والرَّوْحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»[3].

---

(١) أخرجهما البخارى فى الجهاد باب الحرب خدعة ٦/١٥٨ رقم ٣٠٢٩، ٣٠٣٠.

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد باب كان النبى ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس ٦/ ١٢٠ رقم ٢٩٦٥، ٢٩٦٦ وفى باب لا تمنوا لقاء العدو ٦/١٥٦ رقم ٣٠٢٤ - ٣٠٢٦.

(٣) أخرجه البخارى فى الجهاد باب فضل رباط يوم فى سبيل الله ٦/ ٨٥ رقم ٢٨٩٢. وهو عنده أيضا فى باب الغدوة والروحة فى سبيل الله ٦/ ١٤ رقم ٢٧٩٤.

* وحديث زيد بن خالد أن رسول الله ﷺ قال «من جهز غازيًا فى سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيًا فى سبيل الله بخير فقد غزا»[١].

إن مرابطة المسلم بمعنى قيامه يحرس بلاد الإسلام من غارات الكفر ثوابه عظيم، حتى إن حراسة يوم أفضل من التصدق بكل أموال العالم.

وكذلك الرَّوْحة والغدوة فى سبيل الله، فكل جهد يُبذل فى الجهاد فصاحبه يجزيه الله خيرًا كثيرًا. و«الغدوة» الذهاب من أول النهار إلى منتصفه. و«الروحة» الذهاب من منتصف النهار إلى آخره.

وفى الحديثين أن الأجر عظيم لمن جاهد، وأما من لم يستطع الذهاب إلى الغزو فليجهز من لم يستطع التجهيز أو ليخلفه فى أهله بخير، فإنه بذلك يثيبه الله الكريم عظيم الثواب.

* وحديث جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[٢].

وفى حديث حذيفة قوله ﷺ: «وأعطانى ـ الله ـ العز والنصر والرعب يسعى بين يدى أمتى شهرًا»[٣].

وفى هذين الحديثين تطمين للأمة وإعلام لها بأن الله يمن عليها بأسباب النصر، من تثبيت المؤمنين، وإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين،

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد باب فضل من جهز غازيا أو خلفه بخير ٦/ ٤٩ رقم ٢٨٤٣.
(٢) أخرجه البخارى فى التيمم الباب الأول منه ١/ ٤٣٥ رقم ٣٣٥ وأخرجه مسلم فى أول كتاب المساجد رقم ٣/ ٥٢١، ٥/ ٥٢٣، ٦، ٧، ٨.
(٣) حديث حذيفة مذكور فى دعائه ﷺ بأن لا يهلك الله أمته بالجوع ص ١٧٣.

وفى القرآن الكريم نماذج لذلك كثيرة، سبق أن أحلت عليها[١].

وهكذا فأمة الإسلام لا يستطيع أعداؤها مهما كثروا وقووا أن يهلكوها هلاكًا عامًا، وعليها الالتزام بمنهج الله الذى جاء فى القرآن والسنة فإن هذا سبيل نصر الأفراد والجماعات والأمة، وسبيل عزتها ورفعتها.

وفى منهج الإسلام فى الجهاد مؤلفات[٢] ينبغى أن نحرص على دراستها، فإنها تورث الكثير من الاستقامة، وكريم الخصال.

وهكذا طمأن الله رسوله أن أمته حماها الله من القحط، ومن الأعداء، وطمأننا رسول الله ﷺ فى هذا الحديث عن هذين الأمرين.

أما قول الله تعالى له ﷺ «حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبى بعضهم بعضًا» وهى الجملة التى فى آخر حديث ثوبان الذى نحن بصدد شرحه، فهذه سأفردها بالدراسة، من حديث مستقل، فى بحث بعنوان «الدعوة التى مُنِعَها».

● وجه الإعجاز فى الحديث:

فى هذا الحديث يخبر رسول الله ﷺ أنه سأل الله لأمته أمرين:

١ ـ ألا يهلكها بالقحط.

٢ ـ وألا يهلكها بتسلط الأعداء عليها.

ويخبر ﷺ أن الله سبحانه وتعالى قد استجاب له الدعوتين، فلن تهلك أمته بالقحط، ولن يهلكها الأعداء مهما كانوا.

والمتأمل فى ظروف الأمة فى أيامه ﷺ يجد أن هذين الأمرين كان

(١) ص ١٦٥.

(٢) من أشهرها: كتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك المتوفى ١٨١.

وقوعهما هو الأغلب، فالصحارى واسعة وكثيرة، وإذا لم يغث الله أهلها بالأمطار أهلكهم القحط. وأعداء أمة الإسلام حولها أقوياء، فالفرس والروم يحيطون بها، وهم إمبراطوريتان قويتان.

ومن هنا يدعو ﷺ لأمته بالنجاة من هذين الأمرين الخطيرين، ويطمئننا بأن الله سبحانه قد استجاب دعوتيه.

وتمر السنون والسنون، والأمة بحمد الله ينجيها الله من هذين الخطرين، فلم تمت الأمة بالقحط، وكم من سنوات يقل فيها المطر أو ينعدم، إلا أن الله سبحانه وتعالى يسلم، وتبقى الأمة قوية محفوظة بحفظ الله تعالى.

أما وعد الله سبحانه وتعالى بألا يهلك هذه الأمة عدو، ولو اجتمع عليها كل من سواها، فهذا وعد حق، وخبر صدق، فكم تآمر الأعداء عليها، وكم تجبر المتكبرون الأعداء، والأمة تخرج أقوى وأصلب.

وتحقق ما أخبر به ﷺ تمامًا، فلا قحط يهلك الأمة، ولا الأعداء مهما كادوا.

تحقق ما أخبر به فهو رسول الله لا ينطق عن الهوى، وإنما ينطق حسبما يوحى الله تبارك وتعالى إليه.

إن كثيرًا من الأمم السابقة قد أهلك، منهم من أهلك بالرجم، ومنهم من أهلك بالغرق، إلى غير ذلك من الأسباب. ومن هنا سأل ﷺ ربه سبحانه وتعالى لأمته السلامة من الأخطار، ومنها ما فى هذا الحديث من القحط والأعداء، وأخبر ﷺ أن الله تبارك وتعالى قد استجاب له، فتحقق ما أخبر به على طول تاريخ الأمة. وهو أظهر ما يكون فى زماننا، زماننا الذى كثر فيه الكلام عن المياه، وتنافست فيه الدول على مصادر المياه، وأقام اليهود فى الأرض العربية، فأفسدوا، وحاربوا بسلاح المياه.

زماننا الذى تتكالب علينا فيه دول العالم، وتود القضاء على أمة الإسلام، والاستيلاء على مقدراتها. ولكن الأمة يحفظها الله ويسلمها بدينها، وأموالها.

إن المتأمل لهذا الحديث، وواقع الأمة، يسلم بإعجاز هذا الحديث، وأنه مما مَنَّ الله به على أمة الإسلام، وأنه من المعجزات التى ظهرت وفق ما أخبر ﷺ، فسبحان من علمه وصلى الله وسلم عليه.

• الدروس المستفادة من الحديث:

١ ـ قوة الإسلام وخلوده، فهو الدين الذى اختاره الله للبشرية منذ بعثة رسول الله محمد ﷺ إلى قيام الساعة.

ومن قوة الإسلام وخلوده أن أمته باقية، لن يستوعبها سبب مهلك، وإنما تظل قائمة بهذا الدين إلى قيام الساعة. طمأننا بذلك ربنا على لسان رسوله ﷺ.

٢ ـ شفقة رسول الله ﷺ على أمته ما كانت الحياة الدنيا. وهناك أحاديث أخرى تدل على شفقته عليها فى الآخرة، وصلى الله وسلم عليه من نبى قال الله فيه: ﴿ **بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[1].

ومن شفقته ﷺ هاتان الدعوتان، وهما تعمان الأمة فى كل جيل، ونحن داخلون فى هذه الدعوة، فلن يهلك جيلنا قحط، ولا عدو. دعا لنا بذلك ﷺ قبل أن نخلق بمئات السنين، فصلى الله وسلم وبارك عليه من نبى كريم.

٣ ـ قدر رسول الله ﷺ عند ربنا سبحانه وتعالى، ففى هذا الحديث

(١) سورة التوبة: ١٢٨.

يسأل ﷺ رب العزة، يسأله لأمته أمورًا عامة عظيمة، ويستجيب سبحانه وتعالى دعاء عبده وحبيبه ورسوله، وذلك من فضل الله وكرمه، ومن إكرامه لرسوله وأمة الإسلام.

٤ ـ لن يهلك الله هذه الأمة بقحط عام، فلقد سأل رسول الله ﷺ ربنا أن يجيرنا من هذا، واستجاب الله سبحانه وتعالى دعوة رسوله. فلن تهلك الأمة بقحط يعمها، وعليها مجموعات وأفراد أن تحافظ على الماء، فإن عدمه استعاذ منه رسول الله ﷺ لما فيه من الهلاك، إن الماء أمر عظيم فى حياة الأمم، فعلينا الاهتمام به بكل أوجه الاهتمام.

٥ ـ لن يهلك الله هذه الأمة بعدو، فلقد دعا رسول الله ﷺ ربه فاستجاب سبحانه لرسوله، وطمأنه والأمة أنه لن يستطيع عدو مهما كان أن يهلك هذه الأمة.

٦ ـ هذه الأمة عزيزة منصورة، سيبلغ ملكها الكثير والكثير من البلاد، وستملك الكثير من الثروات، كما فى صدر الحديث الذى معنا «إن الله زَوى لى الأرض فرأيت مَشارقها ومغاربَها، وإن أمتى سيبلغ ملكُها ما زُوى لى منها، وأُعطيتُ الكنزين الأحمر والأبيض»، وكما فى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[1].

٧ ـ التحذير من اختلاف طوائف الأمة واقتتالها، فهذا الذى يخشى عليها، «حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبى بعضهم بعضًا»[2].

* * *

(١) سورة الأنبياء: ١٠٥.

(٢) ستأتى هذه الدعوة بتوسع فى عنوان الدعوة التى منعها ص ٢٧٤.

٢ - الدعاء بأن لا يهلك الله هذه الأمة بالجوع

عن معاذ قال: «صلَّى النبيُّ ﷺ صلاةً، فأحسنَ فيها الركوعَ والسجودَ والقيامَ، فذكرتُ ذلك له، فقال: هذه صلاةُ رَغْبةٍ ورَهْبةٍ، سألت ربى فيها ثلاثًا فأعطانى اثنتين، ولم يعطنى واحدة. سألته أن لا يَقْتُلَ أمتى بسنة جوعٍ فيَهْلكوا، فأعطانى. وسألته أن لا يُسَلِّط عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانى. وسألته أن لا يجعلَ بأسَهم بينهم، فمنعنى»[١].

وعن حذيفة بن اليمان قال «غاب عنا رسولُ الله ﷺ يومًا فلم يخرج حتى ظننا أنه لن يخرج، فلما خرج سجد سجدة، فظننا أن نَفْسَهُ قد قبضت فيها، فلما رفع رأسه قال: إن ربى تبارك وتعالى استشارنى فى أمتى: ماذا أفعل بهم؟ فقلت: ما شئتَ أى[٢] رب هم خلقُك وعبادُك. فاستشارنى الثانية فقلت له كذلك[٣]. فقال: لا أُحزنك فى أمتك يا محمد. وبشَّرنى أن أول من يدخل الجنة من أمتى معى سبعون ألفًا، مع كل ألف سبعون ألفًا، ليس عليهم حساب. ثم أرسل إلىَّ فقال: ادع تُجَبْ، وسل تُعْطَ. فقلت لرسوله[٤]: أَوَمُعْطِىّ ربى سُؤْلى[٥]؟ فقال: ما أرسلنى إليك إلا ليُعطيَك. ولقد أعطانى ربى عز وجل ولا فخر[٦]، وغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر، وأنا أمشى حيًا صحيحًا. وأعطانى أن لا

(١) أخرجه أحمد ٣٦/ ٤٢١ وقال محققه: صحيح لغيره. وخرجه من الطبرانى ومن عدة مواطن من أحمد.

(٢) أى حرف نداء، يعنى: يا رب.

(٣) أى كما قلت فى المرة الأولى «ما شئت أى رب، هم خلقك وعبادك».

(٤) من الملائكة.

(٥) أى أيستجيب لدعائى؟

(٦) أى اختصنى بكثير من الفضائل، لا أقول هذا فخرًا، وإنما تحدثا بنعم الله علىّ.

تجوع أمتى، ولا تُغْلَب. وأعطانى الكوثر فهو نهر من الجنة يسيل فى حوضى. وأعطانى العزّ والنصر، والرعب يسعى بين يدى أمتى شهراً. وأعطانى أنى أول الأنبياء أدخل الجنة، وطيّب لى ولأمتى الغنيمة، وأحلّ لنا كثيراً مما شدّد على مَنْ قَبْلَنا، ولم يجعل علينا من حرج»(١).

• المعانى:

«صلى النبى ﷺ صلاة» واضح أنها ليست فريضة، وإنما هى صلاة نافلة، صلاها وحده ﷺ.

«فأحسن فيها الركوع والسجود والقيام» أى أنه زاد على المعتاد، فأطال الركوع والسجود والقيام على غير العادة. والمعتاد منه ﷺ حسن الركوع والسجود والقيام، لكنه فى هذه الصلاة كان أحسن، أى كان أطول وأخشع فيها، كما جاء فى حديث حذيفة «سجد سجدة، فظننا أنه نَفْسه قد قُبضت فيها» وهذا واضح فى أنه أطال كثيراً. وهذا التطويل مشروع، لأنه ﷺ كان يصلى وحده.

«صلاة رغبة ورهبة» أى أنه ﷺ صلى، وحاله مع الله بين الرجاء والخوف، يرجو رحمة الله سبحانه، ويخاف غضبه عز وجل. كما قال الله سبحانه فى حق زكريا عليه السلام وأهله: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾(٢).

«سألته ألا يقتل أمتى بسنة جوع» السنة: القحط. وأضافها إلى الجوع لما بينهما من تلازم. فكل قحط يورث جوعًا.

---

(١) أخرجه أحمد ٣٨/ ٣٦١ وقال محققه: إسناده ضعيف. وذكر له شواهد، وذكره فى مجمع الزوائد ٢/ ٢٨٧ وقال: فيه ابن لهيعة، فيه كلام.

(٢) سورة الأنبياء: ٩٠.

وحينما يستعيذ ﷺ من الجوع، فإنما يستعيذ من الجوع الشديد، المؤثر على صحة الإنسان وحياته.

وهو هنا يستعيذ بالله من هذا الجوع أن يعم الأمة.

«غاب عنا رسول الله ﷺ يومًا» أى مكث فى بيته، ولم يخرج لأصحابه، وظاهره أنه مكث فى بيته يتعبد ويدعو الله تعالى.

«سجد سجدة» أى صلى صلاة، من باب تسمية الكل باسم الجزء، سمى الصلاة بأشرف أجزائها، وهو السجود.

«فظننا أن نَفْسه قد قُبضت فيها» أى أنه ﷺ قد مات. وذلك لطول سجوده.

«استشارنى فى أمتى» هذا بيانه ما بعده، وهو قوله ﷺ «ماذا أفعل بهم» أى أن الله تبارك وتعالى سأل رسول الله ﷺ: ماذا أفعل بأمتك؟ سمى ﷺ هذا استشارة.

وهذا السؤال من الله لرسوله كله كرم من الله تعالى لرسوله ﷺ، ففيه إعلاء لقدره وإسعاد لنفسه، ومنطلق هذا علم الله بحرص رسوله على رحمة الله تعالى أمة الإسلام.

• راوى الحديث:

معاذ بن جبل: معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ، أنصارى، خزرجى. من أوائل من أسلم من أهل المدينة، ولم يكتف بأن أسلم، وإنما هاجر إلى رسول الله ﷺ فى مكة، وشهد بيعة العقبة، والتى فيها بايع أهلُ المدينة رسولَ الله ﷺ على أن يهاجر إليهم، وأن يكونوا معه على من عاداه، حضر معاذٌ بيعة العقبة الثانية، وكان لم يكمل العشرين سنة.

وشهد معاذ مع رسول الله ﷺ جميع الغزوات.

وكان مجتهدًا فى أخذ القرآن والعلم، والعلم عند السلف يقترن به العمل، وهكذا يجب أن يكون عند كل الأمة. ولذا تقدم معاذ فى العبادة جدًا، وكان مستجاب الدعوة.

فعن عبد الله بن عمرو قال «سمعت النبى ﷺ يقول: خذوا القرآن من أربعة؛ من عبد الله بن مسعود، وسالم[(١)]، ومعاذ[(٢)]، وأبى بن كعب»[(٣)].

إن هذا الحديث يبين درجة هؤلاء الصحابة، وأنهم اشتهروا بحفظ القرآن الكريم، واشتهروا أيضًا بتعليمه، إنهم أصبحوا أعلامًا فى حفظه، وإتقان قراءته، وتعليمه، ومن هؤلاء الصحابى الجليل معاذ بن جبل الذى نحن بصدد الحديث عنه.

وعن أنس بن مالك قال «قال رسول الله ﷺ: أرحم أمتى أبو بكر، وأشدها فى دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمها بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأقرؤها لكتاب الله أبىٌّ، وأعلمها بالفرائض زيد ابن ثابت، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[(٤)].

يشهد رسول الله ﷺ هذه الشهادة لمعاذ بن جبل، أعلم الصحابة بالحلال والحرام! إنه على دراية عالية بفقه الإسلام.

ولقد ظهر هذا عمليًا فى دولة الإسلام، فجعل رسول الله ﷺ معاذًا هذا خليفته على أهل مكة حين فتحها، وأمره أن يعلم الناس القرآن وأن

---

(١) مولى حذيفة.

(٢) ابن جبل الذى أترجم له هنا.

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن باب القراء من أصحاب النبى ﷺ ٩/ ٤٦ رقم ٤٩٩٩.

(٤) أخرجه أحمد ٢٠/ ٢٥٢ رقم ١٢٩٠٤ وخرجه محققه من عدة مصادر، وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

يفقههم. وأرسله إلى بلاد اليمن، يعلمهم دينهم، ويفتيهم، ولقد انتفع معاذ بهذا، فلقد علمه رسول الله ﷺ أصول الفقه، وأعلا العبادة: يقول رضى الله عنه «لما بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قال لى: كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بما فى كتاب الله. قال: فإن لم يكن فى كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم يكن فى سنة رسول الله؟ قال: أجتهد رأيى، لا آلو[1]. قال: فضرب رسول الله ﷺ صدرى، ثم قال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله»[2].

هكذا سأله رسول الله ﷺ هذا السؤال، الذى بلور فيه معاذ أصول فقهه، وعليه بنى فقهاء الأمة عملهم على طول عمر الأمة. ولقد كان معاذ من سلامة الفكر بالدرجة التى استحسنها منه رسول الله ﷺ، وحمد الله على توفيق معاذ هذا التوفيق.

وعلمه رسول الله ﷺ أيضًا مزيدًا من أصول الفقه، وأصول الأخلاق، كما فى قوله ﷺ له ولأبى موسى الأشعرى حينما بعثهما إلى اليمن «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا»[3].

إنه ﷺ يعلمه بذلك الكثير من الخير، والخطاب وإن حظى بشرفه معاذ وأبو موسى فهو تعليم لكل الأمة، يعلمنا ﷺ بكثير من خصال الخير فى كلمات موجزة، غاية فى الدقة والسمو.

---

(١) اى: لا أقصِّر.

(٢) أخرجه أحمد ٣٦/٣٣٣ رقم ٢٢٠٠٧ وفى غير هذا الموضع، وأخرجه أيضًا أبو داود والترمذى وغيرهم. وهو فى بعض طرق عن بعض أصحاب معاذ، وفى البعض الآخر عن معاذ، كما عند ابن أبى شيبة ٧/٢٣٩ و ١٠/١٧٧ والطيالسى ٥٥٩، وهو حديث حسن.

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن ٨/ ٦٠ رقم ٤٣٤١، ٤٣٤٢.

لقد تقدم معاذ فى العلم والعبادة، وفى الجهاد ونصرة الإسلام، حتى أثنى عليه رسول الله ﷺ، وذلك فيما أخرجه الأئمة عن أبى هريرة قال «قال رسول الله ﷺ: نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل معاذ بن عمرو بن الجموح، نعم الرجل معاذ بن جبل، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح، وبئس الرجل حتى عد سبعة»[١].

وأيضًا فيما أخرجه الأئمة عن معاذ قال «أخذ رسول الله ﷺ بيدى يومًا ثم قال: يا معاذ، والله إنى لأحبك[٢]. فقلت له: بأبى وأمى[٣] يا رسول الله وأنا والله أحبك. فقال: أوصيك يا معاذ لا تَدَعَنَّ فى دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[٤].

ومناقب معاذ كثيرة متنوعة ما بين علم، وعمل، ما بين زهد وورع. ولم يطل عمره رضى الله عنه، وإنما مات فى ريعان الشباب، مات سنة ثمانى عشرة، وهو ابن ست وثلاثين سنة على أشهر الأقوال. رضى الله عنه وعن أهل لا إله إلا الله أجمعين.

• راوى الحديث الثانى:

حذيفة بن اليمان: وقد تقدمت ترجمته[٥].

---

(١) أخرجه ابن حبان فى مناقب الصحابة باب شهادة المصطفى ﷺ لمعاذ بن جبل بالصلاح ١٦/ ٧١ رقم ٧١٢٩.

(٢) اللام فى «لأحبك» لام التوكيد، تفيد أنه ﷺ يحبه حبا أكيدا.

(٣) أى أفديك بأبى وأمى. أى أنت يا رسول الله أغلى عندى من كل شيء.

(٤) أخرجه الحاكم فى معرفة الصحابة باب مناقب أحد الفقهاء الستة. معاذ بن جبل ٣/ ٢٧٣ وصححه، وأقره الذهبى، وأخرجه أيضًا أبو داود، والنسائى وغيرهم.

(٥) فى الجزء الأول ص١٧٥ شرح حديث «يأتى على الناس زمان ليس فيه أعز من ثلاث: درهم من حلال...».

● **الشرح:**

هذه الدعوة مرتبطة بالدعوة السابقة ـ دعوته ﷺ أن لا يهلك الله أمته بالقحط ـ ذلك أن السلامة من القحط سلامة من الجوع والعطش. والسلامة من الجوع سلامة من القحط، وسلامة من العطش، فإن الأرض لا تنبت إلا بالرى، وهذا يكون بعد اكتفاء الإنسان من الماء.

إنه ﷺ يسأل الله أن لا يهلك أمته بالكوارث العامة من قحط، أو جوع، يسأل الله ألا يعم الجوعُ الأمةَ، أما أن يجوع شخص أو أسرة فعلى الآخرين أن يتعاونوا معه، ولو جاعت منطقة فعلى المناطق الأخرى أن تتعاون معها، وعلى الجميع أن يتقى أسباب الجوع دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

*** أسباب اكتفاء الأمة:**

وفى سؤال رسول الله ﷺ ربه ألا يهلك الأمة بالجوع، دليل على خطورة الجوع، وأنه يمكن أن يعم الكثير من البشر، وفى هذا تحذير للأمة، فعليها أفرادًا وجماعات أن تأخذ بالأسباب المؤدية إلى عدم الجوع، وإلى الاكتفاء، إن سؤال رسول الله ﷺ ربه ألا يهلك الأمة بالجوع، إنما هى دعوة للأمة بأسرها، فلن تموت الأمة كلها جوعًا، وهذا لا يمنع أن يجوع البعض، فليحذر الجميع الجوع.

ولقد رسم الإسلام المنهج للاكتفاء من الأغذية، والذى يتمثل فى:

١ ـ التحذير من أسباب الجوع.

٢ ـ الحث على أسباب الرخاء.

أولاً: التحذير من أسباب الجوع:

سبق فى الكلام على الاستعاذة من القحط أن ذكرت من النصوص ما يفيد أن الذنوب أساس البلاء، وأن الطاعة باب الرخاء. وذكرت هناك حديث رسول الله ﷺ «يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن. الحديث» وهذه الخمس التى ذكرها ﷺ كلها أسباب للجوع:

* فقوله «ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخِذوا بالسنين[١]، وشدة المئونة[٢]، وجور السلطان عليهم»[٣].

فيه بيان أن نقص المكيال والميزان من أسباب القحط، وضيق العيش.

* وقوله «ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا».

فيه بيان لسبب آخر من أسباب الجوع، فَمَنْعُ الزكاة يمنع الأمطار، ومنع الأمطار يؤدى إلى الجوع والعطش.

وهذان السببان ظاهران فى الجوع، وهما سببان مباشران، بيّنهما ﷺ لتَحْذَرَهُمَا الأمة.

أما بقية الخمسة التى حذّر منها ﷺ فى الحديث، فإنها أيضًا أسباب للجوع، لما تؤدى إليه، أى أنها أسباب للجوع لكنها غير مباشرة:

* فقوله ﷺ «ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم».

إن تسليط العدو يورث الجوع باعتبار ما تُكَلِّفُه الحروب، وباعتبار استيلاء العدو على بعض ما لدى الأمة من خير.

---

(١) القحط والذى هو قلة الماء.

(٢) ضيق العيش.

(٣) تقدم الحديث كاملاً ص ١٥٢، ١٥٣.

* وقوله ﷺ «وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم».

هذا ـ عدم العمل بما أنزل الله ـ أيضًا سبب من أسباب الجوع فاختلاف جماعات الأمة، مما يضيق الأرزاق، ويعطل الأعمال، ويدمر الأموال.

* وقوله ﷺ «لم تظهر الفاحشة فى قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا».

وفى هذه الجملة من الحديث سببان للجوع، الأول: شيوع الفاحشة، فهذا يدمر الأخلاق، ويضيع المال، وهذا يؤدى إلى الجوع. أما الثانى: فهو ما يترتب على الفواحش من الأمراض وهذه أيضًا تؤدى إلى الجوع.

إن الفواحش تقضى على الإنتاج والعمل، ويترتب عليها الأمراض وهى أيضًا تدمر قوة الأمة، وكل ذلك يؤدى إلى فقر الأمة وجوعها وضعفها.

وهكذا يتضح أن النصوص بينت أسباب الجوع، ويجمعها كلمة «المعاصى» فالمعاصى هى أسباب الجوع، بل وهى أسباب كل مصيبة. والعكس صحيح، فالطاعات أسباب الغنى والرخاء، بل وأسباب كل نعمة.

نعم هناك ذنوب ألصق بالجوع، فالسلبية الاجتماعية من:

* نقصان الكيل والميزان، والذى هو ظلم وتضييع لحقوق الآخرين.

* ومنع الزكاة، والذى هو معصية وأنانية.

هذان الذنبان أدخل فى نزول بلاء الجوع.

• وهناك أسباب أخرى للجوع حذر الإسلام منها:

*** التحذير من الظلم**، قال الله تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [(١)].

*** التحذير من تضييع أموال الناس**، فحرم كل أسباب ذلك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [(٢)].

*** وحذر الإسلام من تضييع المسلم ماله**، فحذر من الإسراف والتبذير، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [(٣)].

وقال سبحانه: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [(٤)].

• وحذر الإسلام من افتعال أسباب الجوع:

*** فحرم الاحتكار:**

فعن معمر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: «لا يحتكر إلا خاطئ»[(٥)]. فمن حبس الأقوات ليرتفع سعرها فهو آثم.

*** وحرم المغالاة:**

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبتع المرء

(١) سورة إبراهيم: ٤٢.

(٢) سورة النساء: ٢٩.

(٣) سورة الأعراف: ٣١.

(٤) سورة الإسراء: ٢٦، ٢٧.

(٥) أخرجه مسلم فى المساقاة باب تحريم الاحتكار فى البيع ٣/١٢٢٨ رقم ١٣٠.

على بيع أخيه، ولا تناجشوا، ولا يبع حاضر لباد»[١].

فلا يجوز للمسلم أن يتدخل فى صفقة قد تمت، فلا يغرى البائع بأنه يشترى بأغلى، ولا يغرى المشترى أن يبيع له مثلها بأرخص.

ويحرم النجش، وهو الزيادة فى ثمن السلعة وهو لا يريد شراءها، إنما يريد أن يوقع غيره فى الغلاء.

وعلى الحاضر أى المقيم أن يترك القادم من البادية بسلعة، يتركه يبيعها بنفسه، فذلك أرجى لعدم المغالاة، إذ البادى يريد سرعة البيع ليعود إلى دياره، أما المقيم فإنه يرفع السعر.

*** وحرم الربا:**

قال تعالى: ﴿**وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾[٢].

وعن جابر بن عبد الله قال «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: هم سواء»[٣].

*** وحرم الغش:**

فعن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا»[٤].

وهكذا عالج الإسلام قضية الجوع، فلن تبتلى الأمة بالجوع كظاهرة تعم الأمة، فلقد دعا رسول الله ﷺ لها بذلك، واستجاب الله تبارك وتعالى.

أما الجوع الذى قد يقع للبعض فإن امتثال الأمة منهج الإسلام كفيل بتأمينها من ذلك.

---

(١) أخرجه البخارى فى البيوع باب لا يشترى حاضر لباد بالسمسرة ٤/ ٣٧٢ رقم ٢١٦٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٧٥.

(٣) أخرجه مسلم فى المساقاة باب لعن آكل الربا ٣/ ١٢١٩ رقم ١٠٦/ ١٥٩٨.

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان باب قول النبى ﷺ «من غشنا فليس منا» ١/ ٩٩ رقم ١٦٤/ ١٠١.

ثانيًا: الحث على أسباب الرخاء:

وبجانب تأمين الإسلام الأمة من أسباب الجوع، فإنه أرسى المنهج الذى يوفر للأمة حياة الرخاء، والذى يتمثل فى:

١ ـ الحث على العمل والكسب:

وهذا باب واسع، متعدد المناحى، فما بين الزراعة، وإحياء الموات، إلى الصناعة وتشكيل المادة، إلى الاستفادة باليابس والماء، تستخرج ثروات الجبال، وثروات البحار، إلى التجارة ونقل السلع، إلى وضع منهج لكل ذلك، فللزراعة أصولها التى تورث الكثرة، وكذا للصناعة والتجارة. وهناك التأهيل الإسلامى للفرد المسلم، الذى يجعله خيرًا فى كل ذلك، كإتقان العمل، والإخلاص، واقترانه بالعبادة.

يقول الله تبارك وتعالى: **﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾** (١).

هذا أمر بالسعى فى طلب الرزق، لكنه السعى المقرون بذكر الله تعالى، مما يجعله فى حدود الحل والاستقامة.

* وقال سبحانه: **﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾** (٢).

* وأثنى ربنا على الصالحين من عباده فقال: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن**

---

(١) سورة الجمعة: ١٠.

(٢) سورة البقرة: ٢٧٥.

﴿يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [١] كانوا يتجرون، ويتبايعون، وهذا لم يشغلهم عن طاعة الله تعالى، فمدحهم سبحانه بذلك. مدحهم على الرغم من طلب الرزق بالتجارة.

* وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

وفى ذلك أمر بالاستفادة بالبحار، من اصطياد سمكها، واستخراج لآلئها، وركوب ظهورها بالسفن للتجارة وغيرها.

وقال سبحانه: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [٣] وهذا أمر بالاتجار، والسعى فى البلاد.

يقول رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[٤].

وقال ﷺ «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه»[٥].

هكذا يحث الإسلام على العمل والاعتماد على النفس، مما يوفر الرخاء للفرد والأمة. ويبتعد بالجميع عن الجوع.

---

(١) سورة النور: ٣٦ ـ ٣٨.

(٢) سورة النحل: ١٤.

(٣) سورة قريش: ١، ٢.

(٤) أخرجه البخارى فى البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده ٣٠٢/٤ رقم ٢٠٧٢ عن المقدام بن معدى كرب.

(٥) أخرجه البخارى فى الموضع السابق رقم ٢٠٧٤ عن أبى هريرة.

٢ ـ الحث على الاقتصاد:

وفى حين يحث الإسلام على العمل والكسب فإنه يحث على:

● **الاقتصاد فى المعيشة:** فينفق المال بقدر، وتكون المعيشة برفق، مما يورث الرخاء، وسعة العيش.

* يقول الله تعالى: ﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ (١).

ينهى سبحانه وتعالى عن التقتير والإسراف، فخير الأمور الوسط.

* ويقول رسول الله ﷺ: «السمت الحسن، والتؤدة، والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءًا من النبوة»(٢).

يوصى ﷺ بالسمت الحسن، وهو: المنهج القويم، والطريقة المرضية. كما يوصى بالتؤدة وهى: التأنى والتفكر. كما يوصى بالاقتصاد وهو: الاعتدال والتوسط فى الأمور كلها، ففى النفقة يكون المسلم بين الإسراف والبخل. وهذه الثلاث ـ السيرة الحسنة، والتأنى، والتوسط ـ مما أوصى به الأنبياء، وهى من سيرهم.

● **ويحث الإسلام أيضًا على الحفاظ على المال وعدم إضاعته:**

يقول ﷺ «إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال(٣)، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»(٤).

---

(١) سورة الإسراء: ٢٩.

(٢) أخرجه الترمذى فى البر باب ما جاء فى التأنى والعجلة ٦/ ١٥٠ عن عبد الله بن سرجس، وحسّنه.

(٣) معناه: الخوض فى أخبار الناس، والكلام فيما لا يفيد.

(٤) أخرجه مسلم فى الأقضية ٣/ ١٣٤١ رقم ١٣ عن المغيرة بن شعبة.

• ويحث الإسلام كذلك على الادخار:

فها هو رسول الله ﷺ يزور سعد بن أبى وقاص فى مرضه، فيقول له سعد «يا رسول الله، أوصى بمالى كله؟ فيقول ﷺ: لا.

فيقول سعد: فالشطر[1]؟

فيقول ﷺ: لا.

فيقول سعد: فالثلث؟

فيقول ﷺ: فالثلث. والثلث كثير.

ثم يوضح ﷺ سبب ذلك فيقول: إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس فى أيديهم. وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة التى ترفعها إلى فىّ[2] امرأتك. وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناس، ويضر بك آخرون. ولم يكن له يومئذٍ إلا ابنة»[3].

إن رسول الله ﷺ يبين للأمة أن الرجل عليه أن يحرص على الادخار وأن يوفر لأهله قوتهم، ولأن يتركهم أغنياء فهذا أفضل من أن يتركهم فقراء يسألون الناس. حتى إن سعد بن أبى وقاص يزيد أن يوصى بماله كله للفقراء، فنهاه رسول الله عن ذلك. فيريد أن يوصى بنصف ماله. فيأبى رسول الله، فيقترح أن يوصى بالثلث. فيوافق رسول الله على الثلث معللاً أن ترك الورثة أغنياء خير من أن يذرهم فقراء.

---

(١) النصف.

(٢) فم.

(٣) أخرجه البخارى فى الوصايا باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس ٥/٣٦٣ رقم ٢٧٤٢.

٣ ـ الحث على تكافل الأمة:

وفى الوقت الذى حث الإسلام على العمل والكسب، وحث على الاقتصاد وتنظيم المال، فإنه حث على روح التعاون بين أفراد الأمة، ذلك أن العمل وتنظيم الحركة المالية إنما يكون للأقوياء، أما الضعفاء فإن الإسلام لم يغفلهم، وإنما جعل لهم حقًا فى مال الأغنياء، يعالج بذلك نفوس الأقوياء من الشح والحرص، ويوفر بذلك أسباب الحياة للضعفاء، وبذلك يقضى على كثير من الأمراض النفسية، والمشاكل الاجتماعية.

*** فأمر بالزكاة:**

* يقول الله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[١].

* ويقول سبحانه فى وصف الصالحين: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾[٢].

*** ورغَّب فى الصدقة؛ والصدقة ما زاد عن الزكاة المفروضة:**

فقال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[٣].

*** ورغَّب فى القرض «السلف»:**

«يقول رسول الله ﷺ: من أقرض لله مرتين، كان له مثل أجر أحدهما لو تصدق به»[٤].

---

(١) سورة النور: ٥٦.

(٢) سورة المعارج: ٢٤، ٢٥.

(٣) سورة سبأ: ٣٩.

(٤) أخرجه ابن حبان فى البيوع باب الديون ١١/٤١٨ رقم ٥٠٤٠ عن عبد الله بن مسعود. وخرجه محققه، وحسّنه.

*** ورغَّب فى التمهل على المعسر:**

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم فقالوا: أعملت من الخير شيئًا؟ قال: لا. قالوا تذكّر. قال: كنت أداين الناس فآمر فتيانى أن يُنْظروا المعسر، ويتجوّزوا عن الموسر. قال: فقال الله تعالى تجوّزوا عنه»[٢].

وإنظار المعسر: إمهاله حتى يستطيع السداد.

والتجوز عن الموسر: ترك بعض ما عليه.

*** ورغَّب فى عمل الخير عمومًا، وحذر من الإمساك:**

«يقول رسول الله ﷺ: ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما، اللهم أعط منفقًا خلفا. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفا»[٣].

*** ورغَّب فى إطعام الطعام:**

«سأل رجل رسول الله ﷺ: أى الإسلام خير؟ فقال ﷺ: تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[٤].

وبتحذير الإسلام من أسباب الجوع. وحثه على أسباب الرخاء، والمتمثلة فى هذه الأمور الثلاثة:

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٠.

(٢) أخرجه البيهقى فى البيوع باب ما جاء فى إنظار المعسر ٥/٣٥٦ التقى مع البخارى ومسلم فى شيخهما وقد أخرجاه فى الصحيح عن حذيفة بن اليمان.

(٣) أخرجه البخارى ومسلم.

(٤) أخرجه البخارى ومسلم فى الإيمان.

١ ـ الحث على العمل والكسب.

٢ ـ والحث على الاقتصاد فى المعيشة.

٣ ـ والحث على تكافل الأمة وتعاونها.

قضى الإسلام على مشكلة جوع الفرد والجماعة. أما جوع الأمة فلقد طمأن الله رسوله والأمة بأنه لن يكون. دعا رسول الله ﷺ ربه ألا يهلك الأمة جوعًا، واستجاب الله تبارك وتعالى.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

إن الإنسانية وكل المخلوقات تعيش على رزق الله، فالله سبحانه يهيئ لكل مخلوق رزقه الذى يصلحه:

* قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [١].

* وقال سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ [٢].

واضح من هذا أن رزق الإنسان تحدث بسببه عظام الأمور فى الكون، فسبحان من خلق المياه فى السحاب، وأنزلها فى كل موضع بحسب رزق

(١) سورة عبس: ٢٤ ـ ٣٢.

(٢) سورة يس: ٣٣ ـ ٣٦.

أهله، وسبحان من أنبت النبات وخلق الأشجار، وسبحان من رزقنا من النباتات حبها أو عودها، ومن الأشجار ثمارها وثمرها، وهيأ كل ذلك لنفعنا، ويسر لنا الحصول عليه، ويسر لنا الانتفاع به، سبحانه سبحانه.

وعلى هذا فالواجب على البشرية أن تلتزم بدين الله، وأن تحيا فى طاعة الله سبحانه وتعالى، فبطاعة الله ندرك نعمه جل علاه.

أما إذا تنكبت البشرية وعصت فقد ينزل بها غضب الله، وقد تحرم من نعم الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾[(١)].

فواضح من هذه الآيات أن النعم إنما تدوم بفضل الله وكرمه، كما قال سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾[(٢)] أما مع المعصية فقد ينزل بالنعم ما يدمرها، أو يمنعها.

ومن هنا سأل رسول الله ﷺ ربه أن لا يهلك أمته بالجوع. إنها قد تقع فى زلة تنزل بها غضب الله تعالى، فتحرم الرزق، كما فى قوله ﷺ «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[(٣)] وقد يصل بها ذلك إلى الهلاك، ولذا ألحّ ﷺ على ربه ألا يهلكها بالجوع.

---

(١) سورة الواقعة: ٦٣ - ٧٠.

(٢) سورة إبراهيم: ٧.

(٣) أخرجه أحمد ٦٨/٣٧ رقم ٢٢٣٨٦ و٣٧/١١١ رقم ٢٢٤٣٨. وهناد فى الزهد ٢/٤٩١ رقم ١٠٠٩ ونقل محققه تحسين العراقى له.

واستجاب الله تبارك وتعالى دعاء نبيه ﷺ وطمأنه وطمأن الأمة أنه سبحانه لن يهلك هذه الأمة بالجوع.

وعلى طول عمر الأمة يتحقق ما أخبر به ﷺ فى هذا الحديث، فلم يكن الجوع سببًا فى هلاكها ولا فى ضعفها، وإنما رزق الله عليها وافر سابغ، ونعم الله عليها متوالية.

لقد دعا ﷺ، وأخبره الله باستجابة دعوته، وأخبر ﷺ بذلك، فتحقق الأمر كما أخبر، والأمة على مدى العمر الماضى أكثر من ألف وأربعمائة عام، وهى بحمد الله مشمولة بعناية الله تعالى، لم ينزل بها الجوع المهلك. وإنما الأرزاق وافرة سابغة، وهذا من معجزاته ﷺ الظاهرة، ومن دلائل نبوته الواضحة. والحمد لله رب العالمين.

• الدروس المستفادة من الحديث[1]:

١ ـ سعة رحمة الله تعالى، وعظيم كرمه سبحانه، يدل على ذلك تكَرُّمُه سبحانه باستجابة دعاء رسوله وحبيبه سيدنا محمد ﷺ. وتحدثه سبحانه مع رسوله فى شأن أمته، وتكرمه سبحانه على رسوله والمسلمين بالكثير من النعم.

٢ ـ قدر رسول الله ﷺ عند ربه سبحانه وتعالى، من ذلك أن أذن له بالسؤال، ومن الله عليه بالنوال.

٣ ـ فضل هذه الأمة، وأن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاء نبيها لها، وطمأنه وطمأنها فى الحياة الدنيا.

(١) راجع الدروس المستفادة من الحديث السابق «سؤال الله بأن لا يهلك الأمة بالقحط أو بالعدو» ص ١٧١.

٤ ـ لن تهلك هذه الأمة بالجوع، فلن يعمها الله بجوع يهلكها.

٥ ـ خطورة الجوع، وأنه يمكن أن يهلك أمة، ومن هنا سأل رسول الله ﷺ ربه أن لا يهلك أمة الإسلام بالجوع.

٦ ـ على الأفراد والمجموعات أن تسعى فى طلب الخير، وأن تجتهد فى طلب الرزق، بالأمور الدينية، والأمور التجريبية، ترجو بذلك اليسار فهو عون على الدين، وتحذر بذلك العيولة والجوع.

٧ ـ على أفراد الأمة أن يتعاونوا حتى لا يكون فى الأمة جائع، ويكونوا رحمة على بعضهم.

* * *

٤ ـ الدعاء بأن لا يهلك الله هذه الأمة بالغرق

وسأل رسول الله ﷺ ربه أن لا يهلك أمته بالغرق:

• **ففى حديث سعد بن أبى وقاص «أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلاً، ثم انصرف إلينا، فقال ﷺ: سألت ربى ثلاثًا فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة.**

سألت ربى أن لا يُهلك أمتى بالسَّنَة، فأعطانيها.

وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها.

وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»[(١)].

• **وفى حديث معاذ بن جبل قال «صلى رسول الله ﷺ يومًا صلاة، فأطال فيها، فلما انصرف قلنا ـ أو قالوا ـ يا رسول الله، أطلت اليوم الصلاة! قال: إنى صليت صلاة رغبة ورهبة، سألت الله عز وجل لأمتى ثلاثًا، فأعطانى اثنتين، وردّ علىّ واحدة:**

سألته أن لا يسلط عليهم عدوًا من غيرهم، فأعطانيها.

وسألته أن لا يهلكهم غرقًا، فأعطانيها.

وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فردّها علىّ»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم فى الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ٤/٢٢١٦ رقم ٢٠/ ٢٨٩٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب ما يكون من الفتن ٢/١٣٠٣ رقم ٣٩٥١ ونقل عن الزوائد: إسناده صحيح. رجاله ثقات. وأخرجه ابن أبى شيبة ١٠/٣١٨.

• **المعانى:**

«أقبل ذات يوم من العالية» العالية منطقة من مدينة الرسول ﷺ.

«مسجد بنى معاوية» بنى معاوية: قرية من قرى الأنصار.

«فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة» أى أن الله سبحانه استجاب له مسألتين، ولم يستجب له المسألة الثالثة.

«أن لا يهلك أمتى بالسنة» أى أن لا يهلك أمتى بالقحط، وهو الجفاف، وعدم نزول المطر لمدة طويلة. وقد تقدم ذلك[1].

«أن لا يجعل بأسهم بينهم» أى أن لا يختلفوا فيقتتلوا. وسيأتى ذلك تفصيلاً إن شاء الله تعالى[2].

«صلاة رغبة ورهبة» أى أنه ﷺ صلى هذه الصلاة وحاله بين الرجاء والخوف، يرجو الله أن يتقبل منه، ومن أمته، ويخاف غضب الله سبحانه. وقد تقدم[3].

• **راوى الحديث الأول:**

سعد بن أبى وقاص: خال رسول الله ﷺ

الصحابى الجليل، خال رسول الله ﷺ، أحد الرماة المعدودين، بكر إلى الإسلام وأسرع، وتقدم فى العبادة والعمل، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، هو من بنى زهرة أخوال رسول الله ﷺ، جاء يومًا إلى مجلس رسول الله ﷺ فقال رسول الله «هذا خالى فلْيُرِنى امرؤٌ خالَه» وذلك لأنه

(١) ص ١٤٢.

(٢) ص ٢٧٤.

(٣) فى الدعاء بأن لا يهلك الله هذه الأمة بالجوع ص ١٧٣.

جمع من الفضل الكثير، فهو أحد السابقين إلى الإسلام، يتحدث عن نفسه فيقول: ما أسلم أحد فى اليوم الذى أسلمت فيه، ولقد مكثت سبع ليال وإنى لثلث الإسلام.

وكان من خيرة أهل الإسلام فى طلب العلم، سمع كلمة من رسول الله ﷺ هى بداية دعوة ثم شُغِل ﷺ فلم يُكْمِلْها، فظل سعد باحثًا عنها، فلما لم يُكْمِلْها رسول الله ﷺ سأله سعد فأكملها له، ألا وهى دعوة يونس عليه السلام: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يقول ﷺ: «إنها لم يَدْعُ بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له» لقد كان سعد حريصًا على كل كلمة يَسْمَعُها من رسول الله ﷺ، محققًا مدققًا فى فهم أمور الإسلام. ولكم تناقش مع الصحابة والتابعين فى مسائل فكان هو الأقوى حجة، والأدق فهمًا.

وكان سعد بن أبى وقاص هذا من خيرة جند الإسلام، فلقد شارك فى غزوة بدر وهو لم يكتمل العشرين من عمره، وحضر غزوة أحد ورمى فيها بأسهم صائبة حتى إن رسول الله ﷺ ليناوله النبل ويقول: ارم فداك أبى وأمى، ولكم كانت هذه الكلمة من رسول الله ﷺ مشجعة لسعد، حتى إنه ليفتخر بها، بل وتقول ابنته عائشة بنت سعد أنا ابنة المهاجر الذى فداه رسول الله يوم أحد بالأبوين.

سعد هذا الذى أرسله رسول الله ﷺ فى سرية إلى رابغ فتفوق المشركون على المسلمين فحمى سعد المسلمين بما يجيد من استعمال السهام وأنشد يقول:

هل أتى رسولَ الله أنى ... حميت صحابتى بصدور نبلى

فما يعتد رام فى عدو ... بسهم يا رسول الله قبلى

وفى غزوة الخندق أكثر أحد المشركين من رمى المسلمين، وقد لبس من الحديد ما ستر جسمه، فأخذ سعد سهمًا ورماه به فى الموضع الوحيد الظاهر من جسمه وهو عيناه فأصابه سهم سعد حتى وقع وانقلب، فضحك رسول الله ﷺ من دقة سعد فى إصابة الهدف.

وكان سعد بن أبى وقاص هذا مجتهدًا فى العبادة فمن عليه ربه باستجابة الدعاء فكان رضى الله عنه مستجاب الدعوة، وكان الصحابة يعرفون عنه ذلك، وكان يستفيد بذلك فى كل حياته حتى فى الجهاد، كان يسأل الله ما يحب فيستجيب سبحانه وتعالى دعوته، كان يدعو أن يقابل أقوى الرجال وأشدهم بأسًا فى الحرب وينصره الله عليه فكان يحدث ذلك، وسأل الله ففتح على يديه بلاد فارس، ودخلوا فى الإسلام على يدى سعد هذا خال رسول الله ﷺ وابن عمه.

رضى الله عن سعد بن أبى وقاص وعن كل الصحابة والتابعين، والحمد لله رب العالمين.

• راوى الحديث الثانى:

معاذ بن جبل: وقد تقدم[1].

• شرح الحديث:

يصلى ﷺ ويطيل الصلاة، يسأل الله ويرجوه، يسأله لأمته الأمن من المهلكات، يسأله أن يحفظها من الطامات، ويتساءل معه بعض الصحابة عن السر فى إطالته الصلاة، فبين لهم ﷺ حاله فيها، وأنه صلى وهو

---

(١) فى حديث «الدعاء بأن لا يهلك الله هذه الأمة بالجوع ص ١٧٥.

مشفق على أمته من ثلاث خصال:

* مشفق عليها من تسلط الأعداء.

* ومشفق عليها من الكوارث المائية.

* ومشفق عليها من الاختلاف والاقتتال.

ومن هنا صلى وأطال، وذكر الله كثيرًا، ودعا لأمته أن يقيها الله هذه الثلاث.

وسبق فى حديث ثوبان أن شرحت دعاءه ﷺ: ألا يهلك الله أمته بتسلط الأعداء عليها[١].

والحديث هنا عن قضية الغرق.

فمن هذين الحديثين ـ حديث سعد بن أبى وقاص، وحديث معاذ بن جبل ـ يتضح أنه ﷺ كما سأل الله ألا يهلك أمته بالقحط والذى هو قلة الماء، سأل الله أيضًا أن لا يهلك أمته بالغرق، والذى هو كثرة الماء.

إنه ﷺ قد علَّمَه الله تعالى قصص الأنبياء وأخبار الأمم، وعلم أن من الأمم من أهلك بالغرق، كقوم نوح، عمَّ الماء بلادهم، وكانوا كما قال الله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [٢] كان الغرق بهذه الصفة، كانت سفينة نوح تسير، وقد عم الماء البلاد بأمواج كالجبال. من هنا سأل الله تعالى أن لا يهلك أمته بالغرق.

---

(١) تقدم ذلك ص ١٥٩.

(٢) سورة هود: ٤٢.

* اتقاء الغرق الجزئى:

وهو ﷺ إذ يسأل الله أن لا يهلك أمته بالغرق، إنما يعنى به الغرق الذى يقتل الأمة كلها. نسأل الله العفو والعافية. وهذا لا ينافى أن يتعرض البعض للغرق، وهنا يعلمنا الإسلام كيف نتقى الغرق، لفرد أو مجموعة:

فعن أبى اليسر كعب بن عمرو الأنصارى أن رسول الله ﷺ كان يدعو: اللهم إنى أعوذ بك من الهَدْم(١)، وأعوذ بك من التَّرَدِّى(٢)، وأعوذ بك من الغرق، والحرق، والهَرَم(٣)، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت(٤)، وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مُدْبرًا(٥)، وأعوذ بك أن أموت لديغًا(٦)» .

يعلمنا ﷺ الاستعاذة بالله من هذه الأشياء، ومنها: الغرق.

وكان ﷺ إذا رأى المطر قال: «اللهم صيِّبًا(٧) نافعًا، فإذا كثر المطر وخشى الضرر قال «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام(٨)،

(١) الهَدْم: سقوط البناء. استعاذ منه لكونه تلف مالى، واستعاذ منه لما قد يترتب عليه من هلاك بعض الأشخاص.

(٢) السقوط من مكان عال كالسطح، أو السقوط فى مكان منخفض كالبئر.

(٣) كبر السن مع الخرف.

(٤) يعلمنا ﷺ أن نستعيذ بالله من أن تستولى الشياطين علينا عند الممات فتصرفنا عن التوبة، أو عن رد المظالم، أو عن ذكر الله، يعلمنا ذلك لأن الشياطين تركز على من اقترب أجله.

(٥) فارًا من لقاء الأعداء.

(٦) أى بلدغة حشرة لها سُمٌّ، كعقرب، أو حية. والحديث أخرجه أبو داود والنسائى وغيرهما، أخرجه أبو داود فى الوتر باب فى الاستعاذة ٤/٤٠٩، ٤١٠. والنسائى فى الاستعاذة باب الاستعاذة من التردِّى والهدم ٨/٢٤٩، وهو حديث حسن.

(٧) الصيب: المطر. أو السحاب.

(٨) ما ارتفع من الأرض.

والآجام[١]، والضِّراب[٢]، والأودية، ومنابت الشجر»[٣].

وهو ﷺ إذ يسأل الله أن لا يهلك الأمة عامة بالغرق، ويعلمنا الأدعية للنجاة من الغرق الجزئى، فإنه ﷺ يعلمنا بذلك خطورة الغرق، وأن على الأمة أن تحذره، وأن تأخذ بالأسباب المنجية منه.

*** أسباب النجاة من الغرق:**

١ ـ تعلم السباحة: حث الإسلام على تعلم السباحة، والتى هى العوم فى الماء، وكان رسول الله ﷺ يجيد العوم، وحدث عن نفسه أنه حينما نزل المدينة فى صباه، قال: أحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار.

وبينما هم عائدون من إحدى الغزوات اعترضهم ماء كثير فكان سفينة مولى رسول الله ﷺ، يعوم بالصحابة واحدًا واحدًا، حتى نقل من لم يمكنه العوم من جهة إلى جهة، فقال له رسول الله ﷺ: ما كنت منذ اليوم إلا سفينة. ولقب بهذا اللقب بعد ذلك[٤].

وحث ﷺ الأمة على تعلم السباحة، فقال: «علموا أبناءكم السباحة والرماية»[٥].

٢ ـ الاحتراز من الفيضانات: فإن البحر عالم آخر، لا تقوى البشرية على فورته، فاللائق بها أن تبتعد عما يمكن أن يقع فى فورته، قال الله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ

(١) الشجر الضخم.

(٢) الجبل المنبسط.

(٣) أخرجهما البخارى.

(٤) من التراتيب الإدارية ٢/٩٣ وفيه أكثر من هذا.

(٥) أخرجه ابن منده فى معرفة الصحابة، قال السخاوى ـ فى المقاصد ص٢٨٩ رقم ٧٠٨ ـ وسنده ضعيف لكن له شواهد.

الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾[1].

يقسم الله تعالى بهذه الأشياء لعظمتها، ومنها «البحر المسجور» وهو: الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها.

وقال ﷺ: «ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات على الأرض يستأذن الله فى أن ينفضخ عليهم[2] فيكفُّه الله عز وجل»[3].

وهكذا يجب على الأمة أن تحتاط من البحر، فتجعل مدنها وقراها فى الأماكن التى يؤمن فيها مد البحر، وأسباب الغرق كلها.

٣ ـ الاحتراز من السيول: فبين الحين والحين تكثر الأمطار، وعلى الأمة أن تتقى ذلك، فتحافظ على مجارى السيول معدة جاهزة، لتأخذ مياه السيول حيث تنفع، ومهما طالت السنون دون سيول فلتبق الأمة على مجارى السيول، حتى إذا جاء عام فيه سيول، كانت الأمة فى مأمن. ولتكن مدن المسلمين وتجمعاتهم بعيدة عن مجارى السيل، ومعدة بحيث إذا حدثت سيول، لا تؤثر على سلامتها، ومرافقها.

ولنحرص أن تكون بلادنا بلاد الصالحين، مساجدها عامرة، ولا نصيب للملاهى أو المعاصى فيها، فإن ذلك يحصنها من السيول والغرق وكل المهالك.

وحينما كثر السيل فى فترة النبوة علمنا رسول الله ﷺ الدعاء «اللهم

(١) أول سورة الطور.

(٢) اى ينفتح ويرتفع عليهم ليغرقهم، إلا أن الله سبحانه «يكفُّه» اى يمنعه من ذلك.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٣٩٥ رقم ٣٠٣ وقال محققه: إسناده ضعيف. وأخرجه إسحاق بن راهويه فى مسنده كذا فى إتحاف الخيرة ٦/ ٣١٥ وذكره ابن كثير فى تفسير الآية السابقة ﴿والبحر المسجور﴾ ٤/ ٢٤٠ عن أحمد وابن راهويه.

حوالينا ولا علينا»[١] وهذا يدل على أن الطاعة تجعل المطر ينزل، وتجعله حيث ينفع.

يقول الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ﴾[٢].

ويقول ﷺ: «قال ربكم عز وجل: لو أن عبادى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل، ولأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم صوت الرعد»[٣]. إن هذا الحديث وإن كان ضعيفًا إلا أن الآية تقويه، وهما معًا يفيدان أن الأمة باستقامتها تعمها رحمة الله تعالى وبركاته، حتى إن المطر ينزل ليلاً كى لا يعطلهم ولا تبتل ثيابهم. وتطلع الشمس بالنهار عونًا لهم على مصالحهم، وصوت الرعد يكون بعيدًا لا يسمعونه.

٤ ـ **الاستعداد لمواجهة الغرق:** فليكن فى الأمة حذر من الغرق، وليكن عندها الاستعداد لمواجهته إذا حدث، تتعاون فى ذلك بكل صدق وحزم.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

الغرق مشكلة تهدد البشرية، نسمع كثيرًا فى القرآن الكريم أن الغرق أهلك قوم نوح إلا من آمن. قال الله تعالى: ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا**

(١) أخرجه البخارى فى الاستسقاء باب الاستسقاء فى المسجد الجامع ٢/٥٠١ رقم ١٠١٣ وفى الأبواب بعده وهو عند مسلم رقم ٨٩٧.

(٢) سورة الأعراف: ٩٦.

(٣) أخرجه أبو داود الطيالسى ٤/٣١٢ رقم ٢٧٠٩ وأحمد عن أبى داود الطيالسى ١٤/٣٢٧ رقم ٨٧٠٨ وفى إسناده: صدقة بن موسى ضعيف، وسُمَيْر بن نهار مجهول.

ووَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [١].

وكاد فرعون لموسى، فخرج موسى بقومه فاتبعهم فرعون بجنده، فأغرق الله فرعون ومن معه، ونجى نبيه موسى ومن معه.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴾ [٢].

هكذا نجى الله نبيه موسى ومن معه من المؤمنين، وأغرق فرعون ومن معه ممن كادوا للمؤمنين.

وفى موضع آخر فى القرآن الكريم يقول الله تعالى عن فرعون ومن معه: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾[٣].

وبعد أن أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى فى كتابه عن بعض الأمم السابقة، وما كان منهم من تكذيب دعوة الحق، قال سبحانه: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ

(١) سورة هود: ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة الشعراء: ٥٢ ـ ٦٦.

(٣) سورة الأعراف: ١٣٦.

وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [(١)].

هكذا يحدثنا ربنا عن الغرق، وأنه عقوبة يرسلها سبحانه على من كذب رسله، ولقد كان هذا فى بال رسول الله ﷺ، كان واضحًا أمامه أن الغرق سبب من أسباب الهلاك، ومن هنا تضرع إلى الله سبحانه، وسأله سبحانه سؤال عبد يلح على ربه، وقد أخذ بأسباب استجابة الدعاء، فصلى وأطال، يذكر الله كثيرًا، ويسجد له سبحانه وتعالى طويلاً، يرجوه سبحانه أن يحفظ أمته من هذا السبب المهلك من الغرق.

ولقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعوة نبيه ﷺ هذه، وطمأنه أن أمته لن يسلط عليها الغرق يهلكها، طمأنه أنه قد ضمن له هذا الباب فلن تهلك أمة الإسلام بالغرق، أوحى سبحانه وتعالى بذلك إلى نبيه ﷺ.

ورسول الله ﷺ يُعْلِمُ أمته بذلك، وأن الله سبحانه لن يهلكها بالغرق.

ويتحقق ذلك تمامًا، يتحقق كما أخبرنا رسول الله ﷺ، فالحمد لله لم يَبْتَلِ الله أمة الإسلام بالغرق. وها هى الأمة بحمد الله تحيا كثيرة العدد معافاة من الغرق، أربعة عشر قرنًا (١٤٠٠ سنة) والدعوة محققة، وستظل إلى نهاية الدنيا، والحمد لله رب العالمين.

إن الغرق أمر خطير أهلك الله به أممًا سابقة، لكن أمة الإسلام قد دعا لها رسولها بالسلامة من ذلك، واستجاب الله دعوة رسوله، وأخبر سبحانه رسوله بهذا وأخبرنا رسول الله ﷺ بهذا، فوجدناه واقعًا عمليًا على مر السنين والقرون، مما يزيدنا إيمانًا بديننا، وإيمانًا بصدق سُنَّةِ نبينا ﷺ.

---

(٤) سورة العنكبوت: ٤٠.

• الدروس المستفادة من الحديث:

١ ـ فى هذا الحديث إبراز لصورة من صور كرم الله تعالى ورحمته سبحانه وتعالى بخلقه، إذ استجاب سبحانه دعوة نبيه ﷺ إكرامًا له، ورحم أمة الإسلام وأجارها من الغرق الذى هو سبب من أسباب الهلاك.

٢ ـ شفقة رسول الله ﷺ على أمته، وحرصه على بقائها ما دامت الحياة، ومن هنا يسأل الله لها السلامة من أسباب الهلاك، من الغرق وغيره.

٣ ـ إبراز قدر الدعاء، وأنه يستجيبه الله تبارك وتعالى، مهما عظم المدعو به ومهما كثر، فرسول الله ﷺ يسأل الله أن لا يهلك الأمة بالغرق، على طول عمرها، وعلى اتساع أماكنها، وربنا القادر والمقتدر يستجيب لكل ذلك.

٤ ـ الماء مخلوق عظيم الأثر فى الحياة، نقصه عذاب، وطغيانه عقاب، يرحم الله به أقوامًا، ويعذب به آخرين.

٥ ـ طمأنتنا السنة النبوية أن أمة الإسلام لن يهلكها الله بغرق يعمها، ففى الحديثين اللذين نحن بصدد شرحهما، سأل رسول الله ﷺ ربه أن لا يهلك هذه الأمة بالغرق، وطمأننا ﷺ أن الله تبارك وتعالى استجاب له.

٦ ـ وفى هذين الحديثين لفت نظر الأمة لخطورة الغرق، وأن على الأمة أن تحذره، أفرادًا وجماعات، وأن تتخذ لذلك أسباب السلامة.

٧ ـ وفى الحديثين حث للأمة على أن تكون جاهزة لمواجهة الكوارث، فإن زيادة المياه خطر شديد، وكذلك غيرها من الرياح والزلازل، واستعداد الأمة لذلك يهون الخطب، ويقلل الأضرار المترتبة على ذلك.

٥- الدعاء بأن لا تكفر هذه الأمة

عن أبى هريرة «عن النبى ﷺ قال: سَأَلْتُ رَبِّى عز وجل لأُمَّتى أَرْبَعَ خلاَل، فَأَعْطَانى ثَلاثًا، وَمَنَعَنى وَاحِدَةً:

سَأَلْتُهُ أن لا تَكْفُرَ أُمَّتى صَفْقَةً وَاحِدَةً، فَأَعْطَانيهَا.

وسَأَلْتُهُ أن لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِم عَدُوًا منْ غَيْرِهِمْ، فَأَعْطَانيهَا.

وسَأَلْتُهُ أن لا يُعَذِّبَهُم بمَا عَذَّبَ بِه الأُمَمَ قَبْلَهُمْ، فَأَعْطَانيهَا.

وسَأَلْتُهُ أن لا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَمَنَعَنيهَا»[1].

• المعانى:

«أربع خلال» أى أربع خصال. إذ «خِلاَل» جمع «خَلَّة» وهى الخصلة فى الرجل، سواء كانت صالحة أو سيئة. يقال: فلان كريم الخلال. وفلان لئيم الخلال. بمعنى الخصال.

والمعنى أنه ﷺ سأل الله تعالى لأمته أربع خصال، أى أربعة أشياء.

«أن لا تكفر أمتى صفقة واحدة» أى أن لا تخرج من الإسلام، **سواء بكفر كامل** كالشرك، أو إنكار الألوهية، أو إنكار رسالة محمد ﷺ.

أو بما يورث الكفر، كإنكار معلوم من الدين بالضرورة، كإنكار الصلاة، أو الزكاة، أو ما إلى ذلك.

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط ٢/ ٢٤١ رقم ١٨٦٢، وقال فى مجمع الزوائد ٧/ ٢٢٢: رجاله ثقات. وأخرجه ابن أبى حاتم فى تفسير الآية رقم ٦٥ من سورة الأنعام حـ٤ ص١٣١٢ رقم ٧٤١٥. وأخرجه الطبرى عن السدى عن رسول الله ﷺ ٧/ ٢٢٤.

أو بالاجتماع على ما يخالف الإسلام، كأن تعمل بفتوى ضلال. وقد جاء فى حديث آخر «سألت الله عز وجل أن لا يجمع أمتى على ضلالة، فأعطانيها»[١].

ومعنى «صفقة واحدة» أى مجتمعين. من أصفقوا على الأمر بمعنى اجتمعوا عليه. فهو ﷺ يسأل الله أن لا تكفر الأمة مجتمعة. أما أن يكفر فرد، أو عدد فهذا يمكن. وتبقى الأمة على دين الله إلى هبوب الرياح الطيبة التى تقبض أرواح المؤمنين، وذلك ضمن أعلام القيامة.

«فأعطانيها» أى أن الله سبحانه استجاب لرسوله ﷺ هذه الدعوة، وأعطاه هذه الخصلة، وهى أن لا تكفر أمته جملة. وأعلم سبحانه نبيه بذلك.

أما الدعوات الأخرى فى الحديث فشرحها فى مباحثها[٢].

• راوى الحديث:

أبو هريرة: وقد تقدمت ترجمته فى القسم الأول من هذا الكتاب[٣].

• الشرح:

لقد سأل ﷺ ربنا الكريم تبارك وتعالى أن يثبت الأمة على الإيمان، فلا تكفر كفرًا جماعيًا، بمعنى أن يحفظها الله من أن تنقلب من الإيمان إلى الكفر.

---

(١) أخرجه أحمد ٤٥/ ٢٠٠ رقم ٢٧٢٢٤ وقال محققه: صحيح لغيره. وجمع عددا من شواهده، وأخرجه الطبرانى ٢/ ٢٨٠ رقم ٢١٧١. وابن عبد البر فى جامع بيان العلم ٧٥٦/١ رقم ١٣٩٠ جميعًا عن أبى بَصْرة الغفارى.

(٢) تقدمت الدعوة بأن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم. وستأتى الدعوتان الأخريان إن شاء الله تعالى.

(٣) ص ٧٥.

وواضح من قوله ﷺ «سألته ألا تكفر أمتى صفقة واحدة، فأعطانيها» واضح من ذلك أنه سأل الله ألا تكفر أمته كفرًا عامًا. وأن الله سبحانه وتعالى استجاب له هذا، فلن تكفر الأمة كفرًا عامًا.

إن استجابة الله سبحانه دعوة رسوله ﷺ هذه، وتطمينه له فى هذا الحديث، جعل رسول الله ﷺ مطمئنًا على أمته من هذه الناحية، يتضح هذا من:

* حديث عقبة بن عامر أن النبى ﷺ خرج يومًا فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال: إنى فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإنى والله لأنظر إلى حوضى الآن، وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض - أو مفاتيح الأرض - وإنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»[1].

يخبر ﷺ أنه «فرطنا» و«الفرط» من يتقدم القوم ويسبقهم، ليستقبلهم ويكرمهم إذا لحقوا به.

فهو ﷺ سبقنا إلى الآخرة، يدعو ويستغفر لنا، ويشفع ويشهد لنا.

ويخبر ﷺ أن حوضه موجود؛ وأن الله سبحانه آتاه مفاتيح خزائن الأرض، وهذه بشارة بشيوع الإسلام فى كل الأرض.

ويخبر ﷺ بثبات الأمة على الإسلام، حتى إنه لا يخاف علينا الشرك، وإنما يخاف علينا التنافس فى الدنيا.

إن الله تبارك وتعالى طمأنه ﷺ أن أمته لن تكفر، فبشرنا ﷺ بذلك وطمأننا.

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز باب الصلاة على الشهيد ٣/٢٠٩ ومسلم رقم ٢٢٩٦/ ٣٠ وتخريجه فى أحمد ٢٨/٥٧٨ رقم ١٧٣٤٤.

إنه بعد تطمين الله له، واستجابته سبحانه دعوته ﷺ، طمأننا ﷺ، وبشر بأن الأمة بفضل الله ثابتة على دينها، لن يشيع الكفر فيها، ولن تتخلى عن الإسلام. وهذا لا يمنع أن يكفر أفراد، أو مجموعة قليلة، ومن هنا فعلى كل مسلم أن يحرص على إيمانه، وأن يحتاط حتى لا يضار فى دينه، ولقد أرشدنا الإسلام إلى طريق السلامة فى الدين.

• منهج الإسلام فى تثبيت المسلم على دينه:

رسم الإسلام منهجًا للمسلم يجعله قويًا فى دينه، يتمسك به كل التمسك، ولا تصرفه عنه الصوارف مهما اشتدت.

وبإطلالة عامة على هذا المنهج يتضح أنه يقوم على:

أولاً: توصية المسلم بالثبات على دينه، وذلك من خلال:

١ ـ تعريفه بسمو الإسلام وعظمته.

٢ ـ تعريفه بمنهج الصالحين فى التمسك بالحق.

ثانيًا: تحذير المسلم من الصوارف عن الدين، وذلك من خلال:

أ ـ تعرية أساليب المنافقين والكافرين فى الكيد للإسلام.

ب ـ التحذير من الشهوات والشبهات.

وهذا إجمال أفصله فيما يلى:

أولاً: توصية المسلم بالثبات على دينه:

١ ـ التعريف بسمو الإسلام وعظمته: فلقد بين ربنا تبارك وتعالى لنا أن الإسلام هو الدين الحق، وأنه الدين الكفيل بإسعاد البشرية:

* يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (١).

* ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢).

* ويقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣).

* ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (٤).

* ويقول سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (٥).

* ويقول سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ (٦).

* ويقول سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (٧).

* ويقول سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا

---

(١) سورة آل عمران: ١٩.
(٢) سورة آل عمران: ٨٥.
(٣) سورة البقرة: ٢.
(٤) سورة الإسراء: ٩.
(٥) سورة الروم: ٣٠.
(٦) آخر سورة الشورى.
(٧) سورة آل عمران: ١٦٤.

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١].

● **وجاءت أحاديث نبوية تبين سمو الإسلام وعظمته:**

* فعن أبى الدرداء قال «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونَتَخَوَّفُهُ. فقال: آلفقر تخافون؟ والذى نفسى بيده لتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صبًا، حتى لا يُزيغ قلب أحدكم إزاغة إلاَّ هِيَهْ[٢]. وايم الله[٣] لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء»[٤].

* وعن العرباض بن سارية قال «صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبدًا حبشيًا، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[٥].

إنه ﷺ يبين أنه تركنا والإسلام واضح المعالم، قد ارتقت فى اعتقاده الأمة إلى درجة الكمال، ويأمر بالاستمرار على هذا النهج، ويحذرنا من الابتداع والتغيير.

إنه الإسلام الدين التام الواضح المعالم.

---

(١) سورة هود: ١١٢.

(٢) أى لا يُميل قلب أحدكم إلا الدنيا، و«هيه» أصلها: هى ضمير يعود على الدنيا. وزيد عليه هاء السكت فصار «هيه».

(٣) ايم: أصلها أيمن، حذف نونها، والمعنى: يمين الله قسمى، أى: أقسم بالله.

(٤) أى أنه ﷺ قد وضّح الملة، واستقامت معه القلوب. والحديث أخرجه ابن ماجه فى المقدمة الباب الأول ١/ ٤ وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ١/ ٢٦ رقم ٤٧.

(٥) أخرجه أبو داود فى السنة باب فى لزوم السنة ١٢/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠ وأخرجه الترمذى فى العلم باب الأخذ بالسنة واجتناب البدعة ٧/ ٤٣٨ ـ ٤٤٢ وقال: حسن صحيح.

* وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من نفَّس عن مؤمن كُرْبَةً من كُرَب الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة. ومن يسّر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة. ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة. والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه. ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة. وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه»[1].

هذه نماذج من سمو الإسلام وعظمته، ففى هذا الحديث يحث ﷺ الأمة أن يكون أفرادها أخيارًا، متحابين، متراحمين، متعاونين. علماء عاملين.

والآيات والأحاديث فى ذلك كثيرة، تبين سمو الإسلام وعظمته، وأنه الدين الحق الذى يدل البشرية على الحق والخير.

*** العلم ضرورة:**

وإذا كانت النصوص قد عرَّفت هكذا بسمو الإسلام وعظمته، فعلى المسلم أن يتعلم الإسلام، ويتفقه فيه، فهذا سبيل معرفة قدر الإسلام، وأساس الثبات على الحق، كما قال ربنا سبحانه: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**﴾[3].

---

(١) أخرجه مسلم فى الذكر باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٤/ ٢٠٧٤ رقم ٣٨/ ٢٦٩٩.

(٢) سورة فاطر: ٢٨.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٣.

إن المسلم الذى تعلم الإسلام عرفه وعرف قدره، ومن هنا يتمسك به ويعتز به.

أما المسلم الذى لم يتعلم فهذا لا يعرف عظمة الإسلام، ولا يعرف أوجه الكمال فيه، ومن هنا لا يتمسك به.

ولذا قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[١].

*** خسَّة الكفر:**

ولم تقف النصوص عند تعريف المسلم بسمو الإسلام وعظمته، وإنما عرفت أيضًا بخسة الكفر وحقارته. وأن الكفر مدمر للبشرية، لما فيه من انحراف خلقى، وضلال وزيغ.

* يقول الله تعالى: **﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**[٢].

هذا شأن المنافقين يشبه بعضهم بعضًا، يأمرون بالمنكر مِنْ كفرٍ ومعاصى، وينهون عن المعروف من إيمان وطاعة. لا يقفون عند ضلالهم الشخصى، وإنما يأمرون غيرهم بالكفر والمعاصى، وينهونهم عن الإيمان والطاعة. ضُلال ودعاة ضَلال!!.

* ويقول سبحانه: **﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾**[٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب فضل العلماء ١/ ٨١ رقم ٢٢٤ وهو حسن.

(٢) سورة التوبة: ٦٧.

(٣) سورة النساء: ٢٧.

إن الله يأمرنا بالإيمان والطاعة، يأمرنا بكل خير، أما أهل الشهوات من الكفار والمنافقين والعصاة فهؤلاء يجروننا إلى كل شر إلى الكفر والمعاصى، إنهم يريدون أن نميل عن الحق ميلاً عظيمًا!!

* ويقول سبحانه: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ [١].

هذا شأن المنافقين يتكلم فى حضرة الأخيار كلامًا يعجب، لكنه ليس من قلبه، ولذا فإنه إذا ابتعد عنهم فإنه يفسد ويدمر. إنه ليس صادقًا، وباطنه يختلف عن ظاهره.

وهكذا تبين الآيات شر الكفر والنفاق، وأن الكفار والمنافقين مفسدون بأنفسهم، ويحملون غيرهم على الإفساد.

وواقع الناس يشهد بهذا، فالكفر يفسد فى الكون، ويفسد فى الأرض هواءها وماءها وجميع كائناتها، كم جر من حروب، وكم دمَّر من دول، وكم قتل من أشخاص. وكم شوَّه من مخلوقات.

أفكارهم ضالة، وعلومهم ضارة!!.

* قال فيهم ربنا: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا** ﴾ [٢].

(٤) سورة البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦.

(٢) سورة الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٦.

هذا حالهم ضالون ويحسبون أنهم أهل الحق والخير يحسبون أنهم أهل الجمال والكمال، سبحان الله!!

وعمومًا فحسبنا ما قال ربنا.

وببيان النصوص سمو الإسلام وعظمته، وخسة الكفر وحقارته، يزداد العاقل تمسكًا بالإسلام، ويعتز به ويلتزم.

٢ ـ تعريف المسلم بمنهج الصالحين فى التمسك بالحق:

فلقد بين ربنا تبارك وتعالى تمسك الصالحين بالحق، وأنهم يجودون بأرواحهم فى سبيل سلامة دينهم، وكذلك أمرنا رسول الله أن نتمسك بديننا، وبين أن أهل الحق دائمًا يعتزون بدينهم مهما كلفهم ذلك.

* فأخبرنا ربنا تبارك وتعالى عن طوائف كافرة عذبوا جماعات من الموحدين بأن حفروا لهم حفرة طويلة، وأشعلوا فيها النيران، ثم ألقوهم فيها!! فما زاد ذلك الموحدين إلا تمسكًا بدينهم.

يقول سبحانه: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾ [١].

ولقد قص علينا رسول الله ﷺ قصة من قصص أصحاب الأخاديد، موجزها: أن ملكًا ادعى الألوهية، وأرغم الناس على تأليهه، فرفض الكثيرون، فشق لهم أخدودًا، وأضرم النيران، وقال لجنوده من لم يرجع

---

(١) سورة البروج: ٤ ـ ١٠.

عن دينه فألقوه فيها، ففعل أعوانه ما أمر به، فلما جاء الدور على امرأة معها ابن لها ترضعه، ترددت فى إلقاء نفسها ورضيعها فى النار فقال لها ابنها: يا أمه اصبرى، فإنك على الحق[1].

ثبت الناس على دينهم، وأرى الله هذه الأم آية فأنطق صغيرها، فثبتت على دينها. وألقت بنفسها وبرضيعها فى النار، تهون الدنيا عليها فى مقابل الحفاظ على الإيمان.

* وقص علينا ربنا شيئًا من حياة امرأة فرعون، وأنها آمنت وثبتت على دينها، ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وأخبرتنا السنة النبوية بقصة هذه المؤمنة تفصيلاً، وأن فرعون عذبها بصنوف العذاب، فعذبها بالوقوف فى الشمس فى أوقات الصيف، وصلبها على أوتاد، وألقى عليها أثقل الصخور، كل ذلك وهى ثابتة على دينها لم يؤثر فيها شىء من ذلك!

وكان الله يريها آيات، فكان الملائكة يظللون عليها، وكانت ترى منازلها فى الجنة[3].

وصدق الله العظيم، إذ يقول: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[4].

---

(١) الحديث بطوله أخرجه مسلم فى الزهد باب قصة أصحاب الأخدود ٤/٢٢٩٩ رقم ٧٣/٣٠٠٥ وفى شعب الإيمان ٢/ ٢٤٠ رقم ١٦٣٤.

(٢) سورة التحريم آية ١١.

(٣) أحاديث امرأة فرعون أخرجها ابن جرير الطبرى ٢٨/١٧١ وهى عند البيهقى فى الشعب ٢/ ٢٤٤ رقم ١٦٣٧، ١٦٣٨ وعند ابن كثير فى آخر تفسير سورة التحريم ٤/٣٩٣، ٣٩٤.

(٤) سورة إبراهيم: ٢٧.

والمعنى: إن الله سبحانه يثبت المؤمنين على الحق، ويجعلهم متمسكين به، وذلك بتحبيب الإيمان إليهم، ويريهم من الآيات ما يطمئنهم. يحدث هذا فى الدنيا فالمؤمنون ثابتون على الحق، متمسكون به. لا تصرفهم الصوارف مهما اشتدت، ولا تؤثر فيهم الفتن مهما كثرت. ويحدث هذا فى الآخرة أيضًا فلا يتلعثمون عند السؤال، ولا يتأثرون بفعل الفتانين.

* وقص علينا ربنا شيئًا من قصة يوسف عليه السلام، وهذا درس يختلف عن سابِقَيْه، فإذا كان أصحاب الأخاديد، استهانوا بالقتل فى سبيل التمسك بدينهم. وامرأة فرعون تحمَّلت العذاب فى سبيل التمسك بدينها. إذا كان هؤلاء تحمَّلوا العذاب حتى القتل فى مقابل أن يظلوا على الإيمان، فإن قصة يوسف تفيد أنه تحمَّل العذاب فى مقابل ألا يرتكب ذنبًا، تحمَّل السجن والتعذيب فى مقابل أن لا تقع منه معصية!!

يقول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ [1] عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ [2] وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ [3] رَبِّ [4] السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ [5] وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ [6]** ﴾

رفض يوسف عليه السلام الذنب، وسأل ربه أن يصرفه عنه، وأعلن أن السجن أحب إليه من الذنب.

---

(١) امرأة عزيز مصر راودت يوسف عليه السلام.

(٢) أبى أن يبادلها الغرام، وإنما «استعصم» أى امتنع.

(٣) أى يوسف عليه السلام. وكان لم يبعث بعد.

(٤) يا ربى.

(٥) أميل إليهن.

(٦) وأصير من الجاهلين أى المذنبين. والآيتان من سورة يوسف رقم ٣٢، ٣٣.

* وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن المؤمنين يبيعون أنفسهم وأموالهم لله، رجاء رضوانه سبحانه وتعالى، وأن الله سبحانه وتعالى يعاوضهم عن ذلك الجنة. وبينت كتب السنة النبوية وكتب السيرة كثيرًا من ذلك!!

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

وفى كتب السنة والسيرة قصص كثيرة من تطبيق هذه الآية، أكتفى منها بقصة الصحابى الجليل عبد الله بن حذافة السهمى، أحد السابقين إلى الإسلام.

عن أبى رافع قال: وجَّه عمر بن الخطاب جيشًا إلى الروم، وفيهم رجل يقال له عبد الله بن حذافة، من أصحاب النبى ﷺ، فأسره الروم، فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا: إن هذا من أصحاب محمد.

فقال له الطاغية: هل لك أن تتنصر وأشركك فى ملكى وسلطانى؟

فقال له عبد الله: لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت.

قال: إذًا أقتلك.

قال عبد الله: أنت وذاك[2].

قال الراوى: فأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريبًا من يديه، قريبًا من رجليه، وهو يعرض عليه، وهو يأبى. ثم أمر به فأُنزل، ثم دعا

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) اى افعل فإنى لا ابالى.

بقدر، وصب فيه ماء حتى احترقت[1]. ثم دعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقى فيها، وهو يعرض عليه النصرانية، وهو ويأبى. ثم أمر به أن يلقى فيها. فلما ذُهِب به بكى.

فقال الجنود للملك: إنه بكى!

فظن الملك أن ابن حذافة قد جزع[2].

فقال الملك: ردوه، فعرض عليه النصرانية، فأبى!

فقال الملك: فما أبكاك إذًا؟

قال ابن حذافة: أبكانى أنى قلت فى نفسى تُلْقى الساعة فى هذا القدر، فتذهب. فكنت أشتهى أن يكون بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تُلْقى فى النار فى الله عز وجل.

فقال الطاغية: هل لك أن تقبل رأسى وأخلِّى عنك؟

قال عبد الله: وعن جميع أسارى المسلمين.

قال الطاغية: وعن جميع أسارى المسلمين.

قال عبد الله: فقلت فى نفسى، عدو من أعداء الله أُقَبِّل رأسه يخلِّى عنى وعن أسارى المسلمين؟ لا أبالى.

فدنا عبد الله من الملك الطاغية وقبل رأسه.

فدفع إليه الأسارى.

فقدم بهم عبد الله على عمر، فأخبر عمر خبره.

فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا

(١) أى غلا الماء جيدا.

(٢) خاف الموت.

أبداً، فقام عمر فقبل رأسه(١).

وهكذا تبين الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية أن المؤمنين يتمسكون بدينهم، لا يفرطون فيه مهما اشتدت الفتن، حتى ولو وصل الأمر أن يقتلوا!! تهون الحياة عليهم، ولا يهون الإيمان، وهذا شأن المؤمنين الصالحين، فلنكن على دربهم لنفوز بما فازوا.

ثانياً: تحذير المسلم من الصوارف عن الدين:

أ ـ تعرية أساليب المنافقين والكافرين فى الكيد للإسلام: فلقد بين لنا ربنا مؤامرات الكفار والمنافقين على المسلمين، وحذر المسلمين هذه المؤامرات، وبينت السنة النبوية الكثير من هذه المؤامرات، مما معه يتضح للمسلم أن عليه ألا يأمن لكافر أو منافق.

* يقول الله تبارك وتعالى: **﴿هُوَ الَّذى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ (٢) هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ (٣) وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ (٤) فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا (٥) وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾** (٦).

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان فى الخصلة السادسة عشرة «شح المرء بدينه» ٢/ ٢٤٤ رقم ١٦٣٩. وذكره ابن حجر فى الإصابة ٦/ ٥٤ والذهبى فى السير ٢/ ١٤.

(٢) واضحة المعنى كآيات الأمر بالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وبر الوالدين، وحقوق الجار، وما إلى ذلك.

(٣) أى أصل القرآن.

(٤) مثل الحروف المقطعة فى أول السور، ووقت قيام القيامة، وما خفى معناه.

(٥) العلماء يعملون بما وضح معناه من القرآن الكريم، أما ما لم يتضح معناه فيبذلون جهدهم فى الوصول إلى فهمه، ومن المتشابه ما لا يمكن الوصول إليه، كوقت قيام الساعة فهم يؤمنون بذلك ويفوضونه إلى الله تعالى.

(٦) سورة آل عمران: ٧.

إن القرآن فيه آيات واضحة المعنى، وآيات غير واضحة، وأهل الإيمان الصادق يفهمون الآيات الواضحة المعانى، أما غير الواضحة فيسألون العلماء عنها، أو يفوضون علمها إلى الله تعالى. هذا حال الصادقين.

أما الذين فى قلوبهم مرض من كافرين ومنافقين فهؤلاء يتبعون الآيات المتشابهة أى الغير واضحة المعنى، يثرثرون بها ﴿**ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ**﴾ أى عملاً على تشكيك المسلم فى دينه، إنهم يتبعون الآيات المتشابهة ﴿**ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾ أى ابتغاء تأويل القرآن على أهوائهم.

إن الكفرة والمنافقين ليسوا أهلاً لتأويل القرآن، فتأويل القرآن إنما هو خصوصية الراسخين فى العلم، الصادقين فى دينهم، أما الكفرة والمنافقون فإنما يؤلون القرآن تأويلاً فاسدًا يتفق مع أهوائهم وضلالهم، وعليه فهم مبطلون ضالون مضللون.

وهذا المعنى وضحه رسول الله ﷺ:

فعن عائشة رضى الله عنها قالت «تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿**هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ...**﴾ إلى قوله: ﴿**أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»[1].

وهكذا تفيد الآيات والأحاديث أن أصحاب القلوب المريضة من كفرة ومنافقين إنما يحرصون على تشكيك المسلمين فى دينهم. وتحذرنا الآيات والأحاديث منهم.

---

(١) أخرجه البخارى فى التفسير فى سورة آل عمران باب منه آيات محكمات ٢٠٩,٨ رقم ٤٥٤٧. -

* ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾[1].

يحذرنا ربنا من طاعة الكافرين، فإنا لو أطعناهم لترتب على ذلك أن يردونا إلى الكفر، وأن نخسر الدنيا والآخرة. ثم أوصانا سبحانه بأن نطيعه سبحانه فهو سبحانه ولينا ومعيننا، نتولاه بالطاعة، وهو سبحانه يتولانا بالعناية والرحمة.

هكذا تبين الآية أن الكافرين لو كانت لهم كلمة فينا لردونا إلى الكفر والخسارة!! فلنحذرهم، ولنجعل أمورنا بأيدينا.

* ويقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

هذا شأن كثير من الكفار يخادعون ويتآمرون، ويخبرنا ربنا فى هذه الآية عن صورة من صور تآمرهم، وهى اتفاقهم سرًا على أن يتظاهروا بالإيمان أول النهار، ثم يرتدوا عنه آخر النهار، مدعين أنهم لم يجدوا فيه الحق الذى يريدونه، يخدعون بذلك من لا علم له بدهائهم، ويوهمون الناس بأن بعض من أسلم قد يكفر، يقصدون بذلك صرف الناس عن الإسلام!!

لقد تآمروا على ذلك سرًا إلا أن كشف تآمرهم، تحذيرًا للمسلمين وإعلامًا لهم بحقيقة الأمر.

وأسلوب المخادعة والدس أسلوب معمول به لدى الكفرة والمنافقين على طول التاريخ، فلا زال الكفر يدارى ويمارى، ولا زال النفاق يخادع

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٩، ١٥٠.

(٢) سورة آل عمران: ٧٢.

ويمكر، والقرآن الكريم يحذر المسلمين، ويكشف عن ألاعيب الكفر، ومؤامرات النفاق.

* ويقول تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (١).

وهذه صورة أخرى من تآمر اليهود على نبى الإسلام ﷺ.

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال كعب بن أسد، وابن صوريا، وشاس ابن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنَّا أحبار اليهود، وأشرافهم، وساداتهم، وأنَّا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك. فأبى رسول الله ﷺ، فأنزل الله فيهم ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (٢).

يريدون صرفه ﷺ عن دينه، وذلك بمخالفة تعاليم دينه، ولو فى حرف!!

وهذا شأن الكثيرين من أهل الكفر، يحرصون على أن يخالف المسلمون دينهم ولو فى قليل.

وربنا تبارك وتعالى إذ يخبرنا عن مؤامرتهم هذه على رسوله ﷺ، إنما يحذرنا على طول تاريخ الأمة، فليحذر المسلمون فى كل زمان ومكان

(١) سورة المائدة: ٤٩.

(٢) أخرجه ابن جرير فى تفسيره ٦/ ٢٧٣.

مؤامرات الكفر، فلقد تآمروا على رسول الله إلينا، فما بالك بنا!!

* ويقول سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [1].

يخبرنا ربنا فى هذه الآية عن المنافقين، وقد كانوا رفضوا الخروج مع المسلمين فى غزوة تبوك، يخبرنا سبحانه أنهم لو كانوا خرجوا مع جيش المسلمين ما زادوا المسلمين إلا خبالا أى: إلا اضطرابًا فى الرأى، وفسادًا فى العمل، وضعفًا فى القتال، ذلك لأنهم يحرصون على كل شر للمسلمين.

ولو خرجوا فى جيش المسلمين ﴿لأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ ولأسرعوا بينكم بالإشاعات الكاذبة حال كونهم طالبين فتنتكم فى دينكم، أى صرفكم عن دينكم، بتشكيككم فى ثبوت الدين من توحيد، وعبادة، وحرص على الجهاد.

هذا شأن المنافقين وجودهم بين المسلمين يزيد المسلمين خبالا، أى فسادًا.

ويشيعون الأباطيل، ويحاولون صرف المسلمين عن دينهم. إنهم شر مستطير. يحذرنا القرآن الكريم منهم.

وهكذا توضح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية مواقف الكفار والمنافقين من أمة الإسلام.

إن غير المسلمين يحقدون على المسلمين حقدًا عظيمًا، ويبذلون كل ما لديهم من حيلة وقوة فى سبيل صرف المسلمين عن دينهم!!

---

(١) سورة التوبة: ٤٧.

ويحرصون كل الحرص على إلحاق الضرر بالمسلمين!!

ولم تقف الآيات والأحاديث عند حد توضيح موقف الكفرة والمنافقين من أمة الإسلام، وإنما جمعت مع ذلك كشف أساليبهم فى الكيد للإسلام والمسلمين:

* من إشاعة الشبهات لتشكيك المسلمين فى دينهم.

* ومحاولة تشويه صورة الإسلام.

* ومحاولة إبعاد المسلمين عن دينهم بإشاعة الشهوات.

ولم تقف النصوص أيضًا عند كشف أساليبهم، وإنما تعدت ذلك. فوضحت للمسلم كيف يتقى مؤامراتهم، فحذرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من الشهوات والشبهات، كما سأوضحه تحت العنوان التالى:

ب ـ التحذير من الشهوات والشبهات:

حذرت آيات قرآنية وأحاديث نبوية من الشهوات والشبهات، وأظهرت عظمة الإسلام وشين الكفر، وبهذا أبطلت أساليب الكفار والمنافقين فى الكيد للمسلمين.

* أما الشهوات، فلقد جاء التحذير منها، والتنفير من الإقبال عليها: يقول ربنا تبارك وتعالى: **﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾**[1].

---

(١) سورة الحديد: ٢٠.

يحذرنا سبحانه أن تلهينا الدنيا عن طاعته سبحانه، ويبين سبحانه أن الدنيا بلعبها ولهوها، وما فيها من اغترار بالأموال والأولاد، إنما هى ظل زائل كزرع هاج واشتد، ثم لم يلبث أن صار حطامًا، جافًا متكسرًا، وكذلك الدنيا يقوى الصغير، ويصير شابًا قويًا، ثم تعتريه الشيخوخة والضعف، وهكذا الدنيا متاع يغر من قصر نظره، ولم يفكر فيما بعد الدنيا.

إن الله سبحانه يحذرنا الانشغال بالأموال والأولاد، فما بالك بالملاهى والملاعب!!

علينا أن نحذر كل ما يشغلنا عن الله سبحانه وتعالى وطاعته. وعلينا أن نجتهد فى كل ما يقربنا إليه سبحانه وتعالى.

والآيات فى التحذير من الشهوات غير الآية السابقة ـ كثيرة، منها:

* قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾[(١)].

* وقوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[(٢)].

* وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي**

---

(١) سورة آل عمران: ١٤.

(٢) سورة المنافقون: ٩.

﴿الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [١].

وجاءت أحاديث كثيرة تحذر من الشهوات، منها:

* قوله ﷺ «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها[٢] كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[٣].

* وقوله ﷺ «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون. فاتقوا الدنيا[٤]، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء»[٥].

* وقرأ ﷺ سورة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ...﴾ [٦] فقال: «يقول ابن آدم: مالى مالى[٧]. وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[٨].

وفى لفظ آخر «يقول العبد مالى، مالى. إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو ما لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى[٩]. وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس»[١٠].

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.
(٢) أى فتتنافسوها. بمعنى: تحرصون عليها، وتتسابقون فى جمعها.
(٣) أخرجه البخارى فى الجزية الباب الأول ٦/٢٥٧، ٢٥٨ رقم ٣١٥٨.
(٤) أى خافوها أن تشغلكم عن طاعة الله تعالى.
(٥) أخرجه مسلم فى الذكر باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء ٤/٢٠٩٨ رقم ٩٩ - ٢٧٤٢.
(٦) أى: شغلكم الاستكثار من المال والولد عن طاعة الله تعالى.
(٧) أى: مالى الذى جمعت، ومالى الذى أحرص عليه. والمعنى: أن الإنسان يحرص على المال، بينما هو سيتركه ويموت.
(٨) أخرجه مسلم فى أول كتاب الزهد ٤/ ٢٢٧٣.
(٩) أى تصدق فادخر لآخرته.
(١٠) عند مسلم فى التخريج السابق.

* وقوله ﷺ «إن مما أخشى عليكم شهوات الغى[١] فى بطونكم وفروجكم ومضلات[٢] الهوى»[٣].

وفى رواية «ومضلات الفتن».

وأما الشبهات والتى هى محاولة عيب الإسلام، فهذه حذر القرآن والسنة منها. وقد سبق شىء من ذلك[٤].

وهكذا فالأمة معصومة بفضل الله من الكفر الجماعى. أما الأفراد والجماعات القليلة فلقد أرسى الإسلام لها المنهج الكفيل بثباتها دينيًا.

إن الدارس للإسلام يعتز به كل الاعتزاز، فإنه يسعد بسمو الإسلام وعظمته، وأنه الدين العظيم الذى يسعد كل البشرية فى كل زمان ومكان.

كما أن الدارس للإسلام تقر عينه، ويسعد فؤاده بمعرفة منهج الصالحين فى ثباتهم على دينهم.

أما الصوارف التى قد تصيب الشخص فى دينه، فهذه عَرَّف بها الإسلام، وحذَّر منها، ما بين مؤامرات الكافرين والمنافقين، وما بين الشهوات والنزوات.

وبذا سلمت الأمة بجملتها من الكفر، وسلم الأفراد أيضًا من الكفر، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الغى هو الضلال والخَيْبة. والمعنى: إنه ﷺ يخاف علينا من الشهوات التى تورث الخيبة والضلال، من شهوات البطن كالكسب الحرام، وشهوات الفرج كالزنا.

(٢) أى والأهواء التى تضل أصحابها.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٤٢٠، ٤٢٣، وأخرجه البزار والطبرانى فى معاجمه، وأخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب «السنة» فى أول الكتاب ١/ ٤٤ رقم ١٤ وصححه محققه. ونقل عن الهيثمى ١/ ١٨٨: رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الثلاثة ورجاله رجال الصحيح.

(٤) راجع عنصر «تعرية أساليب المنافقين والكافرين فى الكيد للإسلام» ص ٢٢٠، وفى «بيان سمو الإسلام» ص ٢٠٩، و«خسة الكفر» ص ٢١٣.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

الإسلام الدين الحق، تحرص عليه القلوب السليمة، والفطر القويمة، هو دين الإنصاف والعدل، دين الصدق والود، ارتقى بالإنسانية كل الارتقاء، وأسعدها حق السعادة، هو الدين الذى ارتضاه الله للبشرية، قال سبحانه فى آخر ما أنزل من كتابه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[1].

هذا الدين فى نصوصه من كتاب وسنة:

أ ـ الحث على الثبات على الدين، والتمسك بأصوله وفروعه.

ب ـ والتحذير من الصوارف عن الدين، والاحتياط من مؤامرات شياطين الإنس والجن.

والأمة يتنازعها هذان العاملان، وهنا يتساءل الدارس لحياة هذه الأمة: أى العاملين ستكون له الغلبة؟ عامل الثبات على الدين، أم الفتن والصوارف؟

فجاء هذا الحديث ليرجح كفة الخير، ويبين أن هذه الأمة ستظل على إسلامها، إذ أخبر فيه ﷺ أنه سأل الله تعالى لأمته الثبات على الإسلام، وأن الله سبحانه وتعالى استجاب دعوته ﷺ.

إن الفتن والصوارف عن الإسلام تجعل الناظر لأحوال الأمة يظن أن الشر سينتصر، وأن الكفر قد ينتشر، فالكفر كله يحارب بكل قوته، وشياطين الإنس والجن يبعثرون الشهوات والشبهات على الأمة، مما يجعل الناظر يخاف على مستقبل دين الأمة، فجاء هذا الحديث فبين أن الله سبحانه سيحفظ هذه الأمة من الانقلاب عن الإسلام، وأنها لن

---

(١) سورة المائدة: ٣.

تخرج منه، وإنما ستظل متمسكة بالإسلام حريصة عليه.

وتحقق ما أخبر به ﷺ، فلم تنقلب الأمة عن الإسلام إلى الكفر، وإنما هى مقبلة على الإسلام كل الإقبال، معتزة به كل الاعتزاز. تبغض الكفر وتنفر منه، ولم تؤثر عليها الفتن والصوارف عن الدين.

وهذا من أدلة نبوته، إذ وقع الأمر كما أخبر ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

• الدروس المستفادة من الحديث:

١ ـ أمة الإسلام معصومة من الكفر، لن تكفر، ولن يكفر جيل منها، وإنما ستظل على الإسلام، دعا لها بذلك رسول الله ﷺ، واستجاب ربنا سبحانه وتعالى دعوته، وطمأنه وطمأننا ﷺ.

٢ ـ شفقة الرسول ﷺ على أمته، ومن هنا دعا لها، وألح على الله فى الدعاء، دعا لها بأهم الأشياء، بالثبات على الإسلام، الدين الذى ارتضاه الله ويرضى به عنا.

٣ ـ إكرام الله هذه الأمة ونبيها، فمن إكرام الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ وأمة الإسلام أن استجاب دعوة رسوله، وطمأنه بأن هذه الأمة لن تكفر، وإنما ستظل على الإيمان.

٤ ـ الكفر شر مستطير، خافه رسول الله ﷺ على الأمة، ويجب أن يخافه كل فرد على نفسه، وعلى جماعته، وعلى الأمة، وعلى الجميع أن يعمل على البعد عن الكفر، وعلى الثبات على الإسلام.

٥ ـ على كل مسلم أن يحافظ على دينه، وذلك بمعرفة أصوله ليعمل بها، ومعرفة نواقضه ليحذرها.

٦ ـ على علماء الأمة دراسة أساليب الأعداء فى الكيد للمسلمين، لتحذير المسلمين منها.

٧ ـ على الأمة أن تستفيد بعلم العلماء، كل فى تخصصه، كى يسلم لها دينها.

* * *

٦- الدعاء بأن لا يجمع الله هذه الأمة على ضلالة

* عن أبى بَصْرَة الغفارى صاحب رَسُول اللَّه ﷺ «أنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: سَأَلتُ رَبِّى عزَّ وجَلَّ أَرْبَعًا، فَأَعْطَانى ثَلاثًا، ومَنَعَنى واحدَةً:

سَأَلتُ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أن لا يَجْمَعَ أُمَّتى علَى ضَلالَة، فأَعْطَانيهَا.

وَسأَلتُ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أن لا يُظْهرَ عَلَيْهم عَدوًا منْ غَيْرهم، فَأَعْطَانيهَا.

وَسَأَلتُ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أن لا يُهْلكَهُمْ بِالسِّنين كَمَا أَهْلَكَ الأُمَمَ قَبْلَهُم، فأَعْطَانيهَا.

وَسَأَلتُ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ أن لا يَلْبِسَهُم شِيَعًا، ويُذيقَ بَعْضَهُم بَأسَ بَعْضٍ، فَمَنَعَنيهَا»[١].

* وعَنْ كَعْب بْن عَاصم أبِى مَالك الأشْعَرىِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إنَّ اللَّهَ أَجَارَكُمْ منْ ثَلاث خلاَل: ألاَّ يَدْعُو عَلَيْكُمْ نَبيُّكُمْ فَتَهْلكُوا جَميعًا. وَألاَّ يَظْهَرَ أَهْلُ البَاطلِ علَى أَهْل الحقِّ. وَألاَّ تَجْتَمعُوا عَلَى ضَلالَة»[٢].

وكون الأمة لا تجتمع على ضلالة، أو عصمة الأمة، هذا من الأمور القطعية التى جاءت فى القرآن الكريم[٣]، ومتواتر السنة النبوية[٤].

• المعانى:

«سألت ربى عز وجل أربعًا» يخبر ﷺ أنه سأل الله عز وجل أربع خصال، أو أربعة أشياء لأمته. وهذه الخصال الأربع إنما يستعيذ بالله أن

---

(١) اخرجه أحمد ٤٥/ ٢٠٠ وقال محققه: صحيح لغيره. وجمع له عددا من الشواهد.

(٢) اخرجه أبو داود فى الفتن باب ذكر الفتن ودلائلها ١١/ ٣٢٥. وهو حديث حسن.

(٣) راجع فى الشرح «حجية الإجماع» ص ٢٣٩، و«عصمة الأمة» ص ٢٤٠.

(٤) راجع نظم المتناثر ص١٠٤ حديث، رقم ١٧٩.

تقع فى أمته، ولقد حدد هذه الخصال فى هذا الحديث.

«ألا يجمع أمتى على ضلالة» سأل ﷺ ربه ألا تجتمع أمته على ضلالة. و«الضلالة» و«الضلال» ضد الهدى، وهو يشمل كل ما ليس من الإسلام، من أكبر الكبائر، وهو الشرك، إلى أدنى مخالفة، كمن يشترى فيزيد أى قدر فى الميزان. أو كمن يبيع فيبخس أى قدر فى الميزان. قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

وهو ﷺ يسأل الله ألا يجمع أمته على أية ضلالة، فلا تفعل الأمة كلها ضلالة تراها هدى. ولا تفعل الأمة كلها ضلالة تتعمد مخالفة الإسلام. أما أن يقع ذلك من فرد أو مجموعة فذلك جائز.

والمراد بـ «أمتى» أمة الإجابة. والمقصود علماؤها. فلن يجتمع علماء الإسلام على ضلالة، وإنما إذا زل أحدهم أو قلة منهم ظل الأكثرون على الحق.

«ألا يظهر عليهم عدوًا من غيرهم» «ألا يظهر» معناها: ألا ينصر. والمعنى: أنه ﷺ سأل ربه ألا ينصر على أمته عدوًا من غيرها.

«ألا يهلكهم بالسنين» بالسنين أى «بالقحط»، الذى هو عدم الماء.

«ألا يلبسهم شيعًا» أى ألا يختلفوا ويتنازعوا.

«ويذيق بعضهم بأس بعض» أى وألا يقتل بعضهم بعضًا.

«إن الله أجاركم من ثلاث خلال» أى إن الله حفظكم من ثلاث خصال، أو من ثلاثة أمور، ثم بين هذه الأمور الثلاثة فى هذا الحديث.

---

(١) آخر سورة الزلزلة.

«وألا يظهر أهل الباطل على أهل الحق» أى وأجاركم الله من أن ينتصر أهل الباطل، أهل الكفر، على أهل الحق، أهل الإسلام. فلن ينتصر أهل الكفر على أهل الحق جميعًا.

• راوى الحديث الأول:

أبو بَصْرة الغفارى: حُمَيْل بن بصرة بن وقاص أبو بصرة الغفارى. صحابى بن صحابى بن صحابى. شهد جده وقاص بن حاجب أبو بصرة فتح خيبر مع رسول الله ﷺ.

روى حميل عن النبى ﷺ، وعن أبى ذر الغفارى.

وروى عنه عمرو بن العاص، وأبو هريرة، وأبو الخير مرثد بن عبد الله وغيرهم.

وشهد أبو بَصْرة هذا فتح مصر، وبنى له فيها بيتًا، وتوفى ودفن فيها.

وفى ترجمة أبى بصرة هذا قصة تبين عمق بحث المحدثين. يقول على ابن المدينى ـ أحد علماء الحديث ـ سألت شيخًا من بنى غفار، فقلت له: هل يعرف فيكم جَميل بن بصرة ـ قلته بفتح الجيم؟ فقال: صحفت[1] يا شيخ، والله، إنما هو حُمَيْل ـ بالتصغير والمهملة ـ وهو جد هذا الغلام، وأشار إلى غلام معه.

روى لحميل هذا: البخارى ـ فى الأدب المفرد ـ، ومسلم، وأبو داود، والنسائى[2].

---

(١) التصحيف: الخطأ فى ضبط الكلمة أو نقطها، فإذا قرئت «حُمَيل» «حَميل» فهذا تصحيف. وإذا قرئت «حميل» «جميل» فهذا أيضا تصحيف. وقد يقال للأول ـ الخطأ فى الضبط ـ تصحيف وللثانى ـ الخطأ فى النقط ـ تحريف.

(٢) مصادر ترجمته: تهذيب الكمال ٧/ ٤٢٣، إصابة ٢/ ١٣٠، تهذيب التهذيب ٣/ ٥٦.

• راوى الحديث الثانى:

أبو مالك الأشعرى: صحابى مشهور بكنيته أكثر من اسمه، روى عن النبى ﷺ، روى عنه إبراهيم بن مقسم الهذلى، وخالد بن سعيد بن أبى مريم، وشريح بن عبيد الحضرمى.

أخرج عنه مسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه.

توفى سنة ثمانى عشرة فى خلافة عمر بن الخطاب[1].

• الشرح:

من دعوات رسول الله ﷺ لأمته ألا تجتمع على ضلالة، بمعنى أن لا تنحرف جميعها عن الحق، وإنما إن زل بعضها بقى الآخرون على الحق، يتمسكون به، وينصرونه.

إنه ﷺ يسأل الله أن يظل الحق محفوظًا، والأمة متمسكة به، لا تحيد عنه، ولا تنحرف.

*** أبعاد الدعوة:**

وواضح من هذه الدعوة أنه ﷺ سأل الله أن يثبت الأمة على الحق كله:

واجبه، ومستحبه، ومباحه تعمل به.

وحرامه، ومكروهه تجتنبه.

(١) ترجمته فى تهذيب الكمال ٣٤/ ٢٤٥ وتهذيب التهذيب ١٢/ ٢١٨ وقد تقدمت ترجمته فى الجزء الأول من هذا الكتاب عند شرح حديث «ليشربن ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها» ص٢٨٢ بأطول من هذا.

إنه يسأل الله للأمة ألا تضل فى أى أمر من دينها، ولا تقع فى أى مخالفة، وإنما يظل الحق واضحًا معلومًا، معمولاً به.

ويظل الباطل واضحًا معلومًا. مبتعدًا عنه.

إنه يسأل الله سبحانه أن يوفق الأمة دائمًا لمعرفة الحق، والثبات عليه، وألا تنقلب عنه إلى الباطل.

وهذه الدعوة مكملة للدعوة السابقة عليها، والتى هى «الدعاء بألا تكفر هذه الأمة» والتى تفيد أن أمة الإسلام لن تنقلب إلى الكفر.

ذلك أن دعوة عدم اجتماع الأمة على ضلالة، تفيد أن الأمة سيظل دينها قويمًا، وهديها مستقيمًا، لا تُغَيِّر ولا تُبَدِّل، ولا تنحرف.

*** سبب الدعوة:**

كم من أمم كذَّبت رسلَ الله فأهلكها الله!!

وكم من أمم ضَلَّت فى دينها فكان عاقبتها الخسران!!

والقرآن الكريم يسجل ذلك:

* فيقول الله تعالى: **﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾** [1].

يخبر سبحانه أن المشركين إن كذبوك يا محمد فهذا شأن الكثيرين فقد كذبت أمم عديدة رسلهم فعاقبهم الله بذلك. وكثير من الجماعات والأمم أهلكناهم بسبب كفرهم، فأصبحت بلادهم خالية من أهلها، وتهدمت

(١) سورة الحج ٤٢ ـ ٤٥.

المبانى، وجفت الآبار، وكثير من القصور الفخمة أيضًا خربت من ساكنيها، كل ذلك بسبب تكذيبهم رسل الله إليهم. وجحودهم آيات الله الظاهرة فى الكون، فهذه سنة كونية لله سبحانه وتعالى فى خلقه، يهلك من كذب المرسلين.

* ويقول سبحانه وتعالى بعد أن أخبر عن تكذيب قوم إبراهيم وقوم لوط، وتكذيب أهل مدين رسول الله شعيبًا، وتكذيب عاد لهود، وتكذيب ثمود لصالح، وتكذيب قارون وفرعون وهامان لموسى، بعد أن أخبر سبحانه وتعالى عن تكذيب هؤلاء لرسلهم قال سبحانه: ﴿**فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ (١).

يبين سبحانه أيضًا أن سنته سبحانه فى الخلق أن يهلك الأمة التى تكذب رسوله سبحانه وتعالى إليها، وأن العقوبات تتنوع لكنها تجتمع كلها فى كونها مهلكة.

* ويقول سبحانه: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**﴾ (٢).

* ويقول سبحانه: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ...**﴾ (٣).

(١) سورة العنكبوت: ٤٠.
(٢) سورة ق: ١٢ ـ ١٤.
(٣) سورة الطلاق ٨ ـ ١٠.

وكثير من آيات القرآن الكريم تبين أن كل أمة ابتعدت عن دين الله وعصت رسل الله فإن الله يعاقبها بالهلاك. وإنما عمدت هنا إلى الآيات العامة التى تبين أن هذا قضاء الله فى خلقه، وسنة الله فى ملكه.

ومن هنا عمد ﷺ إلى دعاء ربه أن يحفظ أمته على الإسلام، فاستعاذ بالله من كفر الأمة كما فى الحديث السابق.

واستعاذ بالله من ضلال الأمة كما فى الحديث الذى معنا.

إنه يستعيذ بالله من تضييع الأمة دين الله، ويسأل الله أن يحفظ عليها دينها.

* استجابة الدعوة:

ولقد استجاب الله هذه الدعوة من رسوله ﷺ، وطمأنه أن أمته لن تجتمع على ضلالة، وأخبرنا ﷺ بنعمة الله تعالى هذه يطمئننا ويسعدنا بذلك.

إنه طمأننا أننا لن نحيد عن الحق، ولن نجتمع على باطل، سأل ﷺ ربنا ذلك، واستجاب ربنا سبحانه وتعالى دعوة رسوله هذه.

ولقد جاءت أحاديث أخرى، تكلم فيها ﷺ بما يفيد أن هذا الأمر أصبح من المسلمات:

* ففى الحديث الثانى من حديثى الباب «إن الله أجاركم من ثلاث خلال: ألا يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا جميعًا. وألا يظهر أهل الباطل على أهل الحق. وألا تجتمعوا على ضلالة». وهذا يفيد أن عدم الاجتماع على ضلالة أمر قد فرغ منه، وأصبح صفة من صفات هذه الأمة.

* وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «لن

تجتمع أمتى على الضلالة أبدًا»(١).

* وعن أنس بن مالك أن النبى ﷺ كان يقول «إن الله قد أجار أمتى أن تجتمع على ضلالة»(٢).

* وعن عمرو بن قيس أن رسول الله ﷺ قال «وإن الله وعدنى فى أمتى وأجارهم من ثلاث: لا يعمهم بسنة، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة»(٣).

● وأحاديث أخرى كثيرة، كلها تثبت هذا، أذكر أقواها وأهمها وهو:

* حديث معاوية بن أبى سفيان قال «سمعت النبى ﷺ يقول: لا يزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من كذبهم ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»(٤).

إن هذه الأحاديث تفيد أنه ﷺ قد اطمأنَّ لهذه الصفة لأمته ﷺ، وأن الله سبحانه لا يجمعها على ضلالة، وأن الحق معلوم فى هذه الأمة شائع، وهذا يتضح أكثر من خلال النقاط الآتية:

١ ـ حُجيَّةُ الإجماع:

ولقد ترتب على دعوته ﷺ هذه واستجابتها أن عُلِمَ أنَّ أىّ أمر شرعى أجمع عليه علماؤه من هذه الأمة، فهو حجة قطعية ملزمة للمسلمين، منذ الإجماع عليه إلى قيام الساعة.

ولقد استدل علماء الأمة بهذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه،

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير ١٢/٤٤٧ رقم ١٣٦٢٣ قال فى المجمع ٥/٢١٨ رجاله رجال الصحيح خلا مرزوق مولى آل طلحة وهو ثقة.

(٢) أخرجه فى السنة ١/٨٨ رقم ٨٣ وحسنه محققه.

(٣) أخرجه الدارمى ١/٤٢ رقم ٥٤.

(٤) أخرجه البخارى رقم٧٤٦٠ وقد أفردته فى باب «الإخبار بالطائفة المنصورة» ص٩٢ من هذا الجزء.

وبالأحاديث التى فى موضوعه، استدلوا بذلك على حجية الإجماع، وأن أى أمر أجمع علماء الأمة على وجوبه فهو واجب، ولا تجوز مخالفة هذا الإجماع فى زمانه، ولا بعد زمانه. وكذلك الأحكام الأخرى، من استحباب، أو كراهة، أو تحريم.

كما استدلوا على حجية الإجماع أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (١).

ووجه الدلالة فى الآية: أن الله تبارك وتعالى توعد بالعذاب من اتبع غير طريق المؤمنين، مما يدل على وجوب اتباعه، وتحريم اتباع غيره، وهذا يفيد حجية الإجماع، وأن الأمة لا تجمع إلا على حق.

يقول ابن تيمية: وإذا أجمع أهل العلم على شىء فسائر الأمة تبع لهم، فإجماعهم معصوم لا يجوز أن يجمعوا على خطأ(٢).

إن فقهاء الأمة إذا أجمعوا على أمر فهو الحق الذى لا مرية فيه. والمحدثين إذا حكموا بصحة حديث فهو الحق الذى لا ينبغى إلا اتباعه. وهكذا كل العلوم، وفى كل زمان ومكان، إجماع علماء الأمة حق وصدق، لا ينبغى الحيد عنه، ولا يجوز إلا اتباعه.

٢ ـ عصمة الأمة:

وأفادت هذه الأحاديث أيضًا أن أمة الإسلام أمة معصومة، لا يضيع الحق فيها ولا ينقص، يحافظون على نصوص دينهم، ويفهمونها على الوجه الصحيح. ويستنبطون ما اشتملت عليه.

---

(١) سورة النساء: ١١٥.

(٢) مجموع الفتاوى حـ١٨/ ص١٧.

* يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[١].

و«العالمون» جمع عالم. فالعلماء يفهمون النصوص، ويدركون كل معانيها. ولا يخفى على جميعهم حكم، ولا يضيع عليهم حق.

* ويقول رسول الله ﷺ «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات مات مِيتَةً جاهلية»[٢].

إنه ﷺ يحذر من مخالفة الجماعة، ويبين أن من مات خارجًا عن الجماعة فهو عاص، وما ذلك إلا لعصمة الجماعة، وأنها دائمًا على الحق.

* ويقول ﷺ «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى. والنفس بالنفس. والتارك لدينه المفارق للجماعة»[٣].

إنه ﷺ يبين أن ترك الدين ومفارقة الجماعة تجعل الشخص حلال الدم، شأن ذلك شأن المتزوج إذا زنى، وشأن من قَتَل. إنه يحذر من ترك الجماعة، فالجماعة عصمة من الزلل، وسبيل اتباع الحق.

يقول الغزالى: تظاهرت الرواية عن رسول الله ﷺ بألفاظ مختلفة مع اتفاق المعنى فى عصمة هذه الأمة من الخطأ[٤].

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٣.

(٢) أخرجه البخارى جـ١٣/ ص٥ رقم ٧٠٥٤، وأخرجه مسلم ٣/ ١٤٧٦ رقم ٥٣/ ١٨٤٨ واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم ٣/ ١٣٠٢ رقم ٢٥/ ١٦٧٦.

(٤) راجع كتابى «المدخل إلى السنة النبوية» ص٣٠٤ ففيه تكملة كلام الغزالى، وفيه كلام ابن تيمية وأكثر من ذلك تحت عنوان «الأمة التى قبلته معصومة».

إن الحديث الذى نحن بصدد شرحه يفيد النقطة السابقة «حجية الإجماع» وهى جزء مما يفيده، ويفيد النقطة التى معنا «عصمة الأمة» وأن الأمة لا تُضَيِّعُ شيئًا من الحق، ولا تنحرف عن الحق، وإنما هى على الحق الكامل.

إن قوله ﷺ: «سألت الله عز وجل ألا يجمع أمتى على ضلالة».

وقوله ﷺ: «إن الله أجاركم من ثلاث: . . . وألا تجتمعوا على ضلالة» يفيد أن أمة الإسلام على الحق الكامل، فلا نقص، ولا تبديل، وإنما الحق الذى يرضى الله تبارك وتعالى.

● وفى القرآن الكريم كثير من الآيات تفيد ذلك، منها:

* قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

* وقوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ (٢).

٣ ـ فضل العلماء:

وأفادت أحاديث الباب مع الآيات والأحاديث التى فى موضوعها فضل العلماء، فهم قادة الأمة فى أمور الدين. وهم أئمتها الذين به تقتدى.

إن أمة الإسلام لا تجتمع على ضلالة، فعلماؤها موفقون، وأصول الدين محفوظة بحفظ الله سبحانه، وعامة الأمة طلاب حق، يتمسكون بالكتاب والسنة، على مفهوم العلماء المتخصصين الصادقين.

---

(١) آخر سورة العنكبوت.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٧.

ولقد أثنى ربنا على علماء أمة الإسلام كثيرًا، وأنهم:

* الفاهمون لكتاب الله تعالى.

* الموحدون لله سبحانه وتعالى.

* المجتهدون فى طاعته جل علاه.

* يقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[1].

أى أن أمثال القرآن وما يستفاد منها، وآياته وما يستنبط منها، إنما يدرك معنى ذلك العلماء، الذين اجتهدوا فى جمع علوم الإسلام، فتأهلوا لفهم القرآن والسنة.

* ويقول سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

لقد جمع الله أهل العلم مع الملائكة جميعًا يشهدون بتوحيده، وشرفهم جميعًا بأن جمعهم فى هذه الشهادة معه سبحانه جل علاه.

إن إقامة الدليل على وحدانيته سبحانه بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة وشهادة العلماء هو تشريف عظيم لعلماء هذه الأمة، هؤلاء الذين لا يجتمعون على باطل، وإنما اجتماعهم دائمًا على الحق.

* ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3].

والمعنى: إن العلماء وحدهم هم الذين يخشون الله سبحانه وتعالى من عباده، فهم أهل المعرفة والعلم، وهذا يورثهم الخشية، ويرتقى بهم إلى

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٨.

(٣) سورة فاطر: ٢٨.

الخوف من الله، وحب الله سبحانه وتعالى. يأخذ هذا بأيديهم إلى طاعته سبحانه حق الطاعة، وعبادته سبحانه خالص العبادة.

وهكذا فالعلماء:

هم العقلاء الفاهمون لكتاب الله وسنة رسول الله «كما فى الآية الأولى».

وهم المؤمنون الموحدون حق التوحيد «كما فى الآية الثانية».

وهم المتعبدون بحق وصدق «كما فى الآية الثالثة».

وهم قادة الأمة وأئمتها، لا يروحون بالأمة إلا إلى الحق، ولا يتجهون بها إلا إلى الصدق.

*** ضلال القلة:**

وواضح من أحاديث الباب أن العصمة إنما هى لكل الأمة، فلا تضل الأمة كلها، وهذا لا يمنع أن بعض الأمة قد يزل، وقد يقع فى الخطأ!!.

وهنا نجد النصوص من آيات قرآنية وأحاديث نبوية تأخذ بيد الأفراد والمجموعات تنأى بهم عن الضلال، وترشدهم إلى طريق الاستقامة:

* ففى أول القرآن الكريم: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾[1].

يسأل المسلم ربه فى كل ركعة من ركعات الصلاة أن يهديه وأن يوفقه للطريق القويم، طريق النبيين والصالحين، لا طريق المغضوب عليهم ممن عرفوا الحق ولم يتبعوه، ولا طريق الضالين ممن لم يعرفوا الحق ولم يتبعوه.

(١) من سورة الفاتحة.

وفى هذا الدعاء تذكير للمسلم أن عليه أن يتعلم الإسلام، حتى يعرف الطريق المستقيم ويلتزمه.

* وفى أول السورة الثانية من القرآن الكريم «سورة البقرة» يقول الله تعالى: ﴿ الٓمٓ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [1].

وفى ذلك إعلام بأن القرآن هو الهدى للمتقين، هؤلاء الذين صحت عقيدتهم واستقاموا فى عبادتهم، إنهم المهتدون المفلحون.

* ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [2].

* ويقول سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [3].

* ويقول سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [4].

إن هذه الآيات تبين أن طريق الهداية واضح؛ فمن شاءه فعليه بالقرآن الكريم، وعليه بالسنة النبوية، ففيهما الهدى والنور فعلى كل مسلم أن

(١) سورة البقرة: ١ ـ ٥.

(٢) سورة الإسراء: ٩.

(٣) آخر سورة الشورى.

(٤) سورة الأحزاب: ٢١.

يتبع هديهما، وأن يقتدى بهما، فإنه لا تزل قدمه، ولا يزيغ فؤاده.

* ويقول ﷺ: «مَنْ يُرِدِ الله به خيرًا يُفَقِّهْهُ فى الدين»[(١)].

ويقول ﷺ: «إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنة نبيه»[(٢)].

إنه بالعلم، علم القرآن والسنة يكون المسلم على الهدى والخير، يكون بعيدًا عن الضلال والزيغ.

وهكذا تبين النصوص أن الأمة فى جميعها لا تضل ولا تشقى. عصمها الله من ذلك، وجعل الحق واضحًا فيها.

إلا أنه قد يضل البعض، والسلامة من ذلك إنما هى فى العمل بالقرآن الكريم، وسنة النبى ﷺ.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

يذكرنا ربنا بمصير الأمم التى كذبت رسل الله، وتجرأت على وحى الله سبحانه وتعالى، بالتبديل أو التضييع. وأن مصيرها كان الهلاك والخسران، يذكرنا سبحانه بذلك فى كثير من آيات القرآن الكريم[(٣)].

ومن هنا يتوجه رسول الله محمد ﷺ إلى الله الكريم الحليم بالدعاء:

* يدعو أن لا تزيغ أمته، وأن لا تضل.

---

(١) أخرجه البخارى رقم ٧١، ١/ ١٦٤ عن معاوية بن أبى سفيان.

(٢) حديث حسن: أخرجه الحاكم فى العلم باب خطبته ﷺ فى حجة الوداع ١/ ٩٣. وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى آداب القاضى باب ما يقضى به القاضى ١٠/ ١١٤ كلاهما عن ابن عباس وهو عند الخطيب فى الفقيه باب ذكر الخبر عن رسول الله ﷺ بأن سنته لا تفارق كتاب الله ١/ ٢٧٤ عن أبى هريرة وأبى سعيد وفيه زيادة تخريج.

(٣) تقدم هذا تحت عنوان «سبب الدعوة» ص.

* يدعو أن لا تجتمع أمته على أى أمر يخالف الإسلام.

* يدعو وهو ينتظر التطمين بالاستجابة.

* ويستجيب الله الكريم دعاء رسول الله ﷺ، ويطمئنه أن أمته لن تجتمع على باطل.

* فيسعد ﷺ ويطمئننا على ذلك، وأن الحق سيظل شائعًا فى الأمة، وستظل متمسكة به.

وهذا من معجزاته ﷺ التى ظهرت فى زماننا، فعلى الرغم من كثرة الفتن، وحملة أعداء الإسلام الشعواء عليه، وكثرة المنافقين الذين يجاهرون بأساليب القضاء على الإسلام، على الرغم من كل ذلك، فالأمة على الحق ثابتة، يتمسك الكثيرون بالحق، والبعض الذى وقع فى الخطأ يسلم أنه مخطئ، ويتمنى التوبة والعودة إلى الإسلام.

* إن أمة الإسلام **لازالت والحمد لله تُبغض الكفر والنفاق والرياء.**

* **إن الأمة لازالت تعرف معالم التوحيد**، وترفض أن تشوبه أية شائبة.

* **إن الأمة لازالت تبغض الربا والزنا والمخدرات**، وتبتعد عن ذلك كل البعد، وإن قُصِّرَ فى إقامة حَدٍّ من الحدود[1]، فالكثيرون يتمنون إقامته، والجميع على الإيمان بأنه من أحكام الإسلام. أما العلماء فهم على الإيمان به، يذكِّرون ويدعون إليه.

* **إن الأمة لازالت والحمد لله تحرص على القرآن والسنة**، تتعلم وتعمل وتُعَلِّم، علماؤها مجتهدون، وشبابها لهذه الغاية منتبهون. يقدسون نصوص الوحى، ويُكِنُّون لها كل تقديس واحترام. القرآن

(١) الحَدُّ: العقوبة المقررة شرعا على ذنب من الذنوب.

عندهم أغلى من حياتهم، والسنة النبوية يتمسكون تمامًا بها.

* إن الأمة لازالت متناصرة متعاونة، وما ذلك إلا لاعتزازها بدينها، وتمسكها بإسلامها، وبعدها عن كل زيغ وضلال.

* إن أمة الإسلام لازالت إذا جد جديد فى حياتها ردوه إلى علماء الإسلام المتخصصين فيه، يجتهدون فى استنباط حكمه من القرآن والسنة.

* إنها أمة تجتمع على القرآن والسنة، لا على الزيغ أو الضلال.

يتحقق بذلك ما أخبر به ﷺ من أن الله سبحانه استجاب له أن لا تجتمع أمته على ضلالة.

• الدروس المستفادة من الحديث:

* أمة الإسلام تكون على الحق: فى عقيدتها، وعبادتها، وخلقها، وكل أمور دينها، وهى معصومة أن تجتمع على ضلالة.

* الحق هدف وغاية عند أمة الإسلام، وهم حريصون عليه وعلى العمل به إلى ظهور العلامات الكبرى للقيامة.

* إجماع علماء هذه الأمة فى أى زمن حجة، ويجب العمل به فى زمنه وما بعده.

* حرص رسول الله ﷺ على أمته، وشفقته عليها.

* الدين أهم شىء فى حياة الأمة والأفراد، ولذا كان من دعواته ﷺ الخاصة أن لا تصاب الأمة فى دينها بأن تجتمع على ضلالة.

* عظيم قدره ﷺ عند ربه، حتى إنه سأل لكل الأمة فى كل زمان ومكان فاستجاب الله له.

٧، ٨ - الدعاء بأن لا تهلك هذه الأمة بالرجم ولا بالخسف

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما[١] قال «لما نَزَلت هذه الآيةُ ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [٢] قال رسولُ الله ﷺ: أعوذ بوَجْهك. قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسولُ الله ﷺ: هذا أَهْوَنُ أو هذا أَيْسَرُ»[٣].

● **الشرح:**

لما حذر الله الإنسانية عذابه سبحانه، وبين أن العذاب قد يكون من أعلا كأن يرسل عليها حجارة تحملها الرياح من الجبال. وقد يكون من أسفل كأن يخسف بهم الأرض، لما بيّن سبحانه وتعالى ذلك أسرع رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من هذين العذابين.

*** نصوص فى العذابين:**

وقد ورد بيان العذاب الذى من فوق، والعذاب الذى من تحت فى آيات وأحاديث، فمن الآيات:

---

(١) ترجمة جابر بن عبد الله راوى هذا الحديث تقدمت فى الجزء الأول ص٣٤٤ فى حديث «هل لكم من أنماط.. ستكون».

(٢) الآية ٦٥ من سورة الأنعام.

(٣) أخرجه البخارى فى التفسير ـ سورة الأنعام باب ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ ٨/ ٢٩١ رقم ٤٦٢٨ وفى غير هذا الموضع.

* قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ (١).

ومعنى ﴿يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أى الأرض. وذلك كما حدث لقارون ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ (٢).

ومعنى ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أى ينزل عليكم حجارة من فوقكم، كما حدث لقوم لوط ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ (٣).

* وقوله سبحانه: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾(٤).

ومن الأحاديث:

عن ابن عباس رضى الله عنه «أن النبى ﷺ قال: دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعا، فرفع عنهم اثنتين، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين: دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء، والخسف من الأرض، وأن لا يلبسهم شيعا، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الخسف والرجم، وأبى أن يرفع عنهم الأخريين»(٥).

(١) سورة الإسراء: ٦٨.

(٢) سورة القصص: ٨١.

(٣) سورة هود: ٨٢.

(٤) سورة الملك: ١٦، ١٧.

(٥) ذكره فى فتح البارى فى شرح حديث رقم ٤٦٢٨ حديث جابر الذى أشرحه فى هذه الدعوة ٨/ ٢٩٢ وذكره ابن كثير فى تفسير الآية ٦٥ من سورة الأنعام وذكره الدكتور/ غالب هوايش فى رسالته «الدكتوراه» ص٢٧٠ ودرس إسناد ابن مردويه وقال: إسناده ضعيف، فيه اسحاق بن عبد الله، وأبوه، ضعيفان.

وقد ورد تفسير ذلك عن عدد من السلف، رُوِىَ عن أُبَىّ بن كعب[1]، ورُوِىَ عن أبى مالك[2]، ورُوِىَ عن غيرهم.

وهكذا يتضح أن رسول الله ﷺ سأل الله أن لا يهلك هذه الأمة بالرجم ولا بالخسف، وأن الله تبارك وتعالى استجاب لرسوله ﷺ، وأخبرنا ﷺ بذلك تطمينا، وإعلاما بفضل الله تبارك وتعالى علينا.

*** وقوع العذابين لأفراد:**

وكون الأمة قد أعاذها الله من هذين العذابين استجابة لدعاء رسوله ﷺ، فإن هذا يفيد أن هذه الأمة لن يسلط الله عليها الرجم يهلكها جميعها، ولن يسلط عليها الخسف يهلكها كلها، لا، لن يحدث ذلك، فقد سأل رسول الله ﷺ ربنا أن يحفظ أمة الإسلام من ذلك، واستجاب ربنا تبارك وتعالى دعاء رسوله ﷺ.

إلا أن هذا لا يمنع أن يقع الرجم أو الخسف على أفراد من الأمة، ولقد حذرت النصوص من ذلك.

فمن القرآن الكريم الآيات التى تقدمت هنا، من سورة الأنعام: آية ٦٥، وسورة الإسراء: آية ٦٨، وسورة الملك: آية ١٦، ١٧.

وفى السنة النبوية أحاديث تبين أن الرجم والخسف سيقعان لبعض طوائف الأمة، بل زادت بعض الأحاديث فبينت أسباب الابتلاء بذلك.

---

(١) ذكره فى الفتح ٢٩٢/٨ وعزاه لابن مردويه. وأخرجه ابن أبى حاتم ١٣٠٩/٤ رقم ٧٣٩٨ وجوَّد صاحب «صحيح التفسير» إسناده وأخرجه أيضا الطبرى فى تفسيره ٢٢٦/٧ فى تفسير الآية التى فى الحديث.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسير الآية ٤/ ١٣١٠، ١٣١١ رقم ٧٤٠٢، ٧٤٠٩.

* يقول ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكون فى أمتى خسف ومسخ وقذف»[١].

و «الخسف» أن تنشق الأرض وتبتلع جماعة ممن عليها.

و «المسخ» قلب خلقة الناس إلى صورة أخرى، كأن يُحَوّلوا قردة.

و «القذف» نزول الحجارة من أعلا على الناس. نعوذ بالله من كل ذلك.

* ويقول ﷺ «لا تقوم الساعة حتى يُخْسَف بقبائل، فيُقَال: من بقى من بنى فلان؟»[٢].

*** أسباب العذابين:**

ومن الأحاديث التى بينت أسباب الخسف والرجم:

* قوله ﷺ «يشرب ناس من أمتى الخمر، يسمونها بغير اسمها، يُضرب على رءوسهم بالمعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير»[٣].

لقد أبان هذا الحديث والأحاديث الأخرى التى فى موضوعه[٤] أن الخسف والمسخ إنما يكونان بسبب المعاصى، وبخاصة شرب الخمر مع

---

(١) أخرجه ابن حبان فى كتاب التاريخ باب إخباره ﷺ عما يكون فى أمته من الفتن والحوادث ١٥/ ١٦٢.

(٢) أخرجه أحمد ٢٥/ ٣١٣ ونقل محققه عن الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨/ ٩ أنه قال: رواه أحمد، والطبرانى، وأبو يعلى، والبزار. ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه ابن حبان فى كتاب للتاريخ باب إخباره ﷺ عما يكون فى أمته من الفتن والحوادث ١٥/ ١٦٠.

(٤) راجع تخريج الحديث والشواهد فى ابن حبان الموضع السابق.

غناء المغنيات، ومع أجهزة الموسيقى.

فاتضح أن الخسف سيحدث، لكنه لأفراد ماجنين عصاة.

* وقوله ﷺ «فى هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله، ومتى ذلك؟ قال: إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور»[١].

فأبان هذا الحديث أيضًا أن الخسف، والمسخ، والرجم، كل ذلك سيحدث إذا ظهرت القيان أى المغنيات، والمعازف أى الموسيقى، وشربت الخمور.

ولقد ذكر ﷺ خمس عشرة خصلة ستظهر فى الأمة فتكون سببًا فى نزول البلاء من الخسف والمسخ والقذف:

* فعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اتُّخِذَ الفىء دولا[٢] والأمانة مغنمًا[٣]، والزكاة مغرمًا[٤]، وتُعُلِّم لغير الدين[٥]، وأطاع الرجل امرأته، وعق أمه، وأدنى صديقه وأقصى أباه، وظهرت الأصوات فى المساجد، وساد القبيلة فاسقُهم، وكان زعيمُ القوم أرْذلَهُم، وأُكْرِم الرجلُ مخافةَ شره، وظهرت القَيْنَات والمعازف، وشُربت الخمور، ولعن آخرُ هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء، وزلزلة، وخسفا، ومسخا،

(١) أخرجه الترمذى فى الفتن باب بعد باب ما جاء فى أشراط الساعة ٦/٤٥٨.

(٢) الفىء: ما يغنمه جيش المسلمين من جيش الكفار. ومعنى اتخاذ الغنيمة دولا: أن يستأثر بها الوجهاء وأصحاب المراكز، وليس المراد الغنيمة وحدها، وإنما المراد أن المال لا يوزع بالعدل.

(٣) أى ضاع خلق الأمانة من الناس، فإذا ائتمنت إنسانا على جيش، لم يرده إليك، واعتبره غنيمة.

(٤) أى بخل الناس فلم يخرجوا الزكاة، يعتبرون الزكاة غرامة!!.

(٥) أى يتعلم الكثيرون لكنهم يتعلمون غير علوم الإسلام!!.

وقذفا، وآيات[١] تتابع[٢] كنظام[٣] بال[٤]، قُطِع سلكُه[٥] فتتابع»[٦].

هكذا!! ذنوب يتبعها بلاء!! وكلها تُحَوِّلُ الأمة عن الصراط المستقيم، مما يجعل الأوضاع تنقلب رأسا على عقب، فينزل البلاء، نسأل الله العفو والعافية.

ومن كل ذلك يتضح أن الخسف والرجم قد تقع كل عقوبة منهما لمجموعة أو أفراد من الأمة، ومردُّ ذلك إلى هذه الذنوب. وهكذا شَخصَّ ﷺ الداء، ووصف الدواء، فسبيلنا إلى النجاة من هذين البلاءين وغيرهما أن نبتعد عن هذه الذنوب.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

ذكر الله فى القرآن الكريم حسن عاقبة المتقين، وسوء نهاية الضالين. وزاد الأمر وضوحا فبين سبحانه أنواع النعيم الذى يُسْعِد به الصالحين، وأنواع العقوبات التى تحل بالظالمين.

وحذر سبحانه وتعالى أمة الإسلام من كثير من العقوبات، ومنها عقوبة الرجم، وعقوبة الخسف، وعقوبة الاختلاف والاقتتال.

ورسول الله ﷺ يصعب عليه حلول أى نقمة بأمته، فيستعيذ بالله من

---

(١) علامات القيامة.

(٢) يتبع بعضها بعضا.

(٣) مثل عقد من خرز أو جوهر.

(٤) قديم.

(٥) قطع السلك الذى نظمت فيه حباته، «فتتابع» أى فسقطت الحبات تباعا.

(٦) أخرجه الترمذى فى الفتن باب بعد باب ما جاء فى أشراط الساعة ٦/٤٥٦ وقال: هذا حديث غريب: وله شاهد عن على بن أبى طالب عند الترمذى أيضا، وكل منهما يقوى الآخر. ويقويهما الحديثان اللذان ذكرتهما قبل ذلك.

كل ذلك. وفى هذا الحديث صور من استعاذته ﷺ، يستعيذ بالله من الرجم، ومن الخسف، أما الاختلاف والاقتتال، فيراهما ﷺ أهون، لكنه يستعيذ بالله منهما.

إنه ﷺ يؤمن بأنه لا طاقة لأحد بانتقام الله، ولا طاقة للأمة بعقوبة الله، ومن هنا يسأل الله، ويلح فى المسألة أن يحفظ الله سبحانه أمة الإسلام من الرجم ومن الخسف، ويستجيب الله الكريم دعاء نبيه ﷺ، ويطمئنه، فيخبر ﷺ الأمة بذلك، ويقع الأمر كما أخبر، فالحمد لله لم يعاقب الله أمة الإسلام لا بالرجم العام، ولا بالخسف العام.

أما الاختلاف والاقتتال فإنه ﷺ يراهما أهون من العقوبات الأخرى، ولكنه يستعيذ بالله منهما. إلا أن الله تبارك وتعالى ترك الأمة فى هذا الأمر لتقى نفسها شره باتباعها القرآن والسنة، ففى ذلك عصمة من الاختلاف والاقتتال.

إن هذا الحديث أفاد أنه ﷺ استعاذ بالله من الاختلاف والاقتتال بين جماعات الأمة، وأن الله لم يَعِدْهُ ذلك، ولم يُعِذْ الأمة من ذلك، فتحقق ما أخبر به ﷺ، وحدثت حروب بين جماعات من الأمة.

وأفاد هذا الحديث أيضا صدق تقديره ﷺ، فالاقتتال بين جماعات الأمة شره محدود، وإن كنا لا نتمناه، واستعاذ منه رسول الله ﷺ.

وهكذا تحقق كل ما أخبر به ﷺ فى هذا الحديث، وظهر بحمد الله صدقه، وأنه من معجزاته ﷺ التى ظهرت فى زماننا.

• الدروس المستفادة من الحديث:

١ ـ العقوبات الإلهية خطيرة وشديدة، فالله القادر على كل شىء إذا غضب أحدث فى الكون العظائم. ومن هنا استعاذ رسول الله ﷺ بالله من ذلك.

٢ ـ على الأمة أفراد وجماعات البعد عما يغضب الله، فإن ذلك يسبب الكوارث، ولا قِبَلَ للأمة بذلك.

٣ ـ خُطُورة العقوبة بالرجم، والذى هو هبوب الرياح محملة بالأحجار، ترمى بها من شاء الله.

٤ ـ خطورة العقوبة بالخسف، والذى هو انشقاق الأرض وابتلاع من أمر الله بابتلاعه من الخلق.

ومما يدل على خطورة هاتين العقوبتين أن الله هَدَّدَ بهما، ورسول الله استعاذ بالله منهما، أن يقعا للأمة جميعها. وعلى الأفراد والجماعات اتقاء ذلك فى أنفسهم.

٥ ـ إن رسول الله ﷺ استعاذ من هاتين العقوبتين، فاستجاب الله سبحانه فلن يحدثا للأمة ككل.

٦ ـ كمال كرم الله سبحانه، إذ استجاب لنبيه دعاءه، وأجار الأمة من الويلات المهلكة.

٧ ـ كمال شفقته ﷺ على أمته، إذ يسأل الله لها السلامة من الويلات.

٨ ـ عظيم فطانته ﷺ وحسه فى أمته، فحينما يحذر الله الأمة عقوباته، يستعيذ ﷺ بالله من عقوبتى الرجم والخسف، أما الاقتتال فيقول إنه أهون ويستعيذ بالله منه.

وقد ثبت ذلك من ناحيتين:

الأولى: أن الله لم يُعذ الأمة من ذلك، وإنما وكلها إلى دينها.

الثانية: أنه على طول تاريخ الأمة لم يكن هذا الأمر خطرا عظيما على الأمة، فلم يُفْنِها اقتتال جماعاتها، ولا أثّر أثرا جسيما.

* * *

٩ـ الدعاء بأن لا تهلك هذه الأمة بما أهلِكت به الأمم السابقة

عن خبّاب بن الأرَتّ قال: رَمَقْتُ رسولَ اللَّه ﷺ فى صلاةٍ صلاها حتى كان مع الفجر، فلما سلّم رسولُ اللَّه ﷺ من صلاته جاءَه خَبّاب، فقال: يا رسول اللَّه، بأبى أنت وأمى لقد صليتَ الليلةَ صلاةً ما رأيتُك صليتَ نحوها، قال: أجَلْ، إنها صلاةُ رَغَبٍ ورَهَب، سألتُ ربى فيها ثلاث خصال، فأعطانى اثنتين، ومنعنى واحدَة، سألتُه أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها، وسألتُه أن لا يظهر علينا عدوا من غيرنا فأعطانيها، وسألته أن لا يَلْبِسَنا شيَعًا فمنعنيها»[1].

• **المعانى:**

«رمقت رسول الله ﷺ» أى أطلت النظر إلى رسول الله ﷺ، أتأمل ما يصدر منه. من «رَمَقَ يَرْمُقُ رَمْقًا».

«فى صلاة صلاها» كانت هذه الصلاة صلاة ليل.

«فلما سَلَّمَ رسولُ الله ﷺ من صلاته جاءه خباب» انتقل من أسلوب المتكلم إلى أسلوب الغائب. فكان خباب يتكلم عن نفسه «رمقت رسول الله» وقولهْ «جاءه خباب» كأنه يتكلم عن غائب إذ الاسم الظاهر من الغائب، وعدل عن أسلوب إلى أسلوب تمليحا للكلام، ولو سار على أسلوب المتكلم لقال: فلما سلم رسول الله ﷺ من صلاته جئته.

(١) أخرجه ابن حبان فى كتاب إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب فضل الأمة ٢١٨/١٦ رقم ٧٢٣٦. وأخرجه أحمد ١٠٨/٥، ١٠٩.

«فقال: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى. . .» القائل خباب. يتكلم مع رسول الله ﷺ بأسلوب المحب المراعى لكل الاحترام والتكريم فيقول لرسول الله بأبى أنت وأمى أى أفديك بأبى وأمى. وليس المراد الأب والأم فقط، وإنما المراد: أفديك بأعز وأكرم ما لدىّ من نفس وأهل ومال.

«لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت نحوها» أى ما رأيتك فيما رأيت من صلواتك صليت مثل هذه الصلاة، فلقد أطلت فيها عما رأيته من صلواتك.

«قال: أجل» القائل هنا هو رسول الله ﷺ. و «أجل» معناها: نعم يوافق ﷺ خبابا فيما رأى، وأنه ﷺ قد أطال هذه الصلاة.

«إنها صلاة رغب ورهب» تقدم فى حديث معاذ[1]: هذه صلاة رغبة ورهبة. وبينت المعنى هناك وأنه ﷺ وحاله مع الله بين الرجاء والخوف. . . إلخ ما هناك.

«ثلاث خصال» أى ثلاثة أمور لأمتى.

«سألته أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا» كالغرق، والخسف، والرياح، وغير ذلك مما سيأتى فى الشرح.

«وسألته أن لا يظهر علينا عدوا من غيرنا» أى أن لا ينصر علينا عدوا من أعدائنا.

«وسألته أن لا يلبسنا شيعا» أى أن لا نختلف ونتناحر.

(١) فى الدعاء بأن لا يهلك الله هذه الأمة بالجوع ص ١٧٤.

• راوى الحديث:

خبّاب بن الأرَتّ[1]: صحابى جليل، من أوائل من أسلم، وأعلن إسلامه، ودعا إلى الإسلام. وكلفه ذلك الكثير، فلقد أوذى فى الله كثيرا، فصبر وتحمّل.

سبق فى حفظ القرآن الكريم، وسبق أيضا فى تحفيظه، يطبق عمليا قول رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[2] ولقد وصل به السبق أن الصحابة كانوا يعرفون له ذلك.

فعن معدى كرب قال: أتينا عبد الله بن مسعود نسأله عن ﴿طسٓمٓ﴾ الشعراء[3]، قال: ليست معى، ولكن عليكم مَنْ أخذها مِنْ رسول الله ﷺ، عليكم بأبى عبد الله خبّاب بن الأرت[4].

لقد كان خباب من محفظى القرآن الكريم فى وقت مبكر من تاريخ الإسلام، ولقد ذهب يُحَفِّظ سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وزوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب، ذهب خباب يحفظهما القرآن فى بيتهما، وجاء عمر فاختبأ خباب فأساء عمر إلى أخته وزوجها لإسلامهما، ثم رق لأخته وطلب الصحيفة فقرأ فيها من أول سورة ﴿طه﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، وقرأ من سورة التكوير ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فلما سمع ذلك خباب خرج إليه

---

(١) «خباب» اسم، ومعناه: سريع المشى. و«أرتّ» اسم أيضا، ومعناه: سريع الكلام، ليس سَوِيَّهُ. أو: الذى يقلب اللام ياء.

(٢) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٩/ ٧٤ رقم ٥٠٢٧ .

(٣) يريدون أن يتعلموا منه سورة «الشعراء» والتى أولها (طسم).

(٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٤/ ٥٥ رقم ٣٦١٤.

وقال: يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه... وأسلم عمر[١].

لقد جمع الله لخباب فى هذا الموقف خيرين عظيمين، كان يعلم القرآن. وكان يدعو إلى الله.

ولقد كان خباب ذا حس علمى دقيق، يوضح شيئا من ذلك الحديث الذى نشرحه.

وفيه يقول خباب: «رمقت رسول الله ﷺ فى صلاة صلاها حتى كان مع الفجر، فلما سلّم رسول الله ﷺ من صلاته جاءه خباب فقال: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت نحوها. قال: أجل... الحديث.

وواضح من هذا أن خبابا كان منتبها لكل ما يصدر عن رسول الله ﷺ، وأن الأمر الذى لاحظه من تطويل رسول الله ﷺ صلاته تطويلا لم يؤلف قد أقره عليه رسول الله ﷺ. مما يدل على صواب حِسِّه العلمى.

وخباب صحابى شأنه شأن الصحابة يعتز بدينه كل الاعتزاز، إلا أنه لما كان من أوائل من أسلم فلقد تعرض لكثير من أذى المشركين، يصور شيئا من ذلك:

* قوله: شكونا إلى رسول الله ﷺ ـ وهو متوسِّد بردة له[٢] فى ظل الكعبة ـ قلنا له: ألا تستنصر لنا[٣]، ألا تدعو الله لنا؟

قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض، فَيُجْعَلُ فيه،

(١) راجع سيرة ابن هشام ـ إسلام عمر ص٣٤٣.

(٢) البردة: شىء من الملابس يلتحف به أو يستدفئ به الإنسان. ومعنى «متوسد بردة له» أنه جعل البردة مكان الوسادة، يعتمد عليها بمرفقه.

(٣) أى ألا تسأل الله ان ينصرنا؟

فيجاء بالميشار[1] فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه. والله ليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر[2] حتى يسير الراكب من صنعاء[3] إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[4].

إن صدر هذا الحديث يوضح ما قاساه خباب ومن معه، حتى إنهم شكوا حالهم لرسول الله ﷺ، طالبين أن يسأل الله لهم النصر، وأن يدعو لهم بالثبات والعزة.

* ويصور شيئًا من أذى المشركين لبلال أيضا ما أخرجه ابن ماجة عن أبى ليلى الكندى قال: جاء خباب إلى عمر، فقال: ادن[5]، فما أحدٌ أحقّ بهذا المجلس منك[6] إلا عمار[7] فجعل خباب يريه أثارا بظهره مما عذبه المشركون[8].

ومرة أخرى دخل خباب بن الأرت على عمر بن الخطاب، فأجلسه على متكئه وقال: ما على الأرض أحد أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قال له خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: بلال: قال فقال له خباب: يا أمير المؤمنين ما هو بأحق منى. إن بلالا كان له فى

---

(١) الميشار هو المنشار.

(٢) شيوع الإسلام وظهوره.

(٣) مدينة باليمن كبيرة، وهى الآن العاصمة وأخرى بالشام صغيرة يقال لها: صنعاء ودمشق، والمراد هنا التى بالشام ممن ينسب إليها أبو الأشعث الصنعانى شراحيل بن آوه.

(٤) أخرجه البخارى ٦/ ٦١٩ رقم ٣٦١٢.

(٥) اى قرب لتكون فى صدر المجلس.

(٦) لما تحملت من أذى المشركين فى أول الدعوة.

(٧) عمار بن ياسر: ظن عمر أن عمارا تحمل أكثر مما تحمل خباب.

(٨) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة ١/ ٥٤ رقم ١٥٣ وقال فى الزوائد: إسناده صحيح.

المشركين من يمنعه الله به، ولم يكن لى أحد يمنعنى، فلقد رأيتنى يوما أخذونى وأوقدوا لى نارا ثم سلقونى فيها، ثم وضع رَجُلٌ رِجْله على صدرى، فما اتقيت الأرض إلا بظهرى[١]. قال: ثم كشف عن ظهره، فإذا هو قد بَرِص[٢].

هكذا كان صبر خباب، وهكذا كان فى ثباته على دينه.

وكان خباب مجتهدا فى العبادة، معرضا عن الدنيا، دخل عليه أبو وائل فقال خباب: فى هذا التابوت[٣] ثمانون ألفا[٤] لم تُشَدّ لهما وكاء[٥]، ولم يُمنع من سائل، ولوددت أنها كذا وكذا، إما قال بعرًا أو غيره[٦].

وفضائل خباب كثيرة، فرضى الله عنه وأرضاه. ولقد توفى سنة سبع وثلاثين بالكوفة، وصلى عليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وعمّر ثلاثا وسبعين سنة. رضى الله عنه وأرضاه[٧].

• الشرح:

والمتأمل للآيات والأحاديث يجد أن الأمم السابقة:

* منهم من أهلك **بالغرق** كقوم نوح، وفرعون وقومه.

* ومنهم من أهلك **بالريح** كعاد، قوم هود.

---

(١) أى ما برد حر الصخور تحتى إلا الدهن والسائل الذى خرج من ظهرى.

(٢) أى تلوّن كجلد الأبرص. وهذا الخبر أخرجه ابن سعد فى الطبقات ٣/ ١٦٥ وهو من رواية الشعبى عن عمر، وهى مرسلة، إلا أن مراسيل الشعبى صحيحة، فالخبر صحيح.

(٣) صندوق يحفظ فيه المال.

(٤) ثمانون ألف درهم.

(٥) لم يُربَط عليها.

(٦) أى أنه لا يبالى بها، فسواء كانت مالا أو غيره، فإنه مشغول عنها، وليست هى تشغله وهذا الخبر اخرجه الطبرانى فى الكبير ٤/ ٥٥ رقم ٣٦١٥.

(٧) ترجمته فى سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٢٣ ومعجم الطبرانى الكبير ٤/ ٥٤ ومسنده من رقم ٣٦١١.

* ومنهم من أهلك **بالصيحة**، وهى الصوت العالى جدًا، كثمود، وأصحاب مدين.

* ومنهم من أهلك **بالرجم**، كأصحاب الفيل، وقوم لوط.

* ومنهم من أهلك **بالخسف** كقارون.

* ومنهم من أهلك **بالتدمير** كقوم لوط، كان الملك من الملائكة يقلع القرية من قراهم، ثم يرتفع بها، ثم يقلبها، ويرمى بها.

* ومنهم من أهلك **بالحرق** كأصحاب الأيكة، قوم شعيب، أصابهم حر شديد ثم أظلتهم سحابة فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا.

ومن هنا فإن رسول الله محمدًا ﷺ يسأل الله أن يعيذ أمته من هذه المهلكات وغيرها، ويطمئنه الله تعالى، ويوحى إليه باستجابة دعائه ﷺ، كما فى حديث خباب بن الأرت الذى معنا «. . . سألته أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها».

لقد طمأننا هذا الحديث، والأحاديث الأخرى التى نصت على هذه الدعوة[1] أن الله تبارك وتعالى لن يهلك أمتنا بشىء من هذه المهلكات العامة.

وهذه الدعوة إنما هى للأمة عامة، فلن يهلك الله الأمة كلها بأى نقمة أهلك سبحانه وتعالى بها الأمم السابقة. هذا الذى تفيده أحاديث هذا الموضوع.

وهذا لا يمنع أن يعذب الله طائفة من أمة الإسلام بما أهلك به الأمم

(١) منها: حديث خالد الخزاعى، وسيأتى فى «الدعوة التى منعها ﷺ».
وحديث أبى بَصْرة الغفارى وقد تقدم فى «الدعوة أن لا تجتمع الأمة على ضلالة».
وحديث أبى هريرة الذى تقدم فى «الدعوة بأن لا تكفر هذه الأمة».

السابقة، فقد تهلك طائفة بالغرق، وقد تهلك طائفة بتسلط عدو، وتلاشى أسباب النقمة قد وضحتها نصوص القرآن والسنة، فعلمنا ربنا سبحانه طريق السلامة، وأسباب العافية، كما بينت الأحاديث النبوية أيضا أسباب البعد عن غضب الله سبحانه وتعالى.

* يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[1].

* ويقول سبحانه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2].

* ويقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[3].

إن هذه الآيات وما فى موضوعها ـ وهو كثير ـ تبين أسباب العذاب، وأن مخالفة الرسل ومعصية الله هى أسباب النقمة، فعلى الأمة أن تحذر ذلك يسلمها الله، ويحفظها من النقم.

*** لقد جاءت آيات وأحاديث تحذرنا السلبيات، وترشدنا إلى الإيجابيات وسأذكر شيئا من ذلك:**

١ ـ الحث على الإيجابيات السلوكية:

فلقد جاءت الآيات والأحاديث تؤكد أن أمة الإسلام أمة مرحومة منصورة تُقيم على دين الله، ويكرمها الله:

(١) سورة الشورى: ٣٠.

(٢) سورة الفرقان: ٣٧.

(٣) سورة ص: ١٢ ـ ١٤.

* فعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: أنزل الله علىّ أمانين لأمتى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مَضَيْتُ تركتُ فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة»(١).

* وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما «أن الشمس انكسفت على عهد رسول الله ﷺ، فصلى رسول الله ﷺ. . . ثم قال: رب ألم تعدنى أن لا تعذبهم وأنا فيهم. رب ألم تعدنى أن لا تعذبهم وهو يستغفرون، ونحن نستغفرك، ففرغ رسول الله ﷺ من صلاته وقد امحصت الشمس»(٢).

وواضح من الحديثين أن آية من القرآن الكريم توضح أسباب السلامة من كل عذاب، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣).

لقد أبانت هذه الآية أن الله تبارك وتعالى لا يهلك أمة الإسلام ورسول الله ﷺ فيهم.

وأبانت أيضًا أن الله سبحانه وتعالى لا يهلك أمة الإسلام وهم يستغفرون الله تبارك وتعالى. فلنبرأ إلى الله من كل ذنب يحفظنا سبحانه أفرادًا وجماعات.

---

(١) أخرجه الترمذى فى التفسير من سننه تفسير سورة الأنفال ٨/ ٤٧٢ رقم ٥٠٧٧ وقال: هذا حديث غريب. وإسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر يضعف فى الحديث.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى كذا فى الدر ٣/ ١٨٢.

(٣) سورة الأنفال: ٣٣.

٢ ـ الحث على الإيجابيات المنهجية:

وتتمثل فى العمل بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، ولقد بين ربنا ذلك بكل جلاء، وذكّر سبحانه وتعالى المؤمنين بأن الخير كل الخير فى اتباع القرآن والسنة، إنهما الرسالة وهما الوحى الذى أراد الله للبشرية أن تسير عليه يسعدها فى الدنيا والآخرة:

* يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

* ويقول سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ (٢).

* ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (٣).

* ويقول سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ (٤).

* ويقول ﷺ: «إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة نبيه»(٥).

* ويقول ﷺ: «أنا تارك فيكم ثقلين(٦): أولهما كتاب الله فيه الهُدَى والنور. فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغّب

---

(١) سورة البقرة: ٢.

(٢) سورة البقرة: ١٨٥.

(٣) سورة الإسراء: ٩.

(٤) سورة النور: ٥٤.

(٥) أخرجه الحاكم فى العلم باب خطبته ﷺ فى حجة الوداع ١/ ٩٣ والبيهقى فى السنن آداب القاضى باب ما يقضى به القاضى ١٠/ ١١٤ عن ابن عباس، وله شاهد عن أبى هريرة عند الحاكم والبيهقى أيضا وهو فى الغيلانيات ص٢٢٣ رقم ٦٠١.

(٦) سمى القرآن والهَدْى الصالح ثقلين لعظيم شأنهما.

فيه. ثم قال: وأهل بيتى. أُذكِّركُم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى»[١].

ولقد جاءت النصوص تبين أن أهل بيته ﷺ إنما هم الصالحون وصّى بهم لكونهم على سنته ﷺ، وأدرى الناس بالإسلام.

وهكذا تبين هذه الإيجابيات السلوكية والمنهجية ما على الفرد والمجموعات فى أمة الإسلام، من بُعْد عن المعاصى، واجتهاد فى طاعة الله، على هَدْى القرآن والسنة، فهذا سبيل النجاة من الهلاك، بل وسبيل السعادة فى الدنيا والآخرة.

٣ ـ التحذير من السلبيات الفكرية:

* فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «دعونى ما تركتكم، فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم»[٢].

وفى هذا بيان لباب من أبواب الشر، فلا اختلاف ولا تنطع مع النص، إنما العمل وفق الفهم السليم.

وعن عبد الله بن عمرو قال: هَجَّرْت[٣] إلى رسول الله ﷺ يوما. قال فسمع صوت رجلين اختلفا فى آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعْرَفُ فى وجهه الغَضَبُ، فقال: إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب[٤].

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٤٠٨/٣٦.

(٢) أخرجه البخارى فى الاعتصام باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ ١٣/ ٢٥١ رقم ٧٢٨٨ ومسلم فى الحج باب فرض الحج مرة فى العمر ٢/ ٩٧٥ رقم ٤١٢/ ١٣٣٧.

(٣) أى ذهبت مبكِّرا.

(٤) أخرجه مسلم فى أول كتاب العلم ٤/ ٢٠٥٣ رقم ٢/ ٢٦٦٦.

* وعن عبد الله بن عمرو قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون فى القدر. فكأنما يُفْقَأُ فى وجهه حب الرمان من الغضب. فقال بهذا أُمِرتُم، أو لهذا خُلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض. بهذا هلكت الأمم قبلكم»[1].

هكذا هناك قواعد لفهم النصوص يجب التزامها، ولا بد من إعمال العقل فى النص حتى يصح الفهم ويسلم، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾[2].

هكذا تُرَدُّ النصوص إلى الذين يستطيعون فهمها، كما قال ﷺ «إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا، بل يصدق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردُّوه إلى عالمه»[3].

إنه ﷺ يحذر من خطأ أهلك الأمم السابقة، ألا وهو الانحراف فى فهم القرآن الكريم، فلفهم القرآن أصول يجب أن تتبع، قد أجمعت الأمة عليها، وطبقها الأئمة فى تفسير القرآن الكريم، واتباعها هو سبيل الاستقامة فى فهم كتاب الله، وسنة رسول الله، وسبيل الاستقامة فى الفكر كله.

* هذه القضية فى زماننا:

وهذه السلبية الفكرية، والمتمثلة فى قلب الحقائق فى فهم النصوص، وإسناد الأمر إلى غير أهله، هذه القضية يسير عليها أعداء الإسلام:

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب فى القدر ١/٣٣ رقم ٨٥ ونقل عن الزوائد: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات.

(٢) سورة النساء آية: ٨٣.

(٣) مسند أحمد ١١/٤٠٣ رقم ٦٧٠٢ وصححه محققه.

* **فيفسر القرآنَ غيْرُ أهله!!** أناس يقرءون القرآن قراءة غير سليمة. ولم يجمعوا العلوم الضرورية لفهم القرآن الكريم، من لغة عربية، وأسباب نزول، وأصول الفكر أو الفقه الإسلامى، وأحاديث رسول الله ﷺ، والخاص والعام... إلخ.

بل وجمع هؤلاء إلى جهلهم بهذه الأصول أنهم دُرِّبوا على قلب الحقائق، ففى الفكر الإنسانى الخاص يخصص العام، وهؤلاء عندهم العام يعمم الخاص.

* **ويتكلم فى السنة النبوية من لا دراية له بها!!**

* **ويتكلم فى الفقه من لا علاقة له بالنصوص، ولا قدرة له على الاستنباط!!**

* **ويتكلم على الإسلام من لم يفهم الإسلام ولم يدرسه.**

وخطر هذا عظيم لأنه فى دين الأمة، وفى وحى الله سبحانه وتعالى.

٤ ـ التحذير من السلبيات الاجتماعية:

وحذر الإسلام من السلبيات الاجتماعية، لما فيها من خطورة على الأفراد والأمة، فلابد أن تكون الأمة حامية للحق، تنصره وتشيعه:

* يقول الله تعالى: **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [1].

يأمرنا ربنا بهذا المنهج ـ الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ ويحذرنا سبحانه من منهج الأمم السابقة ـ الذين تفرقوا واختلفوا

(١) سورة آل عمران: ١٠٤، ١٠٥.

فى العمل بوحى الله ـ.

* ويوضح هذا رسول الله ﷺ فيقول «إن بنى اسرائيل لما وقع فيهم النقص، كان الرجل يرى أخاه على الذنب، فينهاه عنه، فإذا كان الغد لم يمنعه منه أن يكون أكيله[1]، وشريبه، وخليطه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم القرآن فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [2]، وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس وقال: لا. حتى تأخذوا على يدى الظالم فتأطروه على الحق[3] أطرًا»[4].

ويوضح ﷺ ويبين «فيقول له أحد الصحابة: متى نترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر يا رسول الله؟

فيقول ﷺ: إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم.

فيتساءلون معه: وما ظهر فى الأمم قبلنا؟

فيقول ﷺ: الملك فى صغاركم[5]. والفاحشة فى كباركم[6]. والعلم فى رذالتكم»[7].

---

(١) أى يأكل معه.

(٢) سورة المائدة: ٧٨ ـ ٨١.

(٣) أطره على الحق يعنى: حمله على الحق، وأرغمه عليه.

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب الأمر بالمعروف ٢/ ١٣٢٧ رقم ٤٠٠٦.

(٥) صغار السن الذين لم يجربوا الأمور. أو ضعاف العقول.

(٦) أى يشيع الزنا حتى يفعله كبار السن.

(٧) فسّر أحد الرواة هذه الجملة بأن يكون العلم فى الفساق. والحديث أخرجه ابن ماجه فى الفتن =

هكذا هلكت الأمم قبلنا بترك نصرة دينهم، فشاعت فيهم المعاصى، وانطمر الحق.

والواجب على المسلمين أن يحذروا ذلك، عليهم أن ينصروا دين الله، وأن يكونوا دعاة للحق، يرضى عنا ربنا ويحفظنا سبحانه وتعالى من كل مهلك، ويمنّ علينا سبحانه بالسلامة والبركات.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

ذكر ربنا فى القرآن الكريم أخبار كثير من الأمم، وبيّن سبحانه ذنوب بعض هذه الأمم، والعقوبات التى حلت بهم!!

ومن هنا اجتهد رسول الله ﷺ فى الدعاء لأمته أن لا يهلكها الله بعقوبة من هذه العقوبات، إنها الأمة الخاتمة، يسأل ﷺ ربه سبحانه وتعالى أن لا يهلكها، وأن يبقيها مشمولة بعناية الله تعالى.

يصلى ﷺ ويطيل الصلاة، وبكل خشوع وتضرع يسأل الله سبحانه أن لا يهلكها بالغرق، ولا بالحرق، ولا بالخسف، ولا بأى مهلك أهلك أمة سابقة. يسأل الله أن لا يدمر بلادها، وأن لا يقتل جمعها.

ويستجيب الله الكريم دعوة رسوله ﷺ، ويطمئنه أنه سبحانه لن يهلك أمة الإسلام بأى مهلك أهلك الأمم السابقة.

ويسعد رسول الله ﷺ بذلك، ويطمئن الأمة على امتداد عمرها بنعمة الله هذه علينا.

ويتحقق الأمر كما أخبر رسول الله ﷺ!! فالحمد لله لم تهلك الأمة، لا بغرق، ولا بحرق، ولا بريح، ولا بأى مهلك مما أهلكت به الأمم

= باب «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم» ٢/١٣٣١ رقم ٤٠١٥ ونقل عن الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات.

السابقة!! لقد أخبر ﷺ بالأمر، أوحاه الله إليه، أخبر وهو المبلغ عن الله، الواثق بوعد الله، فتحقق الأمر كما أخبر، وها هى الأمة بحمد الله على طول أربعة عشر قرنا تنعم بما دعا به ﷺ، فيحفظها الله من كل مهلك، وتعيش معافاة مستقرة.

وهذا من معجزاته ﷺ التى ظهرت فى زماننا وفى كل زمان، والتى تزيدنا إيمانا بإكرام الله هذه الأمة، وبصدق كل ما أخبر به ﷺ، فهو الرسول المصطفى المعصوم، وهو المبلغ عن الله سبحانه، وهو الذى قال الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١)، فصلى الله وسلم وبارك عليه من رسول بلغ الحق، وحفظ الله سبحانه دينه بالصدق. والحمد لله رب العالمين.

● الدروس المستفادة من الحديث:

- ببركة دعاء رسول الله ﷺ أكرم الله هذه الأمة، فلن تهلك بغرق، ولا بحرق، ولا غير ذلك مما أهلكت به الأمم السابقة.

- خطورة الأمور التى أهلكت الأمم السابقة، وأن على أفراد ومجموعات الأمة أن تحذر هذه المهلكات، فإن استغاثة رسول الله ﷺ بربه منها دليل على أنها مدمرة.

- على أفراد وجماعات الأمة أن تحتاط من المهلكات بما بينه القرآن والسنة، فلا معاصى، ولا جرأة على كتاب الله، ولا مخالفة لسنة رسول الله ﷺ.

- كرامته ﷺ على ربه، مما جعله يؤمِّل ويرجو، واستجاب الله سبحانه وتعالى له فى أمته كلها على طول عمرها.

(١) آخر سورة التوبة: ١٢٨.

١٠ ـ الدعوة التى مُنِعَها ﷺ

* عن خالد الخزاعى وكان من أصحاب الشجرة[١] قال: «صلى بنا رسول اللَّه ﷺ ذات يوم صلاة، فأَخَفّ، وجلس فأطال الجلوس، فلما انصرف قلنا: يا رسول اللَّه، أطلت الجلوس فى صلاتك؟ قال: إنها صلاة رَغْبَةٍ ورَهْبَةٍ، سألتُ اللَّهَ فيها ثلاث خصال، فأعطانى اثنتين، ومنعنى واحدة، سألتُه أن لا يُسْحِتَكُمْ بعذاب أصاب مَنْ كان قبلكم، فأعطانيها. وسألتُه أن لا يُسَلِّط على بَيْضَتِكُم[٢] عَدُوًا فَيَجْتاحُها، فأعطانيها. وسألتُه أن لا يَلْبِسَكُم شِيَعًا ويُذِيق بعضَكم بَأسَ بعضٍ فَمَنَعَنيها»[٣].

* وعن شدّاد بن أوس أن النبى ﷺ قال: «إن اللَّه عز وجل زَوَى لى الأرضَ حتى رأيت مشارقَها ومغاربَها، وإن مُلك أمتى سيبلغُ ما زُوى لى منها، وإنى أُعْطيت الكَنْزَيْن الأبيض والأحمر، وإنى سألت ربى عز وجل أن لا يُهلك أُمّتى بسَنَةٍ بعامة[٤]. وأن لا يُسَلِّط عليهم عَدُوًا فيهلكهم بعامة. وأن لا يَلْبِسَهُمَ شِيَعًا، ولا يُذِيق بعضَهم بأسَ بعض. وقال: يا محمد إنى إذا قضيتُ قضاء، فإنه لا يُرَدُّ، وإنى قد أعطيتُك لأمتك أن لا أُهلكهم بسَنَة بعامّة. ولا أُسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكوهم بعامة. حتى يكونَ بعضُهم يُهلك بعضا، وبعضُهم يَقْتل بعضا، وبعضهم يَسْبِى بعضا.

(١) أى ممن بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وذلك فى صلح الحديبية.

(٢) أى على معظمكم، أو على جماعتكم. وقد تقدم فى أول الباب.

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير ٤/ ١٩٢ رقم ٤١١٢ ـ ٤١١٤ من عدة طرق. وأخرجه البزار وهو فى الزوائد ٤/ ٩٩ رقم ٣٢٨٩. وأخرجه أبو يعلى فى آخر المغاريد ص١١٢ رقم ١١٣ وفيه تخريج أكثر والحديث صحيح.

(٤) «السنة» معناها هنا: القحط. و«بعامة» أى القحط العام.

قال[١]: وقال النبى ﷺ «وإنى لا أخاف على أمتى إلا الأئمة المُضلِّين، فإذا وُضِعِ السيف فى أمتى لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة»[٢].

• المعانى:

معظم معانى هذين الحديثين تقدمت فى شرح حديث ثوبان، وقد تقدم أول الباب[٣].

«صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم صلاة فأخف» ظاهر هذا أن القصة تعددت، ودعا ﷺ بدعوات كثيرة، وكلها استجابها الله سبحانه سوى دعوة واحدة.

وتجمع الروايات على أنه ﷺ صلى وأطال الصلاة، سواء أطال فى كل أركانها، أو فى بعض أركانها.

ففى هذا الحديث أنه ﷺ أخف فى عموم أركان الصلاة، وأطال الجلوس. والتخفيف فى صلاته ﷺ لا ينافى إتمام الأركان، فهو يخفف فى تمام، كما جاء فى حديث معاذ «صلى النبى صلاة فأحسن فيها الركوع والسجود والقيام»[٤].

ومما يدل على تعدد القصة:

* أنه فى الحديث الذى معنا «أخفّ. . . وأطال الجلوس» بينما فى

---

(١) أى شداد بن أوس.

(٢) أخرجه أحمد ٢٨/ ٣٣٩ وصححه محققه وأخرجه البزار ٤/ ١٠٠ رقم ٣٢٩١ زوائد. والطبرى فى التفسير ٧/ ٢٢٣ وقال فى مجمع الزوائد ٧/ ٢٢١: رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) فى «الإخبار بأن الله لن يهلك هذه الأمة بالقحط ولا بأعدائها» ص ١٤٢.

(٤) تقدم فى «الدعاء بأن لا تهلك هذه الأمة بالجوع» ص ١٧٣.

حديث آخر لمعاذ« صلى رسول الله ﷺ يوما صلاة فأطال فيها»[١].

* وفى الحديث الذى معنا «صلى بنا»، وحديث سعد[٢] «وصلينا معه» بينما فى أحاديث أخرى أنه صلى وحده، كحديث خباب «رمقت رسول الله ﷺ فى صلاة صلاها»[٣].

* وفى حديث خباب أنه صلى ليلا، وفى حديث سعد «أنه ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع فيه ركعتين» وهذا يدل على أن ذلك كان نهاراً.

ولقد تعددت الدعوات:

فمرة استعاذ بالله من القحط، والعدو، والاختلاف. كما فى حديث ثوبان[٤]، وشداد.

ومرة استعاذ بالله من الجوع، والعدو، والاختلاف. كما فى حديث معاذ[٥].

ومرة استعاذ بالله من الغرق، والقحط، والاختلاف. كما فى حديث سعد[٦].

ومرة استعاذ بالله من الغرق، والعدو، والاختلاف. كما فى حديث معاذ[٧].

---

(١) تقدم فى «الدعاء بأن لا تهلك هذه الأمة بالغرق» ص ١٩٤.

(٢) تقدم فى «الدعاء بأن لا تهلك هذه الأمة بالغرق» ص ١٩٤.

(٣) تقدم فى الحديث السابق «الدعاء بأن لا تهلك هذه الأمة بما أهلكت به الأمم السابقة» ص ٢٥٨.

(٤) الدعوة الأولى والثانية ص ١٤٢، والتاسعة ص ٢٧٤.

(٥) الدعوة الثالثة ص ١٧٣.

(٦) الدعوة الرابعة ص ١٩٤.

(٧) الدعوة الرابعة أيضا ص ١٩٤.

ومرة استعاذ بالله من الكفر، والعدو، وما أهلك السابقين، والاختلاف. كما فى حديث أبى هريرة[١].

ومرة استعاذ بالله من الاجتماع على ضلالة، والعدو، وما أهلك السابقين، والاختلاف. كما فى حديث أبى بصرة الغفارى[٢].

ومرة استعاذ بالله من الرجم، والخسف، والاختلاف. كما فى حديث جابر[٣] وابن عباس[٤].

ومرة استعاذ بالله مما أهلك السابقين، والعدو، والاختلاف. كما فى حديث خباب[٥]، وخالد الخزاعى[٦].

ويلاحظ أن الدعوة التى منعها قد جاءت فى كل الأحاديث، مما يدل على أنه ﷺ كررها، وسيأتى وجه أنه منعها، وأن ذلك خير للأمة، كما أن الإجابة خير للأمة. وقد تقدم شىء من ذلك فى المقدمة من هذا الباب[٧].

ومما يحتاج للتوضيح هنا:

«سألته أن لا يسحتكم بعذاب أصاب من كان قبلكم» وهذا يوضحه ما جاء فى حديث خباب «سألته أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا» وما جاء فى حديث أبى هريرة «وسألته أن لا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم».

---

(١) الدعوة الخامسة ص ٢٠٦.
(٢) الدعوة السادسة ص ٢٣٢.
(٣) فى الدعوة السابعة ص ٢٤٩.
(٤) فى الدعوة السابعة فى الشرح ص ٢٥٠.
(٥) فى الدعوة الثامنة ص ٢٥٨.
(٦) فى الدعوة التاسعة ٢٧٤.
(٧) فى المعانى ص ١٤١.

وواضح من هذا أن «أن لا يسحتكم بعذاب» أى أن لا يستأصلكم بعذاب.

وقوله «وإنى لا أخاف على أمتى إلا الأئمة المضلين» أى الدعاة إلى ما ليس من الإسلام، سواء من الحكام، أو العلماء، أو من يتظاهرون بالعلم وهم يدعون إلى غير القرآن والسنة.

«فإذا وضع السيف في أمتى لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة» أى إذا اقتتلت جماعتان من المسلمين، وبدأت الفتن فإنها ستستمر إلى يوم القيامة. ولقد بدأت الفتن بمقتل عثمان، ولا زال الاقتتال يحدث بين جماعات من المسلمين، كما حدث بين العراق وإيران. وبين العراق والكويت. بل إن الاقتتال يكون بين جماعتين من دولة واحدة، كما فى الجزائر، والدلائل تحذر من اقتتال العلمانيين والملتزمين، وهذا تشير إليه الدلائل فى كثير من الدول كما فى أفغانستان، وباكستان، وتركيا، وغير ذلك.

● راوى الحديث الأول:

خالد الخزاعى: صحابى جليل ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وفيه وفيمن كان معه من الصحابة نزلت الآية الكريمة ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾[(١)].

وفيهم قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها» فقالت أم المؤمنين حفصة: بلى يا

---

(١) سورة الفتح: ١٨.

رسول الله. فانتهرها. فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [١] فقال النبى ﷺ: قد قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [٢].

خالد هذا ممن شَرُفَ بهذه البيعة، بايعوا رسول الله ﷺ أن يثبتوا فى الجهاد، وأن لا يفرُّوا مهما كان جيش المشركين، وهذه البيعة تسمى «بيعة الرضوان».

وخالد الخزاعى هذا من الصحابة الذين كانوا يحرصون على فهم كل ما كان منه ﷺ، ولذا فإنه فى الحديث الذى نشرحه هنا نجده يتأمل أفعال رسول الله مع الصحابة، ثم يتساءلون عن سبب إطالته الصلاة، ويجيبهم ﷺ، مما يدل على حرصهم على العلم والتلقى عنه ﷺ.

رضى الله عن خالد الخزاعى أبو نافع[٣] وعن الصحابة والتابعين.

• راوى الحديث الثانى:

شَدَّاد بن أَوْس: ابن ثابت بن المنذر، من الأنصار، من بنى النجار أخوال رسول الله ﷺ[٤]. وشداد هذا ابن أخى حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة مريم: ٧١ والضمير فى «واردها» يعود على جهنم التى تقدم ذكرها فى الآية ٦٨ «ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا».

(٢) سورة مريم: ٧٢ والحديث أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة ١٩٤٢/٤ رقم ٢٤٩٦/١٦٣ عن أم مبشر. وحديث جابر فى هذا عند أحمد ٩٣/٢٣ رقم ١٤٧٧٨.

(٣) ترجمته فى الإصابة ٣٧٧/٢ رقم ٢٣٦٥ وفى المعجم الكبير للطبرانى ١٩٢/٤ وفى الاستيعاب ص٤٣٦.

(٤) هم أخوال جده عبد المطلب، ويقال عليهم أخوال رسول الله ﷺ لذلك.

وشداد من فضلاء الصحابة وعلمائهم.

يقول عنه الصحابى الجليل أبو الدرداء: إن شداد بن أوس أُوتىَ علما وحلما[١].

وقال سعيد بن عبد العزيز: فَضَلَ شدَّادُ بنُ أوس الأنصارَ بخصلتين: ببيانٍ إذا نطق، وبكَظْمٍ إذا غَضِب[٢].

وقال المفضل الغلابى: زهاد الدنيا ثلاثة: أبو الدرداء، وعمير بن سعد، وشداد بن أوس[٣].

بلغ من عبادة شداد أنه كان إذا دخل الفراش، يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم، فيقول: اللهم إن النار أذهبت منى النوم. فيقوم، فيصلى حتى يصبح[٤].

ومن خطب شداد: إنكم لم تروا من الخير إلا أسبابه، ولم تروا من الشر إلا أسبابه. الخير كله بحذافيره فى الجنة، والشر كله بحذافيره فى النار. وإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر[٥] والفاجر. والآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قاهر، ولِكُلٍّ بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا[٦].

وكان شداد فهّامة للنصوص، يوقعها موقعها الصحيح، فعن أبى الأشعث الصنعانى أنه راح إلى مسجد دمشق، وهجّر بالرواح[٧]، فلقى شداد بن أوس، والصُّنَابِحىُّ معه، فقلت: أين تريدان يرحمكما الله؟

(١) و(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦٤.

(٣) سير ٢/ ٤٦٥.

(٤) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٦٤.

(٥) الصالح.

(٦) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ١/ ٢٦٤.

(٧) سار وقت الظهيرة.

قالا: نريد هاهنا إلى أخ لنا مريض نعوده. فانطلقت معهما حتى دخلا على ذلك الرجل، فقالا له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بنعمة. فقال له شداد: أبشر بكفارات السيئات وحط الخطايا، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يقول: إنى إذا ابتليت عبدا من عبادى مؤمنا، فحمدنى على ما ابتليته، فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم ولدته أمُّه من الخطايا، ويقول الرب عز وجل: أنا قيدت عبدى وابتليته، فأَجْروا له كما كنتم تُجْرُون له وهو صحيح»(١).

واضح من هذا أن شداد بن أوس كان على دراية بفقه النص، وأنه يذكر النص فى موقعه. وهو مع ذلك يعمل بالنصوص الأخرى، فزيارته المريض إنما هو عمل بالأحاديث الواردة فى زيارة المريض.

وأكثر من هذا الحوار الذى دار بينه وبين آخرين فى قضية التوحيد:

قال شداد: إن أخوف ما أخاف على الناس ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول «من الشهوة الخفية والشرك».

فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء: أو لم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا «إن الشيطان قد يئس أن يُعْبد فى جزيرة العرب»؟ فما هذا الشرك الذى تخوفنا به يا شداد؟

فقال شداد: إن رسول الله ﷺ قال «من صلى يُرَائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك. ومن تصدق يرائى فقد أشرك».

فقال عوف بن مالك: أفلا يَعْمِد الله إلى ما ابْتُغِىَ فيه وجهه من ذلك العمل كله، فيقبل ما خَلَص له، ويدع ما يُشْرَك به؟

فقال شداد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل يقول:

---

(١) أخرجه أحمد ٢٨/٣٤٣ وقال محققه: صحيح لغيره.

أنا خير قسيم لمن أُشْرِك بى، من أَشْرَكَ بى شيئا فإن حَشْدَه عَمَلَه[١] قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به، وأنا عنه غنى»[٢].

هكذا كان شداد فى حفظه وعلمه، فى استنباطه من النصوص.

ولقد توفى شداد سنة ثمان وخمسين، وهو ابن خمس وسبعين سنة، رضى الله عنه وعن الصحابة والتابعين[٣].

● الشرح:

فى هذين الحديثين سأل رسول الله ﷺ ربه سبحانه وتعالى عدة خصال، فأعطاه الله:

* أن لا يهلك أمة الإسلام بعذاب أهلك من قبلنا.

* أن لا يسلط على أمة الإسلام عدوا يهلكها.

* أن لا يهلك أمة الإسلام بسنة عامة، أى بقحط يهلكها.

وقد تقدم شرح هذه الدعوات فى أحاديثها.

وفى هذين الحديثين أيضًا سأل رسول الله ﷺ ربه سبحانه وتعالى لأمته:

* أن لا يَلْبِسَهُم شيَعًا، ولا يُذِيقَ بعضَهم بأس بعض.

إلا أن الله سبحانه وتعالى لم يعطه هذه الخصلة لأمته، أخبر ربنا سبحانه وتعالى نبينا بهذا، وأخبرنا رسولنا بذلك، وفى ذلك ما فيه من الفوائد.

---

(١) جميع عمله.

(٢) اخرجه احمد ٢٨/ ٣٦٣ ونقلته بشىء من التصرف.

(٣) راجع فى ترجمته: سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٦٠ ومسند أحمد ٢٨/ ٣٣٤.

*** معنى هذه الدعوة:**

جاء تفسير هذه الدعوة على لسان كثير من السلف، من ذلك:

ما روى عن ابن عباس ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال: الأهواء المختلفة[1].

وأيضا ما روى عن ابن عباس ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب[2].

إن هذه الدعوة جاءت فى نص آية كريمة، وهى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[3].

ولقد استعاذ ﷺ من العذاب الذى من فوق وهو الرجم فأعاذه الله تبارك وتعالى منه.

واستعاذ ﷺ من العذاب الذى من تحت الأرجل وهو الخسف، فأعاذه الله. وقد تقدم ذلك.

أما هذه الدعوة التى مُنِعَها ﷺ، فمعناها ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ : يخلطكم، و﴿شِيَعًا﴾ : جماعات.

والمعنى: أن تتفرقوا جماعات مختلفة، كل جماعة لها وجهتها، تتعارضون وتتخاصمون.

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ البأس: الشدة فى الحرب.

والمعنى: تتحاربون حربا شديدة، حتى يقتل بعضكم بعضا.

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسير الآية ٦٥ من سورة الأنعام ٧/٢٢١ وحسَّنه فى التفسير الصحيح ٢/٢٤٧.

(٢) أخرجه الطبرى فى الموطن السابق ص٢٢٢ وحسنه أيضا فى التفسير الصحيح.

(٣) سورة الأنعام: ٦٥.

وهكذا يستعيذ ﷺ من اختلاف أمته، اختلاف يؤدى إلى أن يتناحروا ويقتتلوا قتالا شديدا، حتى يقتل بعضهم بعضا. والاقتتال مترتب على الاختلاف، ومن هنا جاء فى بعض الأحاديث أنهما دعوتان، وفى بعض آخر أنها دعوة واحدة.

ولكن: لماذا لم تستجب له ﷺ هذه الدعوة؟

*** سر عدم الاستجابة:**

لم يستجب الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ هذه الدعوة، وذلك للأسباب الآتية:

أولا: القرآن والسنة يغنيان عنها:

ففى القرآن الكريم والسنة النبوية كثير من النصوص التى تحث على عدم الاختلاف، وتحث على الموالاة والتعاون.

* يقول الله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [1].

* ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [2].

* ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [3].

---

(١) سورة الأنفال: ٤٦.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٥.

(٣) سورة آل عمران: ١٠٣.

* ويقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾[١].

● وغير هذا كثير فى القرآن الكريم.

● وفى السنة النبوية أيضا أحاديث تحذر من الاختلاف والاقتتال، وأحاديث تحث على المودة والتعاون.

* فعن جرير بن عبد الله البجلى «أن النبى ﷺ قال له فى حجة الوداع: استنصت الناس[٢] فقال ﷺ: لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[٣].

والمعنى: لا ترجعوا بعدى تفعلون فعل الكفار يقتل بعضكم بعضا، فالقتل ليس من الإسلام، وإنما هو من فعل الكفار.

* وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما «أن رسول الله ﷺ قال: يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن[٤]، وأعوذ بالله أن تدركوهن:

* لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا.

---

(١) سورة المائدة: ٥٥ ـ ٥٨.

(٢) يعنى اطلب منهم أن ينصتوا بمعنى يسكتوا ويستمعوا لما سيقوله ﷺ.

(٣) أخرجه البخارى فى العلم باب الإنصات للعلماء ١/ ٢١٧ رقم ١٢١ ومسلم فى الإيمان باب بيان معنى قول النبى ﷺ لا ترجعوا بعدى كفارا ١/ ٨١ رقم ١١٨/ ٦٥.

(٤) جواب إذا محذوف تقديره فلا خير. أو فإنه يحل بكم من العقوبات ما سأخبركم به.

* ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم.

* ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمْطروا.

* ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما فى أيديهم.

* وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»[(١)].

إن الخصلة الخامسة فى هذا الحديث تبين أن الأمة تتناحر وتقتتل حينما لم تحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. ذلك أن الحكم حينما يكون بالكتاب والسنة فلا اختلاف ولا اعتراض، فهذا حكم الله، يُسَلِّمُ به الجميع. أما حينما يكون الحكم بغير ما أنزل الله، فهذا يرى، وذاك يختلف معه، وكل يتمسك برأيه، فيقع الاختلاف، ويكون التنازع والاقتتال.

وهكذا يشخص ﷺ الداء، ويصف الدواء.

* وعن أبى بكرة قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار. فقلت يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه»[(٢)].

---

(١) حديث حسن أخرجه ابن ماجه فى الفتن باب العقوبات ٢/ ١٣٣٢ رقم ٤٠١٩ والحاكم فى الفتن باب خمس بلاء أعاذ النبى منها المسلمين ٤/ ٥٤٠ وصححه ووافق الذهبى. وقد تقدم فى «أسباب القحط الدينية» ص.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم، وهو عند البخارى فى الإيمان باب «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا..» ١/ ٨٤، ٨٥ رقم ٣١ وعند مسلم فى الفتن ١٤، ١٥.

* وعن أبى موسى الأشعرى «عن النبى ﷺ قال: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[١].

* وعن النعمان بن بشير قال: «قال رسول الله ﷺ: مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٢].

وهكذا فإن هذه الآيات وهذه الأحاديث تجعل الأمة:

١ ـ تبتعد عن الاختلاف كل البعد، ففى الاختلاف فشلها وضعفها، وهو يجلب غضب الله عليها.

٢ ـ وتبتعد عن الاقتتال كل البعد، فإنه خصلة من خصال الكفر، وهو مجلبة لسخط الله وعقابه.

٣ ـ وأيضا هذه الآيات والأحاديث وما فى موضوعها تُوَحِّد صفوف الأمة، وتعلمها الاجتماع على الغرض النبيل، الغرض الذى يرسمه القرآن والسنة.

٤ ـ وهذه النصوص تورث الأمة حبا ومودة بين أفرادها.

إن هذه النصوص أعلمت الأمة شؤم الاختلاف والاقتتال، وأن ذلك ضرر عليها فى الدنيا والآخرة. وأعلمت الأمة أيضا يمن الإخاء والمؤدة، وأن ذلك خير لها فى الدنيا والآخرة.

ومن هنا فإن الأمة ليست فى حاجة أن تُعْصَم من الاختلاف والاقتتال، وإنما هذا موكول إلى التزامها بالقرآن والسنة.

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا ٤٤٩/١٠ رقم ٦٠٢٦ وهو عنده فى الصلاة رقم ٤٨١ وأخرجه مسلم فى البر باب تراحم المؤمنين ١٩٩٩/٤ رقم ٢٥٨٥/٦٥.

(٢) أخرجه مسلم فى البر والصلة باب تراحم المؤمنين ١٩٩٩/٤ رقم ٢٥٨٦/٦٦ وأخرجه البخارى فى الأدب باب رحمة الناس والبهائم ٤٣٨/١٠ رقم ٦٠١١.

ثانيًا: هذا الخَطْب هيِّن:

فالاختلاف والاقتتال بين المسلمين بلاء أهون من البلاءات الأخرى، إنه بلاء لا يقضى على الأمة بأسرها، إنه ليس كالقحط، أو الخسف، أو تسلط الأعداء، فإذا حدثت فتنة بين مسلمين فإنها تكون:

١ ـ بين مجموعتين وليست بين كل الأمة.

٢ ـ وأى مجموعتين اقتتلتا من الأمة فإن العداء سيقف عند حد، فلن تقبل طائفة أن تضر الأخرى ضرراً شديداً.

٣ ـ أضف إلى ذلك أن بقية الأمة لن تترك الطائفتين تتهالكان، وإنما ستقوم بالصلح بينهما، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

ومن هنا لما حذّر الله الأمة من هذا البلاء «قال رسول الله ﷺ: هذا أهون، أو هذا أيسر».

فعن جابر رضى الله عنه قال «لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك. قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: هذا أهون، أو هذا أيسر»[2].

إنه بلاء لا يقضى على الأمة بأسرها، ولا يأتى إلا بمخالفة شرعية، ومن هنا مُنِع ﷺ هذه الدعوة، اعتمادا على أخلاق الأمة.

---

(١) سورة الحجرات: ٩، ١٠.

(٢) أخرجه البخارى رقم ٤٦٢٨ وقد تقدم فى «الدعاء بأن لا تهلك هذه الأمة بالرجم ولا بالخسف».

ثالثا: هذا البلاء يُكَفِّر اللهُ به عن الأمة الذنوب، ويرفع به الدرجات.

إن المتأمل لهذه الدعوة «أن لا يلبسنا الله شيعا، ولا يذيق بعضنا بأس بعض» يجد أن حال الأمة عند عدم استجابة هذه الدعوة كحال الأمة عند استجابة الدعوات السابقة.

إن الدعوات السابقة من سؤال عدم هلاك الأمة بالقحط.

وسؤال عدم هلاكها بالغرق... إلخ.

إنما هى دعوات أن لا يهلك الله جميع الأمة بهذا النوع من البلاء: القحط، أو الغرق... إلخ.

ولا تمنع هذه الدعوات أن يقع هذا البلاء لجماعة أو جماعات من الأمة.

ودعوة «أن لا يلبسنا شيعا» لا تصل إلى هلاك جميع الأمة، وإنما قد تقع بين جماعتين من الأمة، فيحدث بها هلاك البعض، وعليه فعدم استجابتها لا يعرض الأمة للهلاك العام، وإنما هى بلاء قد يقع للبعض يكفر الله به سيئات من حَلّ بهم، كما فى:

* حديث أبى موسى الأشعرى قال «قال رسول الله ﷺ: أمتى أمة مرحومة، لا عذاب عليها فى الآخرة، جعل الله عذابها فى الدنيا: القتل، والزلازل، والفتن»[1].

إنها أمة مؤمنة، قد تقع المعاصى من بعض أفرادها، إلا أن هذه المعاصى تُكَفَّر عن الأمة بما يصيبها من شدائد وأهوال، وقلّ منها ما يبقى إلى يوم القيامة، حتى إنه بالمقارنة بالأمم الأخرى، كأنه لا شىء.

(١) أخرجه الحاكم فى الفتن باب تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة ٤/٤٤٤ وصححه، ووافقه الذهبى.

* لماذا أخبر ﷺ بعدم الإجابة؟

أخبر ﷺ أنه سأل الله أن لا تختلف أمته، وأن لا تقتتل. وأن الله سبحانه لم يستجب هذه الدعوة. والحكمة فى ذلك أن يخبرنا أننا موكولون فى هذا إلى ديننا، وأن علينا أن نلتزم بالآيات الآمرة بالاتحاد، وأن نلتزم بالأحاديث التى ترسم خط الأمة فى التعاون والموالاة[١].

لقد أخبرنا ﷺ بغلق كثير من أبواب الشر العام، فلا قحط ولا غرق، ولا عدو، ولا رجم، ولا خسف، ولا مكان للكفر العام، كل أبواب الشر هذه قد طمأنه الله على سلامة الأمة منها، وطمأننا رسول الله ﷺ.

أما باب الاختلاف والاقتتال فعلينا أن نحذره، وأن نبتعد عنه.

ولقد أكد ذلك ﷺ فى غير ما حديث، حذّر من الاقتتال، وبين أنه باب خطير.

* ففى حديث شداد بن أوس والذى تقدم فى أول هذه الدعوة[٢] يقول ﷺ «فإذا وُضِعَ السيف فى أمتى لم يُرْفَع عنهم إلى يوم القيامة».

* وأيضا هذا النص فى حديث ثوبان[٣].

والمراد بوضع السيف حدوث القتال، سواء كان بالسيف أو بغيره، فالمعنى: إذا حدث القتال بين جماعات الأمة فإنه سيظل، تقتتل هاتان، ثم تقتتل جماعتان غيرهما، وهكذا إذا فتح باب الشر فإنه سيكثر، وهو ﷺ إنما يخبر بهذا ليحذرنا هذا الأمر.

* وعن أبى هريرة «عن النبى ﷺ قال: يتقارب الزمان، وينقص

---

(١) ولقد تقدمت هذه الآيات، وهذه الأحاديث هنا ص ٢٨٤.

(٢) ص ٢٧٤، ٢٧٥.

(٣) عند ابن حبان ١٦/ ٢٢٠ رقم ٧٢٣٨ وهو عند الترمذى فى الفتن باب ما جاء فى اتخاذ السيف من خشب ٦/ ٤٤٥ وقال: هذا حديث صحيح.

العمل، ويُلْقِى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْج. قالوا: يا رسول الله، أيما هو؟ قال: القتل، القتل»[1].

إنه ﷺ يحذر من أشياء، يركز فيها على التحذير من الاقتتال.

* وعن معقل بن يسار «أن رسول الله ﷺ قال: العبادة فى الهَرْج كهجرة إلىّ»[2].

إنه يصف الدواء، فإذا كثر الهَرْج والذى هو الاختلاف والاقتتال فإن الدواء معروف قبل وقوع الداء، الدواء أن لا ينشغل بالاختلاف، وإنما ينشغل بالعبادة، فإن ذلك يعيد الأمة إلى رشدها، إنه ﷺ يُعَلِّم الأمة فضل العبادة عند الاختلاف، وأنها كالهجرة إليه ﷺ.

● وهكذا يوضح ﷺ الأمر ويجلِّيه، وأن الشر إذا فتحنا بابه، فاختلفنا واقتتلنا، فسيكثر الشر ويشيع. فلنحذر ذلك.

وسبيل السلامة أن نترك الاختلاف، ونجتهد فى العبادة، فإنها تزكى النفوس، وترتقى بالأخلاق.

● وجه الإعجاز فى الحديث:

* جاء فى القرآن الكريم التحذير من الاختلاف والاقتتال بين جماعات الأمة، من ذلك:

* قول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3]

---

(١) اخرجه البخارى فى الفتن باب ظهور الفتن ١٣/١٣رقم ٧٠٦١ ومسلم فى العلم رقم ١١ وفى الفتن رقم ١٨.

(٢) أخرجه مسلم فى الفتن رقم ٢٩٤٨/١٣٠.

(٣) سورة الأنفال: ٤٦.

* وقوله سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [(١)].

* وجاء فيه أن الأمم السابقة وقع بينها الاختلاف والاقتتال، من ذلك:

* قوله سبحانه فى شأن اليهود والمنافقين: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [(٢)].

* وقوله سبحانه فى شأن النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [(٣)].

وجاء فيه أن أمة الإسلام قد تُبْتَلى بالاختلاف والاقتتال، من ذلك:

* قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [(٤)].

ومن هنا سأل رسول الله ﷺ ربه أن يرفع عن أمته هذا البلاء، سأل الله «أن لا يجعل بأسهم بينهم» أى لا يختلفوا. و «أن لا يذيق بعضهم بأس بعض» أى لا يقتتلوا. إلا أن الله تبارك وتعالى لم يستجب هذه الدعوة، وإنما وكل الأمة فى هذا إلى نصوص الإسلام، فالقرآن الكريم والسنة النبوية فيهما ما يحصن الأمة ضد هذا، فلقد بيّن ربنا أن الاختلاف بين الأمم السابقة إنما كان بإعراضهم عن دينهم، وبيّن

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٣.

(٢) سورة الحشر: ١٤.

(٣) سورة المائدة: ١٤.

(٤) سورة الأنعام: ٦٥.

رسول الله ﷺ أن الاختلاف إنما يحدث بيننا إذا تركنا العمل بأحكام ديننا، ونحن مكلفون بالعمل بنصوص الكتاب والسنة، وذلك يعصمنا من الاختلاف والاقتتال.

ولقد تحقق ما أخبر به ﷺ، فبين الحين والحين يحدث الاختلاف والاقتتال بين جماعتين من جماعات المسلمين، كما حدث بين العراق وإيران فى الفترة من ١٤٠٠ ـ ١٤١٠ وكما حدث بين العراق والكويت من ١٤١٠ إلى الآن، والاقتتال دائر بين أهل الجزائر منذ سنوات. وكان الاقتتال قد اقترب أن يحدث بين مصر والسودان من أجل الحدود، وبين الجزائر والمغرب، وبين السعودية واليمن لولا أن الله سلّم، ولا زالت أسباب الاقتتال قائمة بين إيران والإمارات نسأل الله أن يسلم. تحقق ما أخبر به ﷺ من أن الله لم يعصم الأمة من الاختلاف والاقتتال، فيحدث بين الحين والآخر، وتحقق ما أخبر به ﷺ من أن الاقتتال بين جماعات الأمة أهون وأيسر.

وفى أحاديث هذا الباب معجزة أخرى من معجزاته ﷺ، فإن قوله فى نهاية حديث شداد «فإذا وُضِعَ السيف فى أمتى لم يُرْفَع عنهم إلى يوم القيامة» هذا هو الواقع، فعلى طول عمر الأمة منذ مقتل عثمان بن عفان والاختلاف والاقتتال يحدث بين حين وآخر. وعلى الرغم من طول التاريخ، وتكالب الأمم الأخرى، والنصوص المحذرة، على الرغم من ذلك لا زال هذا الحديث يتحقق.

نسأل الله أن يرزق الأمة رشدها، فتحذر ما حذرها ﷺ فى هذا الحديث، فلا اختلاف ولا اقتتال.

والله الهادى إلى الصراط المستقيم.

• الدروس المستفادة من الحديث:

* عظيم شفقة رسول الله ﷺ على أمته، مما جعله يدعو أن يعيذها الله من كثير من الابتلاءات، ويدعو أن يمن الله عليها بعظيم الخيرات.

* على الأمة أن تحذر الاختلاف والاقتتال، فإنها موكولة فى ذلك إلى اتباعها الكتاب والسنة، وليست معصومة من ذلك.

* إكرام الله هذه الأمة، إذ عصمها من الكوارث العامة، وفى أمور الدين بين لها ما يعصمها.

* عظيم قدره ﷺ عند ربه، فاستجاب سبحانه دعاءه ﷺ، إلا إذا كان الأمر تكليفا شرعيا، فإن الله يبين لرسوله أن هذا مجال تكليف.

وفى الحديث معجزة له ﷺ تشهد أمامنا بعصمته، وتقيم الدليل على صدق نبوته، إذ أخبر بالأمر فوقع كما أخبر.

إنه ﷺ أخبر بالدعوات التى استجابها الله له، وأخبر بالدعوة التى لم يستجبها الله له، وهذه هى النبوة لا تكلف فيها ولا ادعاء، وإنما الصدق كل الصدق، وتعليم الأمة كل الحق، فعرَّفَنا ما حفظنا الله منه، وما وكلنا سبحانه إلى الامتثال للكتاب والسنة.

* * *

ثانيا: دعوات أوحاها الله إليه واستجابها سبحانه

١ ـ الدعاء بهداية الله الصراط المستقيم.

٢ ـ ٨ ـ الدعاء بالتيسير والرحمة والنصر «سبع دعوات».

* * *

ثانيا(١): دعوات يعلمها الله رسوله ويستجيبها له

ولم يقف الأمر عند حد أن يدعو ﷺ لأمته، وإنما تعدى ذلك فأرشد الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يدعوه بدعوات، وطمأنه الله عز وجل بأنه قد استجاب له، وشرّع سبحانه لأمة الإسلام هذه الدعوات، تتضرع إلى الله تعالى بها كثيرا.

إن الدعوات فى القرآن الكريم كثيرة، يعلمها الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ والأمة. لكنى أقصد فى هذا المبحث دعوات طمأن الله رسوله أنها قد استجيبت، وطمأن رسول الله ﷺ الأمة باستجابتها، وحثنا على الإكثار منها.

١١ - الدعاء بهداية الأمة الصراط المستقيم(٢)

عن عبد الله بن عباس قال: «بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبى ﷺ سمع نَقيضًا مِنْ فَوْقِه، فرفَع رأسَه فقال: هذا بابٌ من السماءِ فُتِحَ اليوم، لم يُفْتَح قط إلا اليوم. فنزل منه ملكٌ. فقال: هذا مَلَكٌ نزل إلى الأرض. لم يَنْزل قط إلا اليوم. فسلَّم، وقال: أَبْشر بِنُورَيْن أُوتيتَهُما، لم يُؤْتَهُما نَبىٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البَقرة. لَن تقرأَ بِحَرْفٍ منهما إلا أُعْطِيتَه»(٣).

---

(١) تقدم «أولا» وهو الأدعية التى دعا بها رسول الله ﷺ ابتداء، أما هنا فدعوات أنزلها الله فى القرآن.

(٢) بمشيئة الله تعالى سوف أتناول هنا الدعاء الذى فى الفاتحة. أما دعاء خواتيم سورة البقرة ففى الحديث الذى يأتى بعد هذا.

(٣) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ١/ ٥٥٤ رقم ٢٥٤/ ٨٠٦ والنسائى فى الافتتاح باب فضل فاتحة الكتاب ٢/ ١٠٦.

• المعانى:

«بينما جبريل قاعد» جبريل اسم ملك الوحى، والملائكة يمكنهم الظهور فى صورة رجل، وكان جبريل يأتى رسول الله ﷺ فى صورة أحد الصحابة واسمه «دحية» وكان رجلا جميلا.

«سمع نقيضا من فوقه» النقيض: الصوت. وهو كصوت الباب إذا فُتح.

والمعنى: أنه سمع صوتا من أعلا، يشبه الصوت الذى يسمع من فتح الباب.

«فسلّم، وقال» أى سلّم الملك النازل من السماء، سلم على رسول الله ﷺ، وعلى جبريل، وعلى الحاضرين، وبعد أن سلم هذا الملك توجه بالخطاب إلى رسول الله محمد ﷺ وقال له: «أبشر بنورين...».

«أبشر بنورين أوتيتهما» كل ما أوحاه الله إلى رسوله فهو «نور» وعليه فالقرآن «نور» وكل آية أو مجموعة آيات يقال لها «نور» قال تعالى فى شأن رسوله ﷺ ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [1] فسمّى الله سبحانه ما أنزله على رسوله «النور».

وقول الملك فى هذا الحديث لرسول الله ﷺ «أبشر بنورين» أى مجموعتين من آيات القرآن الكريم، هما الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، سماهما «نورين».

«أوتيتهما» أى آتاهما الله لك.

«لم يؤتهما نبى قبلك» أى اختصك الله وأمتك بهما، ولم يؤتهما نبيا قبلك، وليس بعدك نبى، فهما خصوصية لك ولأمتك.

«ولن تقرأ بحرف منهما» تقرأ معناها: تدعو. و«بحرف منهما» أى

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.

بدعوة منهما. أطلق الحرف وأراد به الجملة، من باب إطلاق الجزء على الكل.

«إلا أعطيته» أى إلا استجابه الله منك.

والمعنى: لن تدعوا بدعوة من سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة إلا استجابها الله لك.

• راوى الحديث:

عبد الله بن عباس: اسمه ونسبه: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن هاشم، ابن عم النبى ﷺ.

كنيته: أبو العباس كنى بأكبر أولاده وهو العباس.

نسبته: الهاشمى.

أمه: أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية.

مولده: وُلد بالشِّعب حين حاصرت قريش بنى هاشم، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين. وحنّكه الرسول ﷺ بريقه حين ولد.

مناقبه: روى عنه قال: ضمنى رسول الله ﷺ وقال: اللهم علمه الكتاب[١]. وفى رواية عنه أيضا: اللهم علّمه الحكمة[٢].

وروى عنه أن النبى ﷺ دخل الخلاء فوضعتُ له وَضُوءًا فقال: من وضع هذا؟ فأُخْبِر فقال: اللهم فقهه فى الدين[٣].

وفى رواية عنه أيضا: اللهم فقهه فى الدين وعلّمه التأويل[٤].

---

(١) البخارى ١/ ١٦٩، ١٣/ ٢٤٥.

(٢) البخارى ٧/ ١٠٠.

(٣) البخارى ١/ ٢٤٤.

(٤) الإصابة ٤/ ١٤٣.

وقد استجاب الله دعوة نبيه، فكان ابن عباس حَبْر هذه الأمة وفقيهها.

وكان عمر يدعوه ويقرّبه ويقول: إنى رأيت رسول الله ﷺ دعاك يومًا فمسح رأسك، وقال: اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل(١).

وروى عنه: أن عمر كان يُدخلنى مع أشياخ بدر فقال بعضهم: لم تُدخل هذا الفتى معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم ودعانى معهم قال: وما رأيته دعانى يومئذ إلا ليريهم منى، فقال: ما تقولون فى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ...﴾ حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أُمِرْنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وقال بعضهم: لا ندرى. ولم يقل بعضهم شيئا. فقال لى: يا ابن عباس أكذلك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾: فتح مكة. فذاك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم(٢).

مكانته العلمية: قال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس.

وقال ابن مسعود أيضا: لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشره منا رجل.

وقال ابن عمر لمن سأله: سل ابن عباس، فإنه أعلم من بقى بما أنزل الله على محمد(٣).

ولما مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة: مات حبر هذه الأمة، ولعل الله أن يجعل فى ابن عباس خَلَفًا(٤).

عن عطاء قال: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس، أكثر فقها، وأعظم خشية.

---

(١) فتح البارى ١/ ١٧٠.

(٢) الفتح ٧/ ١٠٠.

(٣) الإصابة ٤/ ١٤٦، ١٤٧.

(٤) الإصابة ٤/ ١٤٧.

إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من وادٍ واسع[١].

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: ما رأيت أحدا أعلم من ابن عباس بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ، وبقضاء أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ولا أفقه منه، ولا أعلم بِتفسير القرآن، وبالعربية والشعر والحساب والفرائض، وكان يجلس يوما للفقه، ويوما للتأويل، ويوما للمغازى، ويوما للشعر، ويومًا لأيام العرب، وما رأيت عالما قط جلس إليه إلا خضع له، ولا سائلا سأله إلا وجد عنده علمًا[٢].

عن طاوس قال: رأيت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارءوا فى أمر، صاروا إلى قول ابن عباس[٣].

و «تدارءوا» يعنى: اختلفوا.

زهده: كان ابن عباس زاهدًا، عابدًا، سريع البكاء، كثير العبرة حتى كان لموضع الدمع أثر فى خديه.

وفاته: مات بالطائف سنة ثمان وستين، وصلى عليه محمد بن على ابن أبى طالب وجاء طائر أبيض، فدخل فى نعشه، ولم يُرَ خارجا منه، فلما دُفن سمعوا صوتا ـ دون شخص ـ يقرأ: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾

رضى الله عنه وأرضاه[٤].

---

(١) الإصابة ٤/١٤٨.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للنووى (١/١/٢٧٦).

(٣) الإصابة ٤/١٤٨.

(٤) هذه الترجمة مقتبسة من كتابى «علم الجرح والتعديل».

• **الشرح:**

إن سورة الفاتحة فيها عظيم الذكر، وكريم الثناء على الله تعالى، وفيها سؤال الهداية ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هذا الدعاء علمناه الله تعالى، وطمأن رسوله ﷺ فى هذا الحديث أنه أعطاه هذه الميزة، فدعا بهذه الدعوة، واستجابها الله تبارك وتعالى له، وطمأننا ﷺ.

يوحى سبحانه إلى رسوله ﷺ بواسطة ملك خاص، وجبريل حاضر، يؤكد له ﷺ أن هذا ملك قادم بأمر خاص، فيقول الملك «أبشر بنورين أوتيتهما» يبشره بأمرين عظيمين مَنَّ الله بهما عليه ﷺ، ثم يقول له «لم يؤتهما نبى قبلك» أى أنهما خصوصية لك. ثم يبين له هذين الأمرين العظيمين، وأنهما: سورة الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة. ثم يبين له وجه العظمة، وهو أنه إذا قرأهما فإن الله يستجيب له ذلك.

ففى سورة الفاتحة يسأل الله الهداية العامة للأمة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والله قد استجاب له ذلك، فستظل الأمة على الجادة، على الكتاب والسنة، إلى قيام الساعة، لن يعمها الكفر، ولن تضل عن الدين القويم.

إنها أمة معصومة، لا تنحرف عن الحق، فلا تُحَرِّفُ وحيا، ولا يُمِيلُها الهوى أو المصلحةُ فى فهمه. وإنما تفهمه وفق المنهج الصحيح.

ومن هنا يزكى القرآن طريقهم، ويلزم بإجماعهم:

* يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (١).

---

(١) سورة النساء: ١١٥.

فتوعد الله سبحانه من يخالف طريق المؤمنين أن يصليه جهنم، وما ذلك إلا لأن الطريق الذى يُجْمِعون عليه إنما هو الحق الذى يجب اتباعه، وما عداه باطل يجب اجتنابه.

وبيّن ﷺ أن أمة الإسلام معصومة، لا تجتمع على باطل، فقال ﷺ «إن الله تعالى قد أجار أمتى من أن تجتمع على ضلالة»[1].

إنها دعوة دعاها ﷺ، والله يوحى إليه «لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعْطِيتَهُ» أى أن الله يستجيب له ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فيوفق الله سبحانه وتعالى أمة الإسلام للحق، تتمسك به وتعتصم، ولا تزيغ عنه ولا تحيد.

و «الصراط المستقيم» هو الإسلام، الدين الحق، الدين الذى ينظم كل شئون الحياة ورد هذا التفسير عن رسول الله ﷺ، وعن كثير من الصحابة[2]:

فعن النواس بن سمعان الأنصارى «عن رسول الله ﷺ قال: ضرب اللهُ مَثَلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جَنَبَتَى الصراط سُوران، فيهما أبواب مُفَتَّحَةٌ، وعلى الأبواب سُتُور مُرْخَاة، وعلى باب الصراط دَاعٍ يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تَتَعَرَّجُوا. وداع يدعو مِنْ فوق الصراط، فإذا أراد (إنسان فَتْحَ شىء) من تلك الأبواب، قال: ويحك،

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى السنة ١/ ٤١ وقبله وبعده أحاديث تشهد له، وذكره السخاوى فى المقاصد ص٤٦٠ وخرجه من عدة طرق ثم قال: وبالجملة فهو حديث مشهور المتن، ذو أسانيد كثيرة، وشواهد متعددة فى المرفوع وغيره. وذكره صاحب نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص١٠٤ رقم ١٧٩ وأشار إلى من حكموا بتواتره. قلت: الآية التى ذكرتها هنا قبله تقويه بما لا مزيد عليه. وراجع المدخل إلى السنة النبوية ص٣٠٣، ٣٠٤ «الأمة التى قبلته ـ الخبر ـ أمة معصومة». وقد سبق فى «الدعاء بأن لا يجمع الله هذه الأمة على ضلالة» ص ٢٣٨.

(٢) راجع الدر المنثور فى تفسير سورة الفاتحة آية «اهدنا الصراط المستقيم» ١/ ١٤، ١٥، والترمذى أول كتاب الأمثال.

لا تَفْتَحهُ؛ فإنك إن تَفْتَحهُ تَلجهُ. والصراط: الإسلام. والسُّوران: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. وذلك الداعى على رأس الصراط: كتاب الله. والداعى من فوق الصراط: واعظ الله فى قلب كل مسلم»[١].

وعن عبد الله بن عباس فى قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: ألهمنا الطريق الهادى، وهو دين الله الذى لا عوج له[٢].

* تحديد الصراط المستقيم:

ولقد جاء تحديد الصراط المستقيم، وبيان كامل أحواله فى الآية بعد ذلك، ذلك أن الإسلام على درجات متفاوتة، فمن الناس من رسخ إيمانه، واستقام سلوكه، ومن الناس من هو أقل من ذلك، فالإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى، فجاءت الآية بعد ذلك تحدد المطلوب وأنه أى الصراط المستقيم:

١ ـ الإسلام فى أكمل صورة، وأعلا درجة، فقال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

والذين أنعم الله عليهم هم: النبيون، والصديقون، والشهداء والصالحون، كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[٣].

---

(١) أخرجه أحمد ٢٩/ ١٨١ رقم ١٧٦٣٤ وصححه محققه وخرجه، وأخرجه الآجرى فى الشريعة ١/ ١٢٢ رقم ١٤, ١٥.

(٢) أخرجه الطبرى ١/ ٧٤.

(٣) سورة النساء آية ٦٦ ـ ٦٩.

فبينت هذه الآيات أن العمل بالكتاب والسنة هو طريق السعادة، وهو منهج الذين أنعم الله عليهم.

إنها دعوة كاملة عظيمة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول ابن عباس: طريق من أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من الملائكة، والنبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، الذين أطاعوك وعبدوك[1].

ويقول الإمام الطبرى: فالذى أُمِرَ محمدٌ ﷺ وأمتُه أن يسألوه ربهم من الهداية للطريق المستقيم، هى الهداية للطريق الذى وصف الله جل ثناؤه صفته، وذلك الطريق هو طريق الذين وصفهم الله بما وصفهم به فى تنزيله ـ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ ووعد من سلكه فاستقام فيه طائعا لله ولرسوله ﷺ أن يورده مواردهم، والله لا يخلف الميعاد[2].

هكذا يتضح أن هذه الدعوة هى سؤال الله تعالى أن يوفقنا لطاعته على خير وجه، على نهج أهل الفضل والكمال من النبيين ومَنْ على نهجهم.

٢ ـ ولم تقف الدعوة عند حد سؤال الله التوفيق للطريق المستقيم، الذى هو طريق النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، هؤلاء الذين استقاموا على النهج الذى يرضى الله تبارك وتعالى، وإنما تعدت ذلك إلى:

الاستعاذة بالله من طريق المغضوب عليهم: فجاء فى الدعوة ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أى ألهمنا ووفقنا لطريق الذين أنعمت عليهم بالهداية،

(١) أخرجه الطبرى ١/ ٧٦.

(٢) تفسير الطبرى ١/ ٧٦.

لا طريق الذين غضبت عليهم.

والمتتبع لنصوص القرآن والسنة يجد أن المغضوب عليهم هم الذين وضح الحق أمامهم لكنهم لا يقبلونه، ولا تنشرح له صدورهم، يستوى فى ذلك العقائد والعبادات.

* يقول الله تعالى: ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

هذا فى الكفر وانشراح الصدر به، نعوذ بالله من الكفر والنفاق.

* ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2].

هذا فى الذنوب فلا يصح أن يفر المسلم أمام الكفار ويعطيهم ظهره، إلا إذا كان لمصلحة القتال، فإذا فرّ فهذه معصية تُغْضِبُ الله عليه.

فهذا فى العبادات.

وهكذا فتَرْكُ الأمر الإلهى يُنْزِل بالإنسان غضب الله.

ومن هنا كانت الدعوة ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أى نستعيذ بك يا رب من طريق الذين غضبت عليهم لعدم امتثالهم أوامرك أو نواهيك.

٣ ـ الاستعاذة بالله من طريق الضالين: وجاء فى الدعوة أيضًا ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أى ألهمنا يا رب طريق الصالحين، لا طريق المغضوب عليهم، ولا طريق الضالين.

---

(١) سورة النحل آية ١٠٦.

(٢) سورة الأنفال ١٥، ١٦.

والضلال: ضد الهدى. فمن استقام على المنهج السليم، باتباع القرآن والسنة فهو مهتد. ومن خالف ذلك فهو ضال. يستوى فى ذلك من خالف كثيرا أو يسيرا، ومن خالف عمدا أو سهوا[1].

إنه ﷺ يستعيذ بالله من كل أنواع مخالفة الصراط المستقيم:

* يستوى فى ذلك عن علم أو عن جهل. وعليه فهو يستعيذ بالله أن تجهل الأمة أى أمر من أمور دينها، ويستعيذ بالله أن تعلم ولا تعمل. فالإسلام معرفة الحق وقبوله، والعمل به.

* ويستوى فى ذلك المخالفة عن عمد أو سهو، فمن خالف عامدا أو غافلا فهو ضال، وفى القرآن تحذير من السهو، يقول سبحانه: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾[2] تحذير للمصلين من السهو عن الصلاة.

* ويستوى فى ذلك المخالفة الكثيرة واليسيرة، فمن الكثيرة كون الضلال كفرا، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا**﴾[3].

ومن المخالفة اليسيرة كون النسيان ضلالا، كما قال الله فى حق الشاهدتين من النساء ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ**﴾[4].

(١) راجع بصائر ذوى التمييز ٣/ ٤٨١، ٤٨٢.

(٢) سورة الماعون وراجع بصائر ذوى التمييز ٣/ ٢٧٠.

(٣) سورة النساء: ١٣٦.

(٤) سورة البقرة من: ٢٨٢.

فالضلال هنا: النسيان، وعلى الرغم من أن الإنسان غير مؤاخذ بالنسيان، إلا أن النسيان لما كان سببا فى البعد عن الحق سماه الله ضلالا.

وهكذا فمطلق مخالفة المنهج القويم ضلال. حتى لو كانت المخالفة عن جهل، أو عن سهو، أو عن نسيان.

واستعاذته ﷺ بالله من طريق الضالين، هو استعاذة بالله من كل مخالفة للصراط المستقيم.

وهكذا يستعيذ ﷺ بالله من طريق المغضوب عليهم، الذين عرفوا الحق ورفضوه. ومن طريق الضالين الذين لم يعرفوا الحق ولم يعملوا به.

إنه يسأل الله الهداية للصراط المستقيم، ويستعيذ بالله من أية مخالفة.

إنها دعوة جامعة عظيمة، مَنّ الله بها على رسوله وعلى المؤمنين، دعا بها ﷺ، واستجاب الله سبحانه وتعالى له. فبقيت الأمة والحمد لله على الصراط المستقيم.

ومن هنا يقول ﷺ عن سورة الفاتحة إنها «أم القرآن»[1]، ذلك أنها جمعت الخير كله، من الثناء على الله، وتوحيده سبحانه، والالتزام بكامل الدين.

* ويقول ﷺ: «قال الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، ولعبدى ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، قال الله تعالى: حمدنى عبدى. وإذا قال: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾، قال الله تعالى: أثنى علىّ عبدى. وإذا قال: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، قال: مجّدنى عبدى. فإذا قال: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، قال: هذا بينى وبين

(١) أخرجه البخارى رقم: ٤٧٠٤.

عبدى، ولعبدى ما سأل. فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبدى، ولعبدى ما سأل»[١].

* إنه ﷺ يبشرنا فى الحديث الذى نشرحه والذى فيه أن الملك قال له «أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته» إنه يبشرنا أن الله تبارك وتعالى قد استجاب له هذا المطلب العظيم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

وفى هذا الحديث القدسى «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى...» فيه أن الله تبارك وتعالى يعطى المؤمن ما سأل، ويحقق له رجاءه عند قراءة الفاتحة، ومن هنا حثنا ﷺ أن نقول عقب قراءة الفاتحة «آمين» ومعناها: استجب يا رب. فالله يقول لعبده «ولعبدى ما سأل» فيقول العبد «آمين» يؤكد على رجاء هذه الدعوة ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ...﴾ يطلب من الله العون والتوفيق للصراط المستقيم الذى سار عليه النبيون. ويؤكد العبد هذا المطلب فيستعيذ بالله من أى طريق غير الطريق المستقيم.

يقول ﷺ «إذا صليتم فأقيموا صفوفكم، ثم ليؤمكم أحدكم. فإذا كبّر فكبروا. وإذا قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقولوا «آمين» يجبكم الله»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم فى الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ١/ ٢٩٦ رقم ٣٨/ ٣٩٥.

(٢) أى يستجيب الله دعاءكم والحديث أخرجه مسلم فى الصلاة رقم ٦٢/ ٤٠٤.

*** أبعاد هذه الدعوة:**

هكذا استجاب الله هذه الدعوة العظيمة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فستبقى الأمة فى مجموعها على الحق، ولن تحيد عنه ولن تضل، تجدد إيمانها بضبط منهجها على الكتاب والسنة، ويُذَكِّرُ بعضها بعضا بالحق وبالخير. إلا أن هذا لا يمنع أن يضل أفراد أو جماعات من هذه الأمة، فالمعصوم كل الأمة، فلن تضل كلها، أما البعض فقد يضل، وهؤلاء أسباب الهداية، متوفرة أمامهم، وتتمثل فى:

* القرآن الكريم والسنة النبوية، والدراسات القائمة عليهما، فالقرآن واعظ قوى، وداع شديد، والسنة فيها الكثير والكثير مما يأخذ بيد المسلم إلى الحق، والعلماء يستنبطون من هذين المصدرين، ويقدمون للأمة ما فيه الهداية والرشاد.

* وكذلك أهل الخير من الأمة، من العلماء والصالحين، فهؤلاء مأمورون بدعوة الآخرين إلى الحق كما قال الله سبحانه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

فهؤلاء إن ندت جماعة من الأمة سارعوا فى الأخذ بأيديهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

* وكذلك الواقع، فإن من شرد عن الإسلام، لن يجد فى غير الإسلام إلا الشر، لن يجد إلا الضلال، لن يجد إلا الزنا، والربا، لن يجد إلا الظلم والطغيان، لن يجد إلا الفجور والإباحية، والضياع والانتهازية، وذلك يجعله يعود إلى الإسلام لسموه وعظمته.

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٤.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

يبشرنا ﷺ بأن الله تبارك وتعالى علمنا هذا الدعاء ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ويبشرنا ﷺ بأن الله سبحانه وتعالى استجاب منه هذا الدعاء لأمته.

بشّره الملك قائلا «أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة. لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته» فلما دعا ﷺ بهذه الدعوات طمأنه الله سبحانه بقوله عقب كل دعوة «نعم» و «قد فعلتُ».

وعليه فأمة الإسلام يهديها الله الصراط المستقيم، يهديها الله الدين القويم، الإسلام على أتم وأنقى ما يكون، لا تترك شيئا منه عمدا، ولا تضيع شيئا منه سهوا ولا نسيانا، إنما هى على الإسلام التام.

• يخبرنا ﷺ بذلك. ويتحقق ذلك تماما كما أخبر ﷺ:

* فالأمة بحمد الله ملتزمة بالإسلام كله، تحرص على أصوله وفروعه، صادقة فى تطبيقه، حريصة على كل عقيدة وشريعة وأدب فيه.

* وعلماء الأمة عاكفون على دراسة الإسلام، كل فى تخصصه، فعلماء للقراءات، وعلماء للتفسير، وعلماء للحديث، وعلماء للفقه، وعلماء للعقيدة، وعلماء للغة، وعلماء للسيرة والتاريخ الإسلامى، وعلماء للدعوة والاجتماع. وكل أهل تخصص يستوعبونه بالدراسة، ويراعون مقتضيات كل عصر.

والأمة مع هؤلاء العلماء تؤازرهم، وتقتدى بهم.

* والقرآن الكريم عمدة الإسلام وأساسه، والسنة النبوية التطبيق

العملى للإسلام، تبينه وتوضحه، قد هيأ الله لهما أسباب الحفظ والخلود، وأسباب التقريب للعمل. والأمة ـ ممثلة فى علمائها ـ موفقة فى خدمتهما ـ القرآن والسنة ـ على كل وجه، موفقة للعمل بها بكل دقة. وهذا يعصمها من الخطأ والزيغ والضلال، ويأخذ بأيديها إلى الصراط المستقيم.

● يخبرنا ﷺ بهداية الله الأمة الصراط المستقيم، صراط المنعم عليهم، غير صراط المغضوب عليهم، وغير صراط الضالين. ويتحقق كل ذلك.

* فالأمة بحمد الله بعيدة عن صراط المغضوب عليهم. فليست بالأمة التى تعرف الحق وتحيد عنه، ليست هكذا والحمد لله، ولكنها تعرف الحق وتعمل به.

* والأمة أيضا بعيدة عن صراط الضالين، فليست بالتى تهمل دينها حتى تجهل حدوده، لا، ليست هكذا، وإنما هى تعرف دينها، وتحرص على ذلك، ومجالس العلم ذائعة، والأمة حريصة على ذلك، والحمد لله رب العالمين.

لقد بشرنا ﷺ أن الأمة ستعيش طول حياتها على الطريق القويم، تعلمه وتعمل به، نائية بنفسها عن الطرق الأخرى، من طريق الذين يعلمون الحق ولا يعملون، ومن طريق الذين لا يعلمون الحق ولا يعملون. بشرنا ﷺ أن الله سبحانه وتعالى يهدى هذه الأمة إلى العلم والعمل، فكان الأمر كما أخبر، فالأمة قبل زماننا، وفى زماننا، وبعد زماننا حريصة على الإسلام، تتعلمه وتعمل به، وهذا من معجزاته ﷺ، ومن دلائل نبوته.

• الدروس المستفادة من الحديث:

* إكرام الله سبحانه وتعالى أمة الإسلام، إذ تكرم سبحانه بتعليم رسوله الدعاء لنفسه ولأمته، وتكرم سبحانه بالاستجابة، فأنزل عليه سورة الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، وكلما دعا بدعوة من هذه طمأنه الله تعالى بالاستجابة له ﷺ، والأمة على هديه ﷺ تدعو بهذا الدعاء. والله الكريم يتقبل.

* عظيم قدر رسول ﷺ عند ربه، إذ أعطاه ما لم يعط غيره من البشر، فاختصه سبحانه بفاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، يدعو ويستجاب له.

* طرق الحياة متعددة، ولا خير إلا فى الإسلام، وعلى الأمة أفرادًا وجماعات أن تضبط منهجها على القرآن والسنة، ففى ذلك وحده الخير كل الخير.

* فى هذا الحديث معجزة له ﷺ، فإن الأمة بحمد الله موفقة للخير، مقيمة عليه، والحق فيها واضح، وهى فى مجموعها تحرص عليه وتقدسه، وهذا دليل واضح على صدق ما أخبر به ﷺ، وهو عَلَمٌ من أعلام نبوته، ودليل قوى على صحة السنة وقداستها.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

١٢ـ١٨ـ الدعاء بالتيسير والرحمة والنصر لهذه الأمة

واضح من حديث عبد الله بن عباس السابق(١) أن الله بشّر رسوله ﷺ باستجابة الدعاء الوارد فى سورة الفاتحة «الهداية، الذى تكلمت عليه قبل ذلك» وأيضا استجابة الدعاء الوارد فى ختام سورة البقرة.

ولقد جاءت أحاديث أخرى تفصل استجابة الله الدعوات التى علمها الله نبيه والأمة فى ختام سورة البقرة، وأن الآية الأخيرة لما نزلت على رسول الله ﷺ كان كلما قرأ دعوة من هذه الدعوات، كان الله سبحانه وتعالى يوحى إليه بالاستجابة، يوضح ذلك ما يأتى:

* عن أبى هريرة قال «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) قال: فاشْتَدَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فَأَتَوْا رسول الله ﷺ، ثم بركوا على الرُّكَبِ فقالوا: أىْ رسول الله(٣)، كُلِّفْنا من الأعمال ما نُطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية، ولا نُطيقُها. قال رسول الله ﷺ: أَتُرِيدُون أن تقولوا كما قال أهل الكِتَابين مِنْ قَبْلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. فلما اقترأها القومُ ذَلَّت بها ألسنتُهم. فأنزل الله فى إِثْرِها ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ

(١) فى سؤال الهداية ص ٢٩٧.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٤.

(٣) يعنى: يا رسول الله.

وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [١] فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (قال: نعم[٢]) ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (قال: نعم) ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ (قال: نعم) ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (قال: نعم)»[٣].

* وعن ابن عباس قال «لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [٤] قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء[٥]. فقال النبى ﷺ: قولوا سمعنا وأطعنا وسَلَّمْنَا. قال فألقى الله الإيمان فى قلوبهم. فأنزل الله تعالى ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد فعلت[٦] ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: قد فعلت ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: قد فعلت»[٧].

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٢) أى لما قرأ رسول الله ﷺ الدعاء أجابه الله: نعم. أى قد استجبت لك.

(٣) الآية آخر سورة البقرة رقم ٢٨٦. والحديث أخرجه مسلم فى الإيمان باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يُكَلِّف إلا ما يطاق ١/ ١١٥.

(٤) سورة البقرة: ٢٨٤.

(٥) أى دخل قلوبهم منها خوف الحساب، هذا الخوف لم يدخل قلوبهم من شىء قبل ذلك كما جاء فى رواية الطبرانى «أتوا النبى ﷺ فجثوا على الركب فقالوا: لا نُطيق، كُلِّفنا من العمل ما لا نطيق ولا نستطيع» الدعاء ٢/ ٨٣٧.

(٦) أى قال الله: قد فعلت: أى استجاب الله هذه الدعوة.

(٧) أخرجه مسلم فى التخريج السابق ١/ ١١٦ رقم ٢٠٠/ ١٢٦. والترمذى فى تفسير الآية ٨/ ٣٣٨.

وواضح من هذين الحديثين، أن الله تبارك وتعالى علّم رسوله ﷺ والأمة هذه الدعوات، ولما قرأها رسول الله ﷺ، طمأنه الله بأنه سبحانه قد استجابها له ﷺ ولأمته، مؤكدا له «نعم. نعم».

و «قد فعلت. قد فعلت».

وفى رواية حديث أبى هريرة عند الطبرانى فى الدعاء[1] اجتمع اللفظان، ففى بعض الدعوات «نعم» وفى البعض الآخر «قد فعلت».

*** الدعوات السبع:**

والدعوات التى فى خواتيم سورة البقرة سبع دعوات:

١ ـ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

٢ ـ ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا.

٣ ـ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به.

٤ ـ واعف عنا.

٥ ـ واغفر لنا.

٦ ـ وارحمنا.

٧ ـ انصرنا على القوم الكافرين.

وهذه كلها قد استجابها الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، وللأمة الإسلامية.

١ ـ فدعوة التجاوز عن النسيان والخطأ:

هذه دعوة هى أصل من أصول الإسلام، وأن الله تبارك وتعالى لا يحاسب أحدا من أمة الإسلام على أمر نسيه، فمن نسى فريضة، فإنه لا

(٦) حـ٢ ص٨٣٧ رقم ١٢٣.

يحاسب عليها. وكذلك الخطأ، فمن أخطأ فى أمر ففعله على غير وجهه الشرعى فإن الله لا يحاسبه على ذلك.

أفادت ذلك الآية الكريمة، مع الحديثين اللذين تقدما فى صدر الباب، أن الله أخبر رسوله أنه لا يقرأ بحرف من الفاتحة وخواتيم سورة البقرة إلا أعطاه.

وأنه ما دعا ﷺ بدعوة من خواتيم سورة البقرة إلا طمأنه الله سبحانه بالاستجابة.

ولقد صرح رسول الله ﷺ بهذه المنَّة، فقال ﷺ «إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه»[(١)].

٢ ـ ودعوة ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.

والتى معناها: يا رب لا تكلفنا من الأحكام ما يشق علينا القيام به.

وهذه أيضا قد تحققت، وهى أصل من أصول الإسلام:

* قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[(٢)].

* وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[(٣)].

* وقال رسول الله ﷺ: «إن الدين يُسْر»[(٤)].

* وعن ابن عباس قال: قيل لرسول الله: أى الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة»[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن حبان فى مناقب الصحابة، باب فضل الأمة ١٦/٢٠٢ رقم ٧٢١٩ وهو حديث صحيح وفى طبعة صحيح ابن حبان مزيد من التخريج.

(٢) سورة الحج من الآية الأخيرة: ٧٨.

(٣) سورة البقرة من: ١٨٥.

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان باب الدين يسر ١/٩٣ رقم ٣٩.

(٥) أخرجه أحمد ٤/١٦، ١٧ رقم ٢١٠٧ وقال محققه: صحيح لغيره. وهو عند أحمد فى عدة =

وهذه الدعوة قد أراحت الصحابة كثيرا، وذلك أنه حينما نزلت الآية ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ شق ذلك على الصحابة ـ كما تقدم فى حديث أبى هريرة وابن عباس ـ ورأَوْا أن الحساب على ما فى النفس، يوقعهم فى المأثم، ويسبب لهم حرجا دينيا، فلما نزلت هذه الآية، وفيها هذه الدعوة ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ وأخبر الله رسوله باستجابتها، وأخبر رسولُ الله ﷺ بتكرم الله باستجابتها، حينئذ ارتاح الصحابة واطمأنوا.

ولذا يخبر رسول الله ﷺ عن هذه النعمة:

فعن أبى هريرة رضى الله عنه «عن النبى ﷺ قال: إن الله تجاوز عن أمتى ما حدثت به أنفسَها، ما لم تعمل أو تتكلم»[1].

والمراد: أن الله تبارك وتعالى لن يؤاخذ المسلمين على ما يخطر لهم، وهذه خصوصية لأمة الإسلام. لا يحاسبهم سبحانه على حديث النفس، ما دام مجرد خاطر، يعبر ولا يستقر. أما إذا استقر ودخل دائرة التنفيذ، فوقع العمل بالجوارح على مقتضاه، أو تكلم اللسان بوفقه، فهذا الذى تكون عليه المحاسبة.

٣ ـ وأما دعوة ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ .

فمعناها: يا رب لا تُنْزل بنا من البلاء ما لا نطيق.

وبتعبير آخر: يا رب لا تحملنا ما لانطيق من أمور الدين والدنيا. فلا

= مواطن، وعلقه البخارى فى عنوان حديث رقم ٣٩ وحسنه الحافظ فى الشرح، من طريق أحمد الذى خرجته منه.

(١) أخرجه البخارى فى الطلاق باب الطلاق فى الإغلاق ٩/ ٣٨٨ رقم ٥٢٦٩ وتقدم عنده فى العتق باب الخطأ والنسيان فى العتاقة ٥/ ١٦٠ رقم ٢٥٢٨ وهو عند مسلم فى الإيمان رقم ٢٠١/ ١٢٧ حـ١ ص١١٦.

نرتكب ذنبا يقام به الحد علينا، وهذا صعب لا يطاق، ولا تنزل بنا بلاء شديدا علينا، لا نطيقه.

إنها سؤال ورجاء أن يحيينا الله فى عافية.

وهذه دعوة تحققت، ولا زالت تتحقق، فالأمة من بدايتها إلى نهاية الحياة الدنيا تدعو بهذه الدعوة، وهى دعوة مستجابة، وعد ربنا باستجابتها، وأخبرنا رسولُنا بذلك.

ومن هنا يقول ﷺ: «فُضِّلت هذه الأمة على الناس بثلاث: جعلت لنا الأرض مسجدا وطَهُورا، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة، من بيت كنز تحت العرش، لم يعط منه أحد قبلى، ولا أحد بعدى»(١).

إن هذه الأمة قد فضلها الله واختصها بهذه الدعوات واستجابتها، يصبحنا سبحانه فى عافية، ويمسينا فى عافية.

والعافية نعمة عظيمة، فهى التى تلى الإيمان فى المنزلة، يوضح ذلك «قوله ﷺ: لم تُؤْتَوْا شيئا بعد كلمة الإخلاص مثل العافية، فسلوا الله العافية»(٢).

٤ ـ ودعوة ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾.

نلاحظ فيها أنها لم تُسْبق بـ «ربنا» بينما سبقت الدعوات الثلاث السابقة بـ «ربنا» وهذا أيضا فى الدعوتين التاليتين.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه فى أبواب التيمم باب ذكر ما كان الله عز وجل فضّل به رسول الله ﷺ على الأنبياء قبله.. بإباحته التيمم.. ١/ ١٣٢ رقم ٢٦٣ وأحمد ٥/ ٣٨٣ وقال فى المجمع كتاب التفسير باب سورة البقرة ٦/ ٣١٢ رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن حبان فى الرقائق باب الأدعية ٣/ ٢٣٠ رقم ٩٥٠، وأحمد ١/ ١٨٨ رقم ١٠ وهو حديث صحيح.

والسر فى ذلك أن هذه الدعوات الثلاث ـ ٤، ٥، ٦ ـ مرتبطة بالدعوات الثلاث السابقة ـ ١، ٢، ٣ ـ فدعوة ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ مرتبطة بـ ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ فعدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان عفو.

ومعنى ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ تجاوز عن تقصيرنا وزللنا.

يسأل رسولُ الله ﷺ والأمةُ فى كل أجيالها، جميعا نسأل الله أن يعفو عن أى تقصير تقع فيه الأمة، وأن يتجاوز سبحانه عن أى زلل يقع من عموم الأمة.

إنها دعوة أمة، يلهمنا ربنا ويعلمنا أن ندعوه بها، للأمة فى كل أجيالها.

٥ ـ ودعوة ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾.

أى استرنا يا رب بين خلقك، واجعلنا متمسكين بدينك، حماة له، محافظين عليه. وهى مرتبطة بالدعوة الثانية ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ فالتيسير فى أمور الدين مغفرة عظيمة، فبدل أن تأتى التكاليف شديدة وتعجز الأمة عن بعضها فتقع فى الإثم، وتحتاج المغفرة، بدل ذلك سبقت مغفرتُه سبحانه، فجاءت التكاليف ميسرة، مما يجعل الأمة لا تُطْبق على ذنب، فلا تفتضح بين الأمم.

وهى دعوة أمة، يعلمنا ربنا تبارك وتعالى أن نسأله المغفرة، والتى هى الستر، نسأله سبحانه أن يستر الأمة بين الأمم، ببعدها عن الذنوب، والتزامها بدينها.

ورأى هارون الرشيد ـ خليفة المسلمين ـ عاصفة تهب على بلاد المسلمين، فصلى، وكان من دعائه «اللهم لا تفضحنا بين الأمم».

٦ ـ ودعوة ﴿وَارْحَمْنَا﴾.

فبرحمتك نُوَفَّق لامتثال أوامر ديننا. ونوفق للاجتهاد فى نصرته. وتُيسِّر لنا كل خير. وتُبْعدنا عن كل شر.

وهذه الدعوة مرتبطة بالدعوة الثالثة **﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾** ففى الدعوة الثالثة نسأل الله أن لا ينزل بنا ما يشق علينا، وفى هذه الدعوة السادسة نسأله سبحانه أن يرحمنا، فبرحمته سبحانه نهتدى لكل خير، ونقدر على كل طاعة، كما قال سبحانه: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾**[1].

إنها دعوة أمة، نسأل الله أن يعمها برحمته، فتوفق لكل خير، ويحفظها سبحانه من كل شر.

وقد أوحى الله لرسوله باستجابته سبحانه وتعالى هذه الدعوات.

٧ ـ ودعوة ﴿أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

تميزت هذه الدعوة عن الدعوات السابقة بمطلعها العظيم **﴿أَنتَ مَوْلانَا﴾** أى: يا رب أنت ولينا، أنت سيدنا، أنت مالكنا. ثم رتبوا على ذلك سؤال النصر على الكافرين، فقالوا **﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** وكلمة «القوم» تفيد النصرة على الكافرين مهما كثروا، فهى أقوى مما لو قالوا: فانصرنا على الكافرين.

إن هذه الدعوة فيها رسول الله ﷺ والأمة يسألون الله سبحانه وتعالى أن ينصرنا على الكافرين أعدائنا فى الدين، وأن يُمكِّن سبحانه وتعالى لنا فى الأرض، وأن يعزنا جل جلاله.

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

وهـذه الدعـوة أعظم من الدعـوة التى تقـدمت فى حديث سؤال رسول الله ﷺ ربه أن لا يسلط على أمته عدوا من غيرهم فيهلكهم. ذلك أن الدعوة هنا فيها سؤال الله نصرة المسلمين على الكفار، أما الدعوة التى فى الحديث الذى تقدم فى صدر الباب، ففيها ما هو أقل من ذلك، فيها أن لا يهزمنا عدو.

وعموما فالدعوتان مجابتان، فلن يهلك هذه الأمة عدو، والله ناصرها على الكافرين.

• وجه الإعجاز فى الحديث:

أوحى الله تبارك وتعالى إلى رسوله ﷺ سبع دعوات فى خواتيم سورة البقرة، وأوحى إليه فى هذا الحديث أنه ما أن يدعو بدعوة منها إلا استجاب الله تبارك وتعالى له. فدعا بها ﷺ، وعقب كل دعوة كان الله يطمئنه على الاستجابة.

وهذه الدعوات السبع منها ما هو فى أصل الدين، وهو:

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

و ﴿ رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾

فهاتان الدعوتان استجابهما الله تبارك وتعالى، وهما من أصول الإسلام، فالله لا يؤاخذ المسلم على النسيان ولا على الخطأ، ولم يحملنا سبحانه ثقيلا فى أمور الإسلام.

أما بقية الدعوات والتى فيها:

سؤال الله أن لا يثقل كاهلنا بالبلاء.

وأن يعفو سبحانه عن زلاتنا.

وأن يغفر لنا.

وأن يرحمنا.

فهذه استجابها سبحانه، وعلى طول عمر الأمة لم ينزل سبحانه بلاء عاما بسبب ذنب، وإنما يغفر لنا سبحانه، ويرحمنا جل جلاله.

أما الدعاء بالنصر على الكفار فهذه دعوة مستجابة على الدوام، فالنصر حليف الأمة، يعزها ربنا وينصرها. ولقد علم الكفار ذلك فلا يجرءون على مواجهة المسلمين، وإنما يستعينون بالمسلمين على المسلمين، ويستعينون بجماعات المنافقين، ومن غُذُّوا بثقافة كافرة، ولكن تكون النتيجة نصرة المسلمين.

وهكذا تحققت هذه الدعوات، وتتحقق فى زماننا، ويقع الأمر كما أخبر ﷺ من أن الله سبحانه استجاب له هذه الدعوات.

وهذه معجزة من معجزاته ﷺ التى ظهرت فى زماننا، وعلم من أعلام نبوته، وبرهان ساطع على صحة وصدق سنته ﷺ.

• الدروس المستفادة من الحديث:

* دقة الصحابة فى تقدير أمور الإسلام، يتضح ذلك من موقفهم من إخبار الله سبحانه بالمحاسبة على كل ما فى النفس سواء أبداه المسلم أو أخفاه، لقد هابوا ذلك وخافوا منه، وسألوا الله التخفيف.

* إكرام الله تبارك وتعالى رسوله محمدا وأمة الإسلام، حتى إنه سبحانه يخفف عن الأمة ما يشق عليهم، ويوحى إلى رسوله ﷺ هذه الدعوات العظيمة، يُعَلِّمُه ويستجيب له ولأمته.

* قدر رسول الله ﷺ عند ربه سبحانه، حتى إن الله تبارك وتعالى

يبشره بميزتين عظيمتين لم يؤتهما أحد غيره، هما سورة الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، يدعو بهما ﷺ، ويستجيبهما الله تبارك وتعالى له.

* عظم مكانة هذه الأمة، وأن الله سبحانه اختصها بالهداية للصراط المستقيم، واختصها سبحانه بالعصمة من الزيغ والضلال.

* يسر الإسلام، وإذا خشى المسلم شدة أمر منه عليه فَلْيَلُذْ بجانب الدعاء والتضرع، فإن الله ييسر عليه ذلك.

* * *

• وختامًا:

فبعد شرح هذا العدد من الأحاديث النبوية أؤكد على أبرز ما يستفاد منها:

* أمة الإسلام سيعتريها ضعف، يجعل الأمم الأخرى تتنافس فى الاستيلاء علي أرضها، والاعتداء على عزتها، وهذا الضعف سببه البعد عن الإسلام.

* سيصل الضعف بالأمة إلى حد أن يتشبه الكثيرون منها بالكفار!!

* هذا الضعف علاجه معروف، وهو العودة إلى الإسلام.

* وهذا الضعف لن يشمل الأمة كلها، وإنما ستظل طائفة على الإسلام حقا وصدقا، هذه الطائفة يعز الله بها دينه، وتفيدنا هذه الأحاديث أن نحرص على هذه الطائفة، نكون منها، ونتعاون فى بلوغها غايتها.

* أمة الإسلام أمة خالدة إلى قيام الساعة، سأل رسول الله ربنا لنا أن لا نهلك بجائحة عامة: كالقحط، والعدو، والجوع، والغرق، والريح، والزلازل. وهذه الجوائح لن تهلك الأمة بأسرها، لكنها قد تحل بفرد أو مجموعة، وعلى الأفراد والمجموعات أن تحذرها، وقد بين الإسلام سبل النجاة منها.

* أمة الإسلام معصومة من الكفر والضلال، فلن تكفر كلها، ولن تضل جميعها، وإنما ستظل على الإسلام إلى قيام الساعة. إلا أنه قد يكفر أو يضل فرد أو مجموعة، ومن هنا فعلى الأفراد والجماعات أن تحذر الكفر والضلال، وقد بين الإسلام سبيل الثبات على الحق، والنجاة من الضلال.

* على الأمة أن تحذر الاختلاف والاقتتال فيما بينها، فلقد سأل رسول الله ﷺ ربه أن يقى الأمة ذلك فوكلنا الله إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، ففيهما المنهج الكفيل بالنجاة من ذلك، وهما يعالجان اختلافنا، ويوحدان صفنا.

* ويتضح من هذه الأحاديث وتلك الدراسة عظيم قدر رسول الله ﷺ عند ربه عز وجل، فلقد رجا لأمته الكثير، فاستجاب الله سبحانه وتعالى دعواته ﷺ لأمته على طول حياتها.

* أمة الإسلام أمة ذو قدر عند الله، فلقد حباها سبحانه بدعوات أنزلها فى كتابه على رسوله، فى سورة الفاتحة وَخواتيم سورة البقرة، وأعلمه أنه كلما دعا بدعوة استجابها الله له ولأمته، فدعا ﷺ واستجاب الله تبارك وتعالى.

إنها أمة التوحيد، وأمة الدين الخالص، تعمل بشرع الله الذى فى الكتاب والسنة، مؤمنة أن هذا سبيل سعادتنا وعزنا.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يوفقنا لما يرضيه، وصلِّ اللهم وسلم وبارك على عبدك ورسولك سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين

* * *

إلى هنا انتهى القسم الثانى

ويليه القسم الثالث «التحذير من الفِتَن»

أسأل الله العون على التمام وعلى كل خير

* * *

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع الصفحة

* * *


منتدى سور الأزبكية